© أوراق فلسطينية

تصدر عن مؤسسة ياسر عرفات
رئيس مجلس الادارة: د. ناصر القدوة

رئيس التحرير: يحيى يخلف
مدير التحرير: غسان زقطان
مستشار التحرير: فيصل دراج

يشارك في التحرير: فيصل حوراني
عبد الفتاح القلقيلي
أحمد نجم

الهيئة الاستشارية: حلمي النمنم
كمال عبد اللطيف
محسن بوعزيزي
كريم مروة

ادارة: رفيف الأسمر
وليد زبيدي

تصميم الغلاف: زهير ابو شايب
التصميم الفني والإخراج: عاصم ناصر

جميع الحقوق محفوظة لمؤسسة ياسر عرفات

ISBN 978-9950-375-04-8

AWRAQ FELASTINIA

فصليّة فكريّة عربيّة تصدر عن مؤسّسة ياسر عرفات

العدد «١٨» خريف ٢٠١٧

المراسلات:

العنوان: ص. ب: ٥٧٣

رام الله – فلسطين

هاتف: ٢٩٥٧٣٧٣ – ٩٧٠٢ + / ٢٩٥٧٣٧٢ – ٩٧٠٢ +

Email: awraq.falastinya@gmail.com

www.yaf.ps/awraqfelastinia

الاشتراكات السنوية:

٥٠ دولاراً للأفراد، ٨٠ دولاراً للمؤسسات (بما فيها نفقات البريد)

ترسل الاشتراكات شيكاً إلى العنوان البريدي أو حوالة بنكية على حساب المؤسسة:

البنك العربي

رام الله – فلسطين

فرع الماصيون

رقم الحساب: ٥١١ – ٤٨٠٢٥٢ - ٩٠٩٠

Ps 57 arab000000009090480252510

الآراء الواردة تعبر عن رأي الكتّاب، وهي لا تعبر بالضرورة عن رأي المؤسسة.

الفهرس

الافتتاحية

٧ **هبّة القدس قوّة دافعة للوحدة**

هيئة التحرير

١١ **في ذكراه الـ ١٣**
ياسر عرفات رجل عصره وبطل زمانه

يحيى يخلف

أوراق فلسطينية

٢٩ **القرن العشرون: قرن يهودي**
أم قرن البشرية كلها؟

د. فيصل درّاج

٤١ **الأولوية لبناء نظام سياسي**
أم لبناء منظمة تحرير؟

د. جميل هلال

٥١ **السياسة الأميركية الجديدة**
في عهد ترامب تجاه الشرق الأوسط

عبد الغني سلامة

٦٣ **أربعون عاماً من الرقص**
على الإيقاع الأميركي

شذى يحيى

٧٧ **مستقبل الضفة الغربية وقطاع**
غزة، من أرشيف الجلسات الأولى
للحكومة الإسرائيلية عام ١٩٦٧

عليان الهندي

٩١ **وعد بلفور: توراة الحركة الصهيونية**
وإنجيل الغرب الاستعماري

عزيز العصا

أوراق عربية

١٠٥ **هكذا أقرأ مئوية ثورة أكتوبر**
وأقدم برنامجاً للتغيير
الديمقراطي في بلداننا

كريم مروة

١١١ **أيام في رام الله**

محمود الورداني

١٢١ **وضحات وعتمات**
بين الأدب والداعشية

نبيل سليمان

الآراء الواردة تعبر عن رأي الكتّاب، وهي لا تعبر بالضرورة عن رأي المؤسسة.

الفهرس

١٢٩ **الكذب كخطأ شائع**

عبد الفتاح القلقيلي

أوراق ثقافية

١٣٥ **استلهام ألف ليلة وليلة في القصة والرواية العالمية**

حسين عيد

١٤٥ **التجربة الذاتية وتجلياتها في الرواية العربية: أطروحة عن هوية التجربة (المتن المغربي مثالا)**

أحمد المديني

١٥٧ **الروّاد المقدسيّون في الحياة الفكرية والأدبية في فلسطين قبل النكبة**

جهاد أحمد صالح

١٧١ **«الانتفاضة الأولى» في الرواية الفلسطينية .. استعادة غائبة والغلبة للتوثيق**

بديعة زيدان

١٨١ **رسالة الى ابن بطوطة: سنابل العشق في رسائل الحلم**

ليلى مليس

١٩٣ **إسماعيل أنا**

رشدي الماضي

١٩٧ **قصة قصيرة: ولا ينقصنا إلاَّ رؤياك!**

أميمة عز الدين

٢٠١ **ياسر عرفات؛ الختيار في حصاره**

المتوكل طه

أوراق المؤسسة

٢١٠ **تقرير فعاليات مؤسسة ياسر عرفات**

فلسطين أولا

في زمن ما يسمى بصفقة القرن نقول لا: فلسطين أولا. في زمن الضياع وانهيار الدولة الوطنية والاحتراب العربي الداخلي والتحالفات الإقليمية والدولية نقول: فلسطين أولا.

في زمن مرور مائة عام على وعد بلفور ومشروع سايكس بيكو نقول: فلسطين أولا.

في زمن تفاقم الطائفية السياسية، والانقسام الطائفي ما بين شيعي وسني وعربي وكردي، واثارة النعرات الطائفية نقول: فلسطين أولا.

في زمن تسابق بعض الدول على نسج اتصالات مع إسرائيل فوق وتحت الطاولة نقول لا: فلسطين أولا.

في زمن خيانة مبادرة السلام العربية، وتحقيق حلم إسرائيل بالتطبيع العربي مع العرب دون تحقيق حقوق الشعب الفلسطيني نقول لا: فلسطين أولا.

في زمن تدمير المخيمات وزمن شتات الشتات، زمن الهجرة ورحلات اللجوء عبر زوارق الموت، نقول لا: فلسطين أولا.

في زمن الإرهاب والتطرف، زمن داعش والنصرة والقاعدة وإدارة التوحش باسم الدين نقول لا: فلسطين أولا.

في زمن تسليم الأوراق العربية: السياسة والاقتصاد والمال لأميركا لدعم تحالف سني في مواجهة تحالف شيعي تمثله ايران نقول لا: فلسطين أولا.

لسنا طرفا في المحاور ولا في الصراعات المذهبية والعرقية ولا في الحروب الداخلية العبثية، ولا في الجدل الدائر وحوار الطرشان.

نحن نريد محيطاً قومياً نتذوق معه حلاوة الانسجام لا مرارة التباين.

نريد أن نحافظ على أن تظل القضية الفلسطينية هي القضية المركزية للأمة العربية، ولب الصراع في الشرق الأوسط.

ونضمر لأمتنا العربية العملقة والوحدة والخروج من حالة التشرذم والانقسام، لأنه عندما تضعف الأمة ويتفكك تضامنها ويضعف تأثيرها، ويخبو بريقها، وتفقد وحدة الصف والهدف ينعكس ذلك على القضية الفلسطينية لأنّ العامل العربي عنصر هام من عناصر قوة القضية .

***

يتحدث الرئيس الأميركي عن صفقة القرن لإحلال السلام بين الاسرائيليين والفلسطينيين، بما يوحي بفرض حل على الجانبين،

وبالرغم من أنّ الأميركيين لم يفصحوا عن فحوى مشروع وبنود صفقة القرن، فإن ما يرشح مما ينشر في وسائل الاعلام ينبئ عن حل مطبوخ في مطبخ نتنياهو يرتدي ثوبا اميركيا، ولعلنا نقرأ في الضغوط التي يضغط بها ترامب على الجانب الفلسطيني فحوى تلك الصفقة الكارثية التي تخبؤها لنا السياسة الأميركية. ومن هذه الضغوط: اغلاق مكتب منظمة التحرير، والتلويح بنقل السفارة الأميركية من تل أبيب الى القدس. وهذا يمثل رسالة الإدارة الأميركية تقول لنا: إسرائيل أولا.

ولا يبتعد هذا القول عما يقوله بعض المفكرين الأميركيين حول أولوية بفكرة تعظيم دور اليهود في هذا العالم.

وفي هذا الصدد فإننا نستعرض في هذا العدد كتابا صدر في أميركا ولم يترجم للعربية يعتبر القرن العشرين هو قرن اليهود.

كان كثير من المفكرين يعتبرون القرن العشرين هو قرن الأميركان، ولكن تقويم القرن العشرين ينطوي حسب د. فيصل دراج المفكر الفلسطيني المعروف على تعقيدات كثيرة تجعل اتفاق النظر اليه أمرا مستبعدا ،فهو قرن الثورات الاجتماعية الكبرى التي تمثلت بالثورتين السوفيتية والصينية، وقرن الثورات العلمية والتقنية الممتدة من النظرية النسبية الى تقنيات الكمبيوتر والحاسوب ،وقرن القنبلة الذرية التي أهلكت مئات الألوف من البشر، وهو الذي شهد افقار قارة افريقيا ،وفي هذا القرن قامت دولة إسرائيل التي اقتلعت الفلسطينيين من وطنهم، فكيف يمكن تقويم قرن له وجوه متناقضة؟!

ويستعرض د. فيصل في مقاله بهذا العدد كتابين حول القرن العشرين أحدهما للفيلسوف والمفكر الفرنسي (آلان باديو) الذي يتهمه اليهود بمعاداة السامية، وكتاب آخر لفيلسوف أميركي هو(يوري

سلزكين) المناصر لإسرائيل ولليهود بشكل عام.

في هذا العدد يعتبر الكاتب والمفكر الفلسطيني فيصل دراج أن (آلان باديو) احتفى بالجهود الإنسانية المتعددة المتنوعة التي انتجت (القرن)بسبب تنوعة الإبداعي، فيما اختزل (يوري سلكزن) القرن في العبقرية اليهودية، وأعطى القرن صفة يهودية. وتقف وراء سيلكزن سلطة إعلامية أتقن اليهود السيطرة عليها في أميركا وخارجها منذ زمن طويل.

سنجد العديد من المفكرين في الولايات المتحدة من أمثال سيلكزن وفوكومايا وهنتنغتن ينّظرون لسياسات التوحش والتمييز وتأجيج الصراع واستعمال القوة بالدعوة للتفوق الأميركي واليهودي والدعوة لصراع الحضارات والصدام ما بين الغرب الحضاري والإسلام.

اطروحات هؤلاء المفكرين ترسم السياسات التي يتعين لأميركا أن تنتهجها من أجل مستقبل نظام عالمي جديد في القرن الواحد والعشرين، ليكون قرن اليهود والأميركان.

***

توافق الذكرى الثالثة عشرة لرحيل القائد الرمز ياسر عرفات تباشير تحقيق المصالحة وانهاء الانقسام، والتي رحّب بها الشعب الفلسطيني وكل أصدقاء فلسطين في الوطن العربي والعالم.

وبالرغم من العقبات التي ما زالت تواجه المصالحة في عملية تطبيق ما اتفق عليه، فإننا لا نفقد الأمل، خصوصا وأن مصر تعمل بجهود دؤوبة كوسيط لتقريب وجهات النظر وتذليل العقبات.

وعلى حماس، سلطة الأمر الواقع في غزّة أن تمضي قدما في العودة الى الشرعية، وأن تمكّن الحكومة من ممارسة صلاحياتها.

وعلى الجميع في اللجنة التنفيذية وقيادات الفصائل قراءة الوضع

العربي والوضع الدولي والمخاطر التي تحيط بالقضية الفلسطينية ومشروعها الوطني، وأن تتوحد كل الجهود وتتضافر من أجل تمتين وتصليب جبهتنا الداخلية، وتعزيز موقفنا وثوابتنا من أجل احقاق حقوقنا بالعودة وتقرير المصير وتجسيد قيام الدولة الفلسطينية ذات السيادة على حدود الرابع من حزيران وعاصمتها القدس.

لنتحد كفلسطينيين لنا قضية تستحق من أجلها أن نكون قبضة تاريخية واحدة، ونردد بصوت واحد: فلسطين أولا.

***

ونواصل في مجلة «أوراق فلسطينية» تقديم دراسات فكرية حول القضية الفلسطينية، ومكانتها، وهمومها، وعلاقاتها بالمحيط القومي والإقليمي والدولي، كما نواصل تقديم مادة تنويرية وابداعية في الملف الثقافي .

ويتضمن العدد ملفا خاصا عن الزعيم ياسر عرفات تتصدره شهادة للمناضل الكبير نيلسون مانديلا الذي هزم وشعبه نظام الأبرتهايد والتمييز العنصري في جنوب أفريقيا، وهذه الشهادة تستحق التقدير والإعجاب.

وتتقدم أسرة المجلة من قرائها وكتابها مع اقتراب حلول العام الجديد بأحر التهاني، وأطيب التمنيات بعام جديد مختلف تتحقق به

أهدافنا وحقوقنا.

هيئة التحرير

في ذكراه الـ ١٣

ياسر عرفات رجل عصره وبطل زمانه

يحيى يخلف

لم يخرج ياسر عرفات من عشيرة أو قبيلة، ولا من طبقة برجوازية أو ارستقراطية، ولم تدفعه الى الظهور منطقة جهوية، ولا دفعه الى الظهور حزب سياسي، ولم تصنعه قوى تصنع القيادات في لعبة الأمم، وإنما خرج من صفوف البسطاء والفقراء والكادحين والذين شرّدهم الاحتلال والقى بهم في المنافي والشتات.

في ذلك الزمن الذي شبّ فيه وترعرع كان فتى عاديا، يتحلى بالوطنية مثل غيره من الشباب الفلسطيني الذي خرج من جرح النكبة، لكنه كان مبادرا يفكّر بالطريقة نفسها التي يفكّر بها العديد من الشباب الطليعي الذي يسكنه حب وطن ضائع، وشعب مشرد.

كان فتى عاديا حين بادر الى دعم الثوار وجمع السلاح لهم ابّان حرب عام ١٩٤٨، وكان فتى عاديا حين ذهب للتدريب ورافق المقاومين المصريين عام ١٩٥٢على جبهة قناة السويس، وكان فتى عاديا عندما بادر الى خوض انتخابات رابطة طلبة فلسطين في القاهرة.

في الرابطة التقى برفاق يشبهونه، ويحملون حب فلسطين جمرة لا تنطفئ في وجدانهم.

كان رفاقه في الرابطة شباناً حالمين، خرجوا من صفوف الفقراء والبسطاء، يبحثون عما يمكن فعله لحماية الهوية الفلسطينية، ومساعدة زملائهم الفقراء في تسديد أقساط الجامعات، والاحتفال بالمناسبات الوطنية، ومد الصلات مع الطلبة العرب.

كانوا طلبة عاديين، ولكنهم مبادرون، وناشطون، وقادرون على بلورة الفكرة، وعلى إعلاء اسم فلسطين في التجمعات والاتحادات الطلابية العربية والعالمية.

من هنا نضجت تجربة الفتى العادي الذي سيصبح غير عادي وهو يغذ السير نحو الفكرة.

ومن هنا نضجت تجارب رفاقه العاديين الذين سيرافقونه ويصبحون غير عاديين.

اتسع دور الرابطة في وقت خلت فيه الساحة من التمثيل السياسي لفلسطين، وصارت مرجعية وطنية لآلاف الطلبة الفلسطينيين في جامعات العالم، وكانت الرابطة التشكيل الوطني المعترف به للهوية الفلسطينية.

ياسر عرفات كان مفردا بصيغة الجمع، لذا تبوأ الموقع القيادي في رابطة الطلاب، وعندما أنهى دراسته ولم يعد طالبا، دفعه طموحه القيادي الى تأسيس رابطة للخريجين.

استقطبت الرابطة طلبة ينتمون الى أحزاب قومية وإسلامية وأممية، والى طلبة مستقلين، فكانت الرابطة أول جبهة وطنية توحد مختلف التيارات والتوجهات، لكن ياسر عرفات كان فلسطينيا مستقلا يطمح الى تشكيل قوة فلسطينية تعيد إحياء الوطنية الفلسطينية وتختلف عن الأحزاب القومية أو الإسلامية أو الأممية التي لم يكن في أولوياتها الانخراط الفوري في تحرير فلسطين.

تعلّم ياسر عرفات واكتسب خبرة ومعرفة، ونضجت الفكرة في أعماقه من خلال الممارسة، ومن هنا أصبحت الطريق التي سيسلكها شديدة الوضوح، وهي البحث عن سر القوة.

كانت مرحلة النصف الثاني من خمسينات القرن الماضي تشهد نهوضا قوميا، فالمد الناصري يتصاعد، والثورة الجزائرية تعلن الكفاح المسلح، وحركات التحرر في آسيا وافريقيا تحقق انتصارات، والشعب الفلسطيني في أماكن تواجده كافة متعطش لامتلاك سر القوة، وانتزاع زمام المبادرة. إذ ذاك توفرت الظروف التي ستطلق الوطنية الفلسطينية من عقالها.

عندما انفتحت أبواب الخليج، توزعت النخب الفلسطينية على دول الخليج للعمل، وساهمت الظروف في تشكيل بؤر وخلايا فلسطينية تطلق على تشكيلاتها أسماء تنظيم أو جبهة تسعى لتحرير فلسطين، لكنها كانت في الواقع ليس أكثر من نوايا طيبة لمجموعات حالمة تجتمع في غرف مغلقة.

التقى العادي ياسر عرفات بالعادي خليل الوزير في الكويت في النصف الثاني من خمسينات القرن الماضي، كانت الفكرة قد نضجت، فلكل منهما تجربة يعتدّ بها، ياسر عرفات في الرابطة، وخليل الوزير تجربة وممارسة ميدانية، فهو الذي أسس مجموعة فدائية عام ١٩٥٤ وهو طالب في الثانوية مع رفيقيه محمد الافرنجي وحمد العايدي، قامت بعمليات فدائية على

الشريط المحاذي لقطاع غزة، وانتهت عندما اكتشفتها الإدارة العسكرية المصرية، وأدت الى اعتقال خليل الوزير ثمّ نفيه الى الإسكندرية.

التقت أفكار الرجلين اللذين كانا مفتونين بتجربة جبهة التحرير الجزائري، ومعا حدّدا برنامج عمل حالم ما كان له أن يتحقق لولا عبقرية الانتقال من التنظير الى الممارسة، ومن المجرد الى المحسوس. ولولا انضمام رفاق درب في الرابطة الى الفكرة، وانضمام مجموعات أخرى في قطر والسعودية وسورية والأردن وألمانيا وداخل الأرض المحتلة.

من هنا صار العادي غير عادي، وصارت الظروف مواتية لظهور جيل طليعي سيكتسب فيما بعد لقب: جيل العمالقة.

تأسست حركة فتح في السياق التاريخي المناسب، وتشكّلت من نهر وروافد، وأصبحت حركة فدائيين يرفعون شعار: الكفاح المسلح الطريق الوحيد لتحرير فلسطين، وأعادت الاعتبار للهوية الفلسطينية، ورافقت تأسيس منظمة التحرير، بل وتبوأت قيادتها بعد الإنجازات التي حققتها الحركة الفدائية وخصوصا بعد معركة الكرامة.

من صفوف البسطاء الحالمين خرج ياسر عرفات، ظهر في لحظة تاريخية كان الشعب الفلسطيني فيها بحاجة الى رموز تعيد له الثقة والكرامة والأرض والوطن.

خرج باسمه الحركي، وظلّ بعيدا عن الأضواء، ينكر الذات، ويتقدم الصفوف من أجل التضحية، ويعيش مع رفاقه في قواعد الفدائيين التي انتشرت في الأغوار على امتداد ضفة نهر الأردن، ويقود ببسالة وشجاعة معركة الكرامة، وما كان لأحد من خارج صفوف رفاقه أن يعرف هذا القائد لولا ذلك الغلاف الذي تصدّر صورته في مجلة ال TIME فعرف العالم هذه الشخصية الأسطورية التي قادت معركة هزمت الجيش الإسرائيلي هزيمة قاسية.

كان الكفاح المسلح يزرع، والسياسة تحصد، وأصبحت منظمة التحرير الممثل الوحيد للشعب الفلسطيني.

لم يهمل ياسر عرفات العمل السياسي، فقد كان يعرف أنّه يقود واحدة من أكبر حركات التحرر الوطني في العالم معترف بها عربيا ودوليا، وأنّ هذا الكفاح يتعين أن يستثمر سياسيا.

امتد عمل المنظمة من خلال سفرائها ودائرتها السياسية وقياداتها الى مختلف الدول والقارات، وخصوصا في أوروبا التي دعمت أوساطها اليسارية النضال الفلسطيني، وكان لابدّ من طرح مبادرات سياسية في مواجهة الدعاية الإسرائيلية، فطرحت منظمة التحرير عام ١٩٦٩ مشروع

الدولة الديموقراطية المدنية على كامل التراب الفلسطيني، وكان ذلك عملا سياسيا بارعا حاز على ترحيب واسع في الأوساط اليسارية، ووسّع معسكر الأصدقاء في العالم، وبما أن ياسر عرفات صار رمزا فإن كوفيته التي يعتمر بها صارت أيضا رمزا للحرية يتباهى به الشبيبة اليسارية في مختلف بلاد العالم.

كثيرة هي التحالفات التي عقدتها منظمة التحرير في هذا العالم، وكثيرة هي المنظمات التي اعترفت بها، فقد كانت عضوا في الجامعة العربية، ومنظمة التعاون الإسلامي، وحركة عدم الانحياز، وعضوا مراقبا في الأمم المتحدة، وشريكا في منظمات دولية ومنها منظمة الوحدة الأفريقية، وصداقات وعلاقات مميزة مع دول اميركا اللاتينية والبحر الكاريبي، وخصوصا دولة كوبا.

ولعل التحالف الأكبر الذي حققه ياسر عرفات هو التحالف مع الاتحاد السوفياتي القطب الثاني الذي كان يتشكل منه النظام الدولي. فالاتحاد السوفياتي في ذلك الحين كان يعتبر الأحزاب الشيوعية والحركات العمالية وحركات التحرر في العالم هم معسكر أصدقائه.

لم يكن ياسر عرفات شيوعيا وانما وطنيا فلسطينيا بامتياز، لكنّه يجيد قراءة السياسة الدولية، فوجد في الاتحاد السوفياتي ومنظومة الدول الاشتراكية قوّة كبرى تعزز مكانة منظمة التحرير، وتحقق الكثير من هذا التحالف سياسيا وعسكريا، وفتح الباب أمام الطلبة الفلسطينيين للدراسة، وعومل ياسر عرفات في المنظومة الاشتراكية كزعيم وطني تحرري بأكثر مما كان يعامل بها زعماء الأحزاب الشيوعية.

حقق ياسر عرفات مجدا وعظمة في الساحة الدولية، ولم تكن صحف العالم تخلو من خبر أو تحليل لكفاح الشعب الفلسطيني، أو تصريح لزعيمه، وكان مراسلو وسائل الاعلام العربية والعالمية يسعون للقائه، ولم يرفض الزعيم اجراء اللقاءات الصحافية معه، فقد كان يعتقد أن الاعلام وسيلة لإيصال صوتنا الى العالم، والى إيصال روايتنا للرأي العام الذي ظل لسنوات طويلة لا يستمع الا للرواية الإسرائيلية.

حقق سمعة دولية ، ولكن الغرور لم يعرف طريقه اليه، ظل التواضع سمة من سماته، والبساطة سلوك يعبر عن سجاياه، وتجلى ذلك في حياته ومعيشته وطعامه وشرابه، فلباسه البسيط من قماش الكاكي لا يتغير، وغرفة نومه تشبه غرف البسطاء من أبناء شعبه، ولا يعيبه أن يخيط بنفسه ثقبا في جوربه أو زرا سقط من قميصه، ولا يأكل الاّ مع زائريه ورفاقه البسيط والعادي من الطعام، وفي أغلب الأحيان كان يكتفي بطبق من الحساء مع القليل من حبات

الذرة، ومن سجاياه المعروفة أنّه كان يطعم ضيوفه الذين يجلسون قربه بيده الكريمة، ولعلّ اطيب الوجبات اليه تلك التي كان يتناولها مع أبنائه الفدائيين في قواعدهم حيث يصبح للوقت مذاق التفاح ، أو مع أطفال شهداء تل الزعتر في بيت أطفال الصمود حيث يستمتع بمشاعر أبوّة ليس لها مثيل، وطالما حمل لهم بعد عودته من زياراته لدول العالم الألعاب والفاكهة.

كان ودودا يمتلك طاقة إيجابية تشبه المغناطيس تجذب اليه الناس والكوادر والقيادات والزعماء والشخصيات العامة محلية كانت أو عربية أو دولية، طاقة إيجابية يرفقها بابتسامته الساحرة فتجذب اليه محدثة من أول لقاء.

وكان حليما قلما يغضب، لكنه اذا غضب يغضب قليلا، فهو كالحديد يسخن بسرعة ويبرد بسرعة.

ولم يكن حقودا، فليس رئيس القوم من يحمل الحقد، وحتى لو كان في داخله عتب فإنّه لا يظهره، وطالما كان يردد الآية الكريمة: واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا.

مع هذه الجسور التي يمدها مع الآخر، ومع هذه البساطة في العيش والتعامل مع رفاقه ومع الآخرين، فإنّه في السياسة كان محنّكا، يجوب الدول ويذرع القارات ويتوجه الى أبعد نقطة على خارطة العالم من أجل كسب الدعم وتوسيع معسكر الأصدقاء.

كان يتلقى التقارير السياسية التي ترفع له من كل الجهات المختصة، ويأخذ بها علما ويحوّلها الى أعضاء اللجنة المركزية، وأعضاء اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير.

كان سياسيا عز نظيره، يتقن اللعبة، ويتقن المناورة، يقرأ السطور، ويقرأ ما وراء السطور، وعندما يتخذ القرار لا يتخذه منفردا، وانما يناقشه في مطبخ القرار الفتحاوي، ومطبخ منظمة التحرير (اللجنة المركزية، المجلس الثوري، اللجنة التنفيذية، المجلس المركزي)، ويحرص على أن يحظى القرار على موافقة الأطر الشرعية.

وكنّا على سبيل المزاح نقول: إنّ الختيار مثل فلاحين بلادنا يشاور الناس ثمّ يعود الى شور حاله.

عظمة ياسر عرفات مستمدة من عظمة شعبه، وعظمة قادة حوله، قادة جيل العمالقة، وكوادر قيادية ساهمت معه في بناء مداميك الثورة من فتح وفصائل منظمة التحرير كافة.

كان معه في المسيرة خليل الوزير، صلاح خلف، عادل عبد الكريم، محمود عباس، فاروق القدومي، خالد الحسن، سليم الزعنون، أبو علي إياد، ممدوح صيدم، سعد صايل، أبو يوسف

النجار، سعد صايل، صخر حبش، أبو ماهر غنيم، فاروق القدومي، ماجد أبو شرار، انتصار الوزير، وعشرات غيرهم، ومن الفصائل الحكيم جورج حبش، نايف حواتمة، سمير غوشة، أبو العباس، وآخرون.

ومن اللجنة التنفيذية شخصيات وقامات وطنية.

كانت قيادات لها قامة ومكانة فلسطين وقامة ومكانة شعبها، وما كان لياسر عرفات أن يحقق كل الإنجازات التي حققتها منظمة التحرير دون الأدوار السياسة والنضالية التي قام بها هؤلاء القادة.

ظلّت اللجنة المركزية لفتح هي مطبخ القرار الأول. وكانت علاقة ياسر عرفات مع أعضائها علاقة أخوّة، يجمعهم ما أطلق عليه ياسر عرفات: قانون المحبة، الذي طبّقه أيضا على عموم منتسبي الثورة. لكّن الأمر لم يكن يخلو من خلافات سياسية أو خلافات على تفرد عرفات ببعض القرارات الداخلية، فعرفات مثل أي زعيم له وعليه، ففي لعبة الحكم لابد من بعض التجاوزات.

كانت بعض الخلافات ترقى الى أزمة، وتُعطّل الاجتماعات، وتنعكس على الحياة الداخلية للحركة، لكنّ ياسر عرفات مخترع قانون المحبة يفاجئ رفاقه (الحردانين) بزيارة مفاجئة، وتبدأ عندها العواطف النبيلة لدى الطرفين، ودون أي عتاب تنتهي الأزمة، وتتآلف القلوب.

وأذكر أنّ القائد التاريخي صلاح خلف اختلف مع ياسر عرفات بعد خروجه من طرابلس، وذهابه بالسفينة التي أقلته بحراسة فرنسية الى القاهرة والتقائه بالرئيس حسني مبارك، وكانت الدول العربية بما فيها منظمة التحرير آنذاك تفرض مقاطعة على مصر بسبب اتفاقية كامب ديفيد، ذهب ياسر عرفات الى محور مصر في رسالة واضحة يعلن فيها افلاته من المحور السوري الذي كان يحاول الاستيلاء على القرار الوطني الفلسطيني المستقل.

ونظرا لأنّ هذه الخطوة غير متفق عليها، فقد غضب عدد من أعضاء المركزية وفي مقدمتهم صلاح خلف، وتحوّل الغضب الى قطيعة.

لكن عندما بدأت تحركات من النظام السوري بعد الانشقاق داخل فتح لعقد مجلس وطني يشق الساحة الفلسطينية، دعا عرفات لعقد مجلس وطني في الأردن لتجديد الشرعية، وراهن السوريون على فشل عقد المجلس وعدم اكتمال النصاب بسبب الخلافات في اللجنة المركزية، فما كان من صلاح خلف أن خرج للإعلام قائلا باسم كل المعترضين: نحن مع أبو عمار حتى آخر العمر.

ومن الطُّرف التي كنا نتندر بها، أنّ ياسر عرفات اختلف مع أحد القادة العرب، وطالت الخصومة، فقرر ياسر عرفات الذي يحرص على أن يوطد مع محيطه العربي حلاوة الانسجام لا مرارة التباين، قرر أن يقوم بزيارة مفاجئة لبلد ذلك القائد، وعندما التقاه ظل ذلك القائد عابسا، استقبله بفتور وجلس معه دون أن ينبس بكلمة. طال الصمت، فما كان من عرفات ذي البديهة الذكية الا أن خاطب ذلك القائد بالقول: أنبيٌ وحقود؟

عندها ابتسم الرجل وعادت المياه لمجاريها.

اضطر ياسر عرفات على الدخول في صراع مع بعض الدول العربية دفاعا عن القرار الوطني المستقل، فلم يقبل من أحد فرض الوصاية أو الاحتواء للقرار الوطني، واستطاع أن يحمي هذا القرار مهما كانت العواقب، ومن ذلك ما حدث عام ١٩٧٨ لدى انعقاد المجلس الوطني الفلسطيني في أجواء كانت العلاقات السورية العراقية قد شهدت تقاربا بين الدولتين ووقعا اتفاقية العمل المشترك ، ولدى انعقاد المجلس شكّلا غرفة في مقر الخارجية السورية للتدخل في الشأن الفلسطيني، وأوعزا لممثلي الصاعقة الفرع الفلسطيني لحزب البعث السوري، ولممثلي جبهة التحرير العربية فرع حزب البعث العراقي بالتشدد ، وخصوصا في موضوع تشكيل اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير. كانت الأوامر تصدر من طارق عزيز وزير خارجية العراق، ومن عبد الحليم خدام وزير خارجية سورية.

تصدى ياسر عرفات لكل المناورات داخل قبة المجلس الوطني، واستطاع أن يفلت من كل الضغوط الى أن وصل المجلس الى بند انتخابات اللجنة التنفيذية، وكان تشكيل اللجنة يخضع للتوافق، وجاءت الضغوط السورية العراقية بمطالب تعجيزية مصحوبة بتهديد. عندها وقف ياسر عرفات غاضبا، وحسم الأمر بالقول: هناك ضغوط تمارس على هذا المجلس من خارجه، لذا تعتبر اللجنة التنفيذية الحالية قائمة ، ولا انتخابات جديدة، واعلن انتهاء أعمال المجلس الوطني.

***

لم يكن ياسر عرفات متطرفا في زمن صعود موضة اليسار، وظهور الجبهة الديموقراطية التي اعتنقت الماركسية اللينينية، وتحوّل الجبهة الشعبية من ثوابت حركة القوميين العرب الى الاشتراكية العلمية، وبروز تيارات في فتح وفصائل أخرى تنحو نحو الفكر التقدمي اليساري، كان ياسر عرفات وسطيا لا ينحاز الى موقف متحفظ ولا يعادي فكرا يساريا، كان يقول أنّ الفكر الوطني في فتح يغتني ويتطور من خلال الممارسة، ففتح تأسست من تيارات قومية

وإسلامية ويسارية، وفي الممارسة انصهرت كل التيارات في فكر وطني لا يتبنى سوى أيدولوجيا التحرير، ولكنها كحركة تحرر وطني لها علاقات مع قوى يسارية في العالم وحركة الاشتراكية الدولية، ولها علاقات مع حركات التحرر الوطني في العالم، وعلاقات مميزة مع الصين الشعبية والاتحاد السوفياتي ، وكانت جمعية الصداقة الفلسطينية الروسية التي يترأسها عضو اللجنة المركزية محمود عباس من أهم وأقوى الجمعيات التي لعبت دورا كبيرا وملموسا، فتأثرت فتح بهذا المناخ وصادقت كل القوى التقدمية.

وفي سياق هذه التطورات ظهرت في فتح تيارات يسارية بعضها ينحو لتعزيز العلاقة مع الاتحاد السوفياتي، وبعضها الآخر يدعو الى تعزيز العلاقة مع الصين.

لكن ذلك كله كان يجري في اطار التزام الجميع ببرنامج الحركة، وبقرارات أطرها العليا.

وكان ياسر عرفات يعلق دائما بالقول: دع مائة زهرة تتفتح في بستاننا.

كانت بعض فصائل الرفض للبرنامج المرحلي تصف ياسر عرفات في ذروة مرحلة الكفاح المسلح باليميني التفريطي، وكان وصفها ذاك يعبر عن بؤس وقصور، لأنها كانت مدفوعة وممولة من دول قومجية تسعى للاستيلاء على القرار الوطني المستقل.

لم يأبه عرفات لتلك البيانات، ولم يعرها اهتماما، فقد كان يحرص على بقاء الائتلاف في منظمة التحرير طالما هو يمسك بزمام قيادة المنظمة، وطالما تدعمه جماهير شعبه في الوطن والشتات، وطالما أنّ القرار الوطني قد اتخذ بالأغلبية في أعلى الأطر بمنظمة التحرير، فالوطنية عنده ممارسة وسلوك وثقافة.

كان ياسر عرفات الوطني والوسطي يحظى بأعلى مكانة عند كل القوى اليسارية والاشتراكية في العالم، من موسكو الى كوبا، ومن اليسار الأوروبي الى اليسار العالمي، وهو مالم يحظ به زعيم عربي سوى جمال عبد الناصر.

***

تعرّض عرفات لمحاولات اغتيال عديدة، كان آخرها اغتياله بالسم من قبل إسرائيل، باءت جميع المحاولات السابقة بالفشل، فقد كان لديه جهازه الأمني الممثل بقوات ال١٧، لكنّه في الواقع كان يعتني بأمنه الشخصي بنفسه، كان شديد الحذر والانتباه في التنقل والسفر، ومن ذلك أنه كان يعمل ليلا حتى بزوغ الفجر، لكيلا يتعرض لهجوم مباغت وهو نائم، فقد كانت العمليات التي تقوم بها إسرائيل تتم بعد منتصف الليل، ولعلّ عملية الفردان التي اغتيل بها

القادة الثلاثة: كمال العدوان، كمال ناصر، أبو يوسف التجار مثالا.

لكن إسرائيل لم تتمكن منه في بيروت أثناء اجتياح عام ١٩٨٢ بالرغم من محاولاتها المضنية، فلاحقته الى تونس وقصفت مقره في حمام الشط وفشلت لأنه كان متواجدا في مقر آخر.

***

كان ياسر عرفات يعرف أنّ الاجتياح لبيروت أضحى قريبا، وكان يتوقع أن تطبق إسرائيل على الجنوب من جهة وعلى بيروت بالتعاون مع قوات الكتائب بقيادة بشير الجميّل، وسمّى العملية العسكرية آنذاك بعملية (الأكورديون)، وشدد على الاستعداد، وأوعز لقواتنا العسكرية بالحيطة والحذر.

وكان ياسر عرفات يتألق ويبدع في إدارة الأزمات، وتجلى ذلك في محطات ومنعطفات كثيرة، وخصوصا في معركة بيروت. أدار المعركة السياسية والعسكرية، في الوقت الذي كانت الطائرات تبحث عنه وتطارده، وكان يتنقل من مكان الى مكان دون أن يطيل المكوث، وأحيانا كان ينام في سيارته ومرافقوه في مدخل عمارة تحت الانشاء، أو في مكان غير متوقع على شاطئ البحر، ويعقد اجتماعاته مع القيادات العسكرية في أمكنة لا تخطر على بال العدو، وفي مرات عديدة كان الطيران يقصف مكانا بعد أن يغادره ياسر عرفات بلحظات قليلة.

وفي سياق الحرب النفسية وحرب المعنويات كان يسمح للمصورين التقاط صور له وهو يمارس الرياضة أو يلعب كرة الطائرة في رسالة للعدو أنّه يعيش حياته الطبيعية وفي وضع المرتاح.

وحرص على تجنيد الإعلام الأجنبي، فوفّر لجميع المراسلين الأجانب ملاذا في أحد الفنادق واعتنى بهم، ليغطوا أخبار الصمود والمقاومة للغزو الإسرائيلي الذي لم يتمكن من اختراق دفاعات قوات الثورة الفلسطينية شبرا واحدا، وكان يطلق على جموع المراسلين: كتيبة الكومودور نسبة الى الفندق الذي يقيمون به.

وتبدى تألقه وحنكته في مفاوضات الخروج من بيروت عبر السفن، فكانت اسرائيل تطالب من خلال المبعوث الأميركي فيليب حبيب تجريد المقاتلين الفلسطينيين من أسلحتهم ورفعهم للعلم الأبيض، لكن عرفات ومعه رجاله وقادته رفضوا، وفاوضوا بعناد وشجاعة، وخرج عرفات وقادته وضباطه وجنوده بأسلحتهم رافعين علم فلسطين، وكانت المعنويات عالية بعد صمود عز نظيره، وعندما سأل أحد الصحافيين عرفات: أين محطتك القادمة، ابتسم وأجاب: نحو القدس.

لقد أدار المعركة بمهارة وتحت سقف نيران الطائرات والقنابل والصواريخ.

***

تسللت الواقعية السياسية على رؤوس أصابعها بعد حرب تشرين الأول/أكتوبر عام ١٩٧٣ عندما بدأت التفاوض العربي مع إسرائيل على الانسحاب من الأراضي العربية المحتلة عام ١٩٦٧ تحت شعار إزالة آثار العدوان.

وبدأ حديث بين بعض النخب السياسية حول مصير الضفة الغربية التي كانت لا تزال رسميا تحت الإدارة الأردنية، وكانت الأسئلة تدور حول: هل تعود الضفة للأردن أم لمنظمة التحرير؟

حتى تلك الأيام لم تكن منظمة التحرير قد حصلت على صفة الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني، لكن الواقع كان يؤكد على هذه الصفة التمثيلية إذ كانت منظمة التحرير تحظى باعتراف عربي ودولي ، وكانت سفاراتها وممثلياتها تنتشر في غالبية دول العالم، وتعامل كممثلة للشعب الفلسطيني.

وفي مؤتمر القمة العربية الذي عقد في الرباط في ٢٨ تشرين الأول/أكتوبر من عام ١٩٧٤ أكّدت القمة العربية على الاعتراف بمنظمة التحرير ممثلا شرعيا ووحيدا للشعب الفلسطيني، كما تضمن البيان الختامي على حق منظمة التحرير إقامة سلطتها الوطنية على أي جزء من أرض يتم تحريره.

وكان المجلس الوطني الفلسطيني في دورته الثانية عشرة والذي عقد في التاسع من حزيران/ يونيو من عام ١٩٧٤ أقد أكّد على برنامج النقاط العشر الذي يتضمن إقامة السلطة الوطنية على الأرض التي يتم تحريرها، والذي عرف باسم الحل المرحلي.

وقد أثار ذلك جدلا، وتحفظت عليه بعض الفصائل، لكن تم اقراره بشكل نهائي في دورة المجلس الوطني التي عقدت عام ١٩٧٧.

من هنا برز تيّار الواقعية السياسية، وتعزز هذا التيار بعد أن أصدر الملك حسين قرار فك الارتباط إداريا وقانونيا وانهاء ارتباط الضفة الغربية مع المملكة الأردنية الهاشمية، وفتح ذلك القرار الباب أمام ياسر عرفات والقيادة الفلسطينية لإعلان بيان الاستقلال وقيام الدولة الفلسطينية المستقلة في المجلس الوطني الذي عقد في العام ١٩٨٨.وفي هذه الدورة تم الاعتراف بالقرارين ٢٤٢ و٣٣٨ واللذين كانت المنظمة ترفضهما لأنهما لا يتحدثان عن حقوق الشعب الفلسطيني، مرّ هذا الاعتراف بتغطية من بلاغة الحدث والنص الذي جاء به بيان الاستقلال

وإعلان قيام دولة فلسطين.

أصبحت الواقعية السياسية أمرا واقعا، وسياسة لمنظمة التحرير في المراحل التي تلت، ومرت بمراحل عدة، وتبلورت اكثر فأكثر وساعد في ذلك اعتراف المنظمة بقراري مجلس الأمن ٢٤٢ و٣٣٨، ومشاركتها في مؤتمر مدريد، الى أن وافقت على اتفاق المبادئ في أوسلو وتم الاعتراف المتبادل بين منظمة التحرير واسرائيل، وقيام السلطة الوطنية الفلسطينية كسلطة حكم ذاتي وصولا الى قيام الدولة المستقلة.

وما كان للواقعية السياسية أن تصبح سياسة لمنظمة التحرير لولا تبني ياسر عرفات لها وتمريرها جرعة بعد جرعة في الأطر القيادية والقاعدية لفتح والفصائل، واستيعاب المعارضين لها، وتمريرها أحيانا بالتصويت عندما يضمن أصوات الأغلبية.

وهو ما لم يحدث في كثير من القرارات في المجلس الوطني في الماضي عندما كانت هذه القرارات تتخذ بالإجماع.

وما كان لاتفاق المبادئ في أوسلو أن يصبح سياسة لولا مهارة ياسر عرفات في تمريره جرعة بعد جرعة موظفا مهارته وبلاغته ومحبة الكادر له، والسماح لمن يعارض بالمعارضة أو التحفظ كما حدث في تصويت المجلس المركزي لمنظمة التحرير على اتفاق أوسلو، حيث عارض من عارض لكنّه كان مطمئنا لأصوات الأغلبية، وقد حصل عليها.

كان ياسر عرفات بعد الانتفاضة الأولى يريد أن يستثمر زخمها لتحقيق هدفها في رحيل الاحتلال وقيام الدولة، وكان على قناعة بالحل المرحلي الذي يدعم إقامة سلطة على أي أرض يجلو الاحتلال عنها، وهذا ما دفعه للإنخراط بعد حرب الخليج في المحافل التي تسعى للحلول السياسية، والمشاركة في مؤتمر مدريد، والمحادثات التي رافقته، وفتح القناة السرية في أوسلو، والمراهنة عليها.

***

كان ياسر عرفات يعرف أنّ اتفاق أوسلو لا يلبي طموحاته في حل سياسي أكثر انصافا. وأذكر أنّه استدعاني الى مكتبه بعد أن كنبت مقالا ضد اتفاق أوسلو في صحيفة الحياة اللندنية، وقال لي فيما قال: اذا كان لك عشر تحفظات على اتفاق أوسلو فأنا لي مائة ملاحظة، وأعرف ان الحل (أعرج) لكننا نريد أن نصنع له قراءة فلسطينية ونحوّله الى دولة مستقلة.

وقال: الاميركيون يضغطون علينا بعد حرب الخليج، جففوا مواردنا المالية، وماذا لو ضغطوا

على الرئيس بن علي لترحيلنا من تونس؟ أي بلد عربي يمكن أن يستقبلنا؟ قد نجد أن الصين الشعبية الدولة الوحيدة التي يمكن أن تقبلنا، فيصبح بيننا وبين شعبنا بحور ومحيطات. اتفاق أوسلو يتيح للقيادة الفلسطينية ومنتسبيها العودة لأرض الوطن، واعلم أن قيادة الشعب الفلسطيني طردت من وطنها أيام الانتداب البريطاني ومن يومها وهي تعمل من المنفى.

ووجودنا مع شعبنا العظيم سيمثل قوّة دافعة لتحقيق أهدافنا.

وأقول لك أيضا أنّ من لا يكون على الخارطة الآن لن يكون على الخارطة في القرن القادم الحادي والعشرين.

واذكر اننا في مكتب الشؤون والدراسات عقدنا مجموعة من الندوات والحلقات الفكرية لمناقشة الاتفاق وطرح أفكار، وكانت هناك ورقة نقاش أعدّها القائد الوطني صخر حبش مفوض الشؤون الفكرية والدراسات تحت عنوان: المجازفة التاريخية وأطواق النجاة.

جرى نقاش ثري على ماذا يتعين علينا أن نفعل بعد أن صار الاتفاق حقيقة وسياسة، وعندما اتخذ القرار بالعودة لم نتردد في العودة الى أرض الوطن مع ياسر عرفات الذي مشينا معه في المسيرة منذ بداياتها وكنا نثق بقيادته ووطنيته.

***

عاد ياسر عرفات الى أرض الوطن وعدنا معه مستبطنين نظرية القراءة الفلسطينية للإتفاق، وصار قائدنا رئيسا لشعب وأرض وحكومة ومؤسسات، لكّنه ظلّ ببدلته العسكرية وكوفيته وعقاله زعيم حركة تحرر وطني أكثر منه رجل دولة.

الدولة كانت حلمه، كان عرفات يريد أن يتحقق قيام الدولة الفلسطينية ذات السيادة في عهده، وأن يكون هو المؤسس لها، وأن يسجل التاريخ ذلك.

لم يتخلى عرفات عن شخصية الزعيم، الزعيم لواحدة من أكبر حركات التحرر في العالم، فالسيادة على كامل الأرض لم تتحقق، والمفاوضات عسيرة، والاستيطان متواصل، وشريك الاتفاق رابين يتم اغتياله، واليمين المتشدد الرافض لاتفاق أوسلو يتقدم، وأميركا ليست وسيطا أمينا بل طرفا منحازا، ومحادثات كامب ديفيد فخ وكانت مقدمة لاغتيال صورة الرمز قبل اغتيال الرمز، وتصنيفه بغير الشريك.

وجاءت الانتفاضة الثانية وبدأت سلمية، ثمّ استدرجت إسرائيل الانتفاضة الى المواجهة المسلحة، وبالرغم من المقاومة الباسلة فإن الوضع لم يكن متكافئا، فالآلة العسكرية الإسرائيلية

حوّلت المواجهة الى حرب واجتاحت المدن والقرى، وعزلتها عن بعضها البعض، وأوغلت في القتل والتدمير، وشنّت حربا في مواجهة شعب أعزل لا يملك سلاحا ذا بال يواجه به الدبابة والبلدوزر والصاروخ والطائرات.

أطلقت حربا من خلال عملية عسكرية أسمتها عملية (السور الواقي)، كان ذروتها اجتياح المقاطعة (مقر عرفات) وتدمير مبانيها، ومحاصرة الزعيم في رقعة صغيرة محاطة بالركام. والحاق افدح الأضرار بكل ما تم إنجازه من مظاهر السيادة في المنطقة المصنّفة (أ) وإعادة احتلالها ونزع أي حصانة عنها.

حوصر ياسر عرفات وطلب منه الجيش الإسرائيلي الاستسلام، والخروج هو ومن معه رافعين الأيادي. وفيما كانت الجرافات تدق جداران المكان الذي يتمترس به قال بكل أنفة وكبرياء وشموخ مقولته المشهورة: يريدوني إما أسيرا وإما طريدا وإما قتيلا ..لا أنا أقول لهم شهيدا.. شهيدا.. شهيدا.

كان الصمود في المقاطعة صمودا اسطوريا، وكان ياسر عرفات ومن معه من الرفاق والقادة، ومن المتضامنين الأوروبيين الذين تسللوا الى المقاطعة للتضامن مع عرفات يتحلون بمعنويات عالية، رغم حركة الدبابات والجرافات والقنّاصة والحرب النفسية، وانفتاح الوضع على كل الاحتمالات الكارثية.

أدار عرفات عملية الصمود في حصار المقاطعة بكفاءة واقتدار، تصرف كقائد وزعيم وإنسان.

ظلّ سلاحه يرافقه في مكتبه، وتحركه في تلك المساحة الصغيرة لزيارة رفاقه من القيادات والمرافقين أو زيارته للمتضامنين.

وبالرغم من شح الطعام وانقطاع المياه والكهرباء، وصعوبة الاتصالات فقد صمد ومن معه، في تضامن جماعي والاكتفاء بكسرة خبز أو قضمة تفاحة في اليوم، وقال لي أحد مرافقيه أنهم حاولوا التنازل عن حصصهم وتخصيص تفاحة كاملة له، غير أنّه رفض هذا العرض واكتفى بجزء يسير منها.

ظلّ سلاحه حاضرا، وكان قد قرر أن يقاتل حتى الاستشهاد فيما اذا اقتحم الإسرائيليون المقر.

صمود ياسر عرفات يعزى لشجاعة طالما تحلى بها على امتداد تاريخه منذ أن كان الفدائي الأول الى أن تبوأ موقع القائد العام لقوات الثورة الفلسطينية، وتعزى الى غبار المعارك على كتفيه التي خاضها قائدا في الصف الأول من معركة الكرامة الى معركة بيروت، وتعزى الى معنوياته

العالية واستعداده للبذل والتضحية، وتعزى قبل ذلك وبعده الى صمود شعبه وتضحيانه وقوّة الحياة في روحه.

هذا الشعب بشيبه وشبابه، برجاله ونسائه وأطفاله الذي هبّ في لحظة تهديد لحياته عندما أمهله الجيش ثماني ساعات للاستسلام أو القتل ، في تلك الليلة التاريخية هبّت رام الله بسكّانها من كل أحيائها في مظاهرات سلمية تضامنا ودفاعا عن القائد حمل فيها الجميع الطناجر والملاعق والطبول دون أن يعبأوا بالدبابات التي تغلق الطرق، ووصلت كل التظاهرات في وقت متأخر من الليل الى نقاط تحيط بالمقاطعة، وأذهلت هذه الهبّة الجماهيرية قوات الاحتلال فأطلقت النار بغزارة سقط على اثرها شهداء، وعجزت عن وقف تدفق المزيد من الجماهير الذين صنعوا حزام أمان لياسر عرفات، ونجحوا في افشال الإنذار الإسرائيلي.

كان ياسر عرفات يردد في كثير من المناسبات: الشعب الفلسطيني هو المعلّم الأكبر.. الشعب الفلسطيني أكبر من قياداته.

وكان باب ياسر عرفات مفتوحا أمام كل البسطاء والفقراء وأبناء البلد وأمام كل الشخصيات والنخب والكوادر والأفراد، وكان بابه مفتوحا امام كل أولئك الذين تغلق في وجوههم الأبواب.

من النادر أن يدخل المرء بيتا ولا يجد فيه صورة لرب العائلة واطفاله مع أبو عمّار، أو يتحدثون عن لمسة إنسانية تجاههم مثل تغطية علاج أو تغطية أقساط مدرسية، أو مساعدة ما، وتجلّت محبة شعبه يوم أن حملت طائرة الهيلوكوبتر جثمانه الطاهر الى ساحة المقاطعة.

كان الجثمان قد أقيمت له احتفالات وداع في باريس لا تقام الاّ للعظماء، وفي القاهرة حيث اقبل كل رؤساء وملوك وأمراء الوطن العربي تكريما له واحتفاء وتوديعا، لكنّ الوداع الأكبر والأعظم كان من شعبه الذي أتى الى المقاطعة من كل المدن والقرى والمخيّمات وغصت بهم المقاطعة والشوارع المحيطة بها، ولم تنجح الترتيبات البروتوكولية في الاستقبال الرسمي الذي أعدّه برتوكول الرئاسة، ونجح الاستقبال الشعبي نجاحا مذهلا، وهو ذروة وبلاغة الحب الذي يليق بقائد شعبي عز نظيره.

***

اغتالوا الجسد، لكنهم لم يستطيعوا اغتيال الرمز.

ظل ياسر عرفات حاضرا فينا وبيننا، ظل رمزا خالدا نتفيأ ظلال أمجاده ونستنشق عطر مسيرته، ونستبطن قوّة البطولة في بطولة قيمه وسجاياه.

ياسر عرفات الرمز الخالد يتصدر الصفحة المشرقة في تاريخنا، فحياته كانت منذورة بلحظاتها وساعاتها وأيامها وسنينها وعقودها للقضية وللشعب الفلسطيني، لم تكن له حياة خاصة كما للآخرين، فقد كانت حياته سلسلة من المعارك، معارك عسكرية تحت سقف النار، ومعارك سياسية تحت سقف الزمن المديد، وحياة حافلة بالإنجازات ووضع فلسطين في صدارة المشهد والخارطة الدولية، وأوصل عدالتها الى عمق الرأي العام العالمي، والى قلب الأخلاقيات الإنسانية.

من الصعب الإحاطة بحياة ومسيرة هذا القائد العظيم في هذه المساحة المخصصة لهذا المقال، فمسيرته مسيرة شعب يصنع في كل لحظة تاريخا، ودروبه هي دروب الحرية التي سلكها قادة وفدائيون ومثقفون وابناء بلد وشباب مخيمات ونساء وأشبال وزهرات.

في ذكراه العطرة التي تزهر في كل الفصول نردد: العهد هو العهد والقسم هو القسم.

ونردد معه: يا جبل ما يهزك ريح.

ونردد معه: نرى الضوء في نهاية النفق.

ونردد معه: ليس منّا وليس فينا من يفرط بذرة من تراب القدس.

رحل ياسر عرفات بشموخ السنديان، رحل رجل عصره وبطل زمانه. رحل تاركا وديعته وثوابته: عودة، تقرير مصير، دولة مستقلة ذات سيادة وعاصمتها القدس.

رحل عرفات تاركا ارثا كفاحيا، وشعبا حيّا، ورفاق درب يكملون المشوار.

أوراق فلسطينية

القرن العشرون: قرن يهودي أم قرن البشرية كلها؟

د. فيصل درّاج*

ينطوي تقويم القرن العشرين، بسبب الظواهر الاستثنائية المتعددة، على تعقيدات كثيرة، تجعل اتفاق النظر إليه أمراً مستبعداً: فهو قرن الثورات الاجتماعية الكبرى، التي تمثّلت بالثورتين السوفيتية والصينية، وقرن الثورات العلمية ـ التقنية، الممتدة من النظرية النسبية إلى تقنيات الكومبيوتر والحاسوب، وقرن القنبلة الذرية التي أهلكت مئات الألوف من البشر، وهو الذي شهد إفقار قارة إفريقيا إلى تخوم المجاعات اليوم، .. وفي القرن هذا قامت دولة إسرائيل واقتلعت الفلسطينيين من وطنهم، واستهلك الحديث عن "هولوكوست اليهود"، في ألمانيا النازية، حبراً لا نهاية له.

كيف يمكن تقويم قرن له وجوه متناقضة، وهل ساوق التقدم العلمي ـ التقني فيه تقدماً في الأخلاق و"التضامن الإنساني"؟ وإذا كان في مكتشفات الفيزياء الحديثة عبقريات متعددة الجنسيات، فما هو وجه العبقرية في المجازر المتوالدة، التي لحقت بالشعب الفلسطيني، الموزع على مخيمات لا تكفّ عن التكاثر؟

تختلف كل قراءة للقرن باختلاف وجهة النظر إليه، وتتعين صورة "لموازين القوى"، ذلك أن سلطة القراءة، كما الكتابة، من سلطة الذي يقوم بها.

أنجز الفيلسوف الفرنسي الشهير آلان باديو، الذي اتهمه يهود فرنسا بالعداء للسامية قراءة خاصة \للقرن العشرين في كتابه "القرن"، الذي ترجم إلى لغات كثيرة، ليست العربية منها، للأسف، وأنجز الأميركي يوري سلزكين قراءة مغايرة في كتاب حظي بجوائز كثيرة، عنوانه: القرن اليهودي. أخذ الكتابان بمنظورين مختلفين، احتفى الأول منهما بالجهود الإنسانية المتعددة المتنوعة، التي أنتجت "القرن"، بالحروف الكبيرة ـ وعيّنته علامة فارقة في التاريخ الإنساني، بسبب تنوعه الإبداعي المثير، واختزل ثانيهما القرن في العبقرية اليهودية، وأعطى القرن صفة يهودية.

---

* ناقد وباحث فلسطيني

غير أن ما يثير الفضول ماثل في قدرة الكتابين على الاقناع، فآلان باديو فيلسوف متجدد وأستاذ جامعي وأديب، وله دور مسيطر في أوساط الباحثين عن عالم متحرر جديد، أكان ذلك في فرنسا وأوروبا، أو خارجها، وسلزكن مؤرخ أكاديمي يركن إلى الوثائق والإحصائيات والمعلومات الدقيقة، إضافة إلى ثقافة متنوعة تثير الإعجاب.

يتحدد كتاب باديو بجمهور فلسفي أقرب إلى النخبة، ويتجه كتاب سلزكن إلى جمهور واسع، تقف وراءه سلطة إعلامية، أتقن اليهود السيطرة عليها، في أميركا وخارجها، منذ زمن طويل.

١ ـ القرن العظيم المتناقض:

أدرج الفيلسوف الفرنسي في كتابه وقائع كثيرة، استهلها بالحرب العالمية الأولى ١٩١٤ ـ ١٩١٨، وأغلقها بانهيار الاتحاد السوفيتي ونهاية الحرب الباردة، كما لو كان القرن "قرناً صغيراً" عمره خمسة وسبعون عاماً، دشنّته الحرب وثورة كبرى، كادت أن تغير وجه العالم. لكن الفيلسوف، المأخوذ بفكرة الثورة، لا يلبث أن يعطي الكلام لأنصار "الذاكرة"، الذين يختصرون "القرن" إلى الجرائم التي ارتكبت فيه، ومرجعها الشيوعية الستالينية والنازية، إضافة إلى "جريمة الجرائم"، المتمثّلة "بإبادة يهود أوروبا". عندها يصبح القرن العشرين قرناً ملعوناً، آية لعنته عدد اليهود الذين قُتلوا فيه، بل يصبح قرن الشمولية المعادي "لروح" الأزمنة الحديثة. الجدير بالذكر، أن المأخوذين بعد الموتى اليهود يصمتون عن الأستعمار الغربي للعالم وعن نهب العالم الثالث وإفقار إفريقيا إلى حدود المجاعة والموت، ولا يعرفون شيئاً، بالتأكيد، عن مأساة الشعب الفلسطيني، التي أشرف عليها جلادون صهاينة، كانوا ضحايا الرعب النازي، الذي يتاجرون به إلى اليوم، حتى تحوّل "الهولوكوست"، إلى صنعة إعلامية بلغة الباحث اليهودي الأميركي: نورمان فنكلشتاين.

وإذا كانت تعددية الظواهر من تعددية وجهات النظر التي تتناولها. يمكن للقرن، المتنازع على تأويله، آنذاك، أن يأخذ "صفة سعيدة": إنه القرن الليبرالي الذي شهد انتصار الرأسمالية على الشيوعية، وشهد حرية السوق ورؤوس الأموال العابرة للقارات، ناهيك عن انتصار الديمقراطية الرأسمالية على الشمولية الشيوعية.

يطرح باديو السؤال التالي: كيف نقيم قرناً تتقاطع فيه الشمولية الستالينية والتحرر الليبرالي و"البربرية" وحقوق الإنسان؟ والسؤال، كما يرى الفيلسوف يقرأ في نزوعات القرن المتعددة، وفي تنوّعاته السياسية والإيديولوجية وفي الإبداع الإنساني، والثورات الشعبية، دون النظر إلى أفاقها، وفي ذلك المجال الواسع للإبداع الفني الذي أعطى بيكاسو وبريشت ... ، وثورات شملت، بمقادير

مختلفة، القارات الثلاث.

يأتي الجواب من ديمومة التناقضات المادية، البعيدة عن اختزالات "أخلاقوية"، تحجب القضايا الحقيقية وراء تسويغات وهمية: هل تعالج مجاعات إفريقيا بشعار "حقوق الإنسان"، وهل تختصر المأساة الفلسطينية في "ضحايا الهولوكوست"؟ ومع ان أندريه مالرو قال "غدت السياسة مأساة القرن"، فإن جمالية القرن، رغم المآسي، جاءت من تعددية سياساته المضمرة، أو الواضحة، التي أعطت في مجال العلم اينشتاين ونظريته النسبية وهايزنبورغ ونظريته في اللاتحديد، وفي الرواية جيمس جويس ومارسيل بروست، وفي الفلسفة هوسرل وفتيجنشتاين، وعلماء رياضيات وموسيقيين وسينمائيين.. كان في كل ذلك اندفاع إلى التجديد، وحوار الحاضر مع نفسه ومع المستقبل، وتجسيد لصورة إنسان حديث تسكنه أحلام طليقة. كان لكل ظاهرة ما يفسّرها، بعيداً عن تهويمات تشتق النازية من "الشر" والبربرية من السديم كما لو كان لا فكر فيهما ولا سياسة، علماً أن لكل سياسة فكرها، وفي كل فكر سياسته، والعقل وجد دائماً وإن أخذ أشكالاً لا عقلانية. ولهذا لا تقرأ القضية الفلسطينية في الاضطهاد الأوروبي لليهود، بل تقرأ في مصادرة الحقوق الوطنية لشعب كان يعيش في وطنه من مئات السنين.

ولعل الفكر المأخوذ بالمجردات، والذي يبْرئ "الغرب" من كل انحراف وجريمة هو الذي يخترع اليوم تعارضاً زائفاً بين الغرب، الذي "احتكر"، بسبب جوهره، ما يدعى بحقوق الإنسان (أو الحريات، الديمقراطية، تحرّر المرأة..) والأصوليات الدينية، والإسلامية أساساً، أو الإسلامية ـ العربية التي تبشر بأعراف العصور الوسطى (المرأة المعتقلة الإيمان الإلزامي، العقاب الجسدي..." وصولاً إلى أشكال من الإرهاب مختلفة. ولهذا تحجب الثنائية الكاذبة القضية الفلسطينية، على اعتبار أن الفلسطينيين عرب ومسلمون.

ينزاح الفكر المجرد، الذي يرى في النازية مرضاً سقط على أوربا من السماء، وينزاح معه المثقفون الذين على صورته، الذين يختصرون مآسي القرن العشرين في النازيين الذين "أبادوا" اليهود، قبل أن يؤكدوا أن "اللاسامية" مرض لاحق اليهود في التاريخ كله، مكتفين فقط بمساواة "الإسلامي" بالبربري، بلغة باديو، وبمساواة الفلسطيني بما هو غريب عنه.

ينتج عن ذلك، كما يذهب الفيلسوف الفرنسي؛ أن السياسة الكولونيالية التي تنتهجها دولة "إسرائيل ليست إلا الموقع المتقدم للحضارة الديمقراطية، وأن الجيش الأميركي هو الضمان الأخير لكل عالم مقبول منتظر.. ص: ٢٣٤". ولعل هذه التصورات، لا فرق إن جاءت من مثقفين، يدعون إلى الثورة حيناً ويتخلّون عنها بريع قليل، أو من إدارات رسمية هو ما يجعل فرنسا، كما غيرها من دول الغرب، بلغة باديو، عاجزة عن المساهمة في حل عادل لقضايا الفلسطينيين.

يبقى للعالم تناقضاته، ويبقى مستقبل الإنسان في الإنسان، الذي يحوّله فعله من أجل تحرّره "إنساناً أعلى"، شريطة أن يُفهم "كمشروع"، يضع مستقبله في حاضره، لا كموضوع معطى تصوغه العادات والإيديولوجيات المسيطرة. وسؤال الفيلسوف الصريح والمضمر معاً: هل ينتمي الفلسطينيون إلى القرن العشرين، أم ينتمون إلى حقهم في التحرر؟

٢ ـ وجه القرن اليهودي:

دافع آلان باديو عن قرن متعدد الإبداع، متنوّع في إمكانية تأويله، وهاجم فكراً أحادياً يرى الغرب عنواناً للحضارة الديمقراطية وفي الإسلام ـ العرب مرآة للبربرية.

اندرج في الفكر الأحادي، من وجهة نظر أخرى، يوري سلزكين، الذي اختصر القرن إلى مرجع وحيد ودعاه: القرن اليهودي أي إلى قرن صنعه اليهود، بإبداعهم الذاتي المتعدد الوجوه، وهؤلاء الذين حاكوا اليهود، وتعلموا منهم التجديد والابتكار. يتحوّل التصور العلمي إلى تصوّر لاهوتي، يقسم العالم إلى خير وشر، وينصّب اليهود ممثلاً للإبداع والمبدعين.

يستثير الكتاب القارئ، قبل القراءة وبعدها: فعلى غلافه الخارجي رسم "لمارك شاغال" ـ الروسي ـ اليهودي العظيم الشهرة، يمثّل رجلاً متعدد الألوان منطلقاً إلى الفضاء، كما لو كان سهماً يشير إلى الأعلى، رجلاه متباعدتان إحداهما تكاد أن تمس الأرض وثانيتهما تحتضن الهواء.. والغلاف أزرق عنوانه الكبير باللون الأحمر، وقد ألصقت به دائرة صفراء كتب عليها: فائز ــ جائزة المجلس اليهودي القومي، وداخل الدائرة كتاب مفتوح عليه كتابة عبرية.

يترجم الغلاف، في وجهه الآخر، ما جاء على وجهه الأول، معرّفاً بأهمية الكتاب وكاتبه: الكتاب الفائز بجائزة المجلس اليهودي لعام ٢٠٠٦، وجائزة رونالدس. لاودر للدراسات السلافية، ومجلس الكتاب اليهودي. يتلو ذلك تقريظات مختلفة من مجلة "الأمة" التي تصف الكتاب بالثراء وشرح الحداثة اليهودية والحداثة بشكل عام، وجريدة "لوس انجلوس تايمز"، التي تعلي من شأن كتاب واسع المعرفة يغاير الكتب الضيقة الاختصاص، وصولاً إلى منشورتين تحتفيان بلمعان الكتب وقدرته على التحليل والإنارة. وأخيراً المؤلف هو أستاذ التاريخ في جامعة كاليفورنيا وبيركلي، ومدير معهد الدراسات السلافية والأوروبية الشرقية.

يعرض الأستاذ الجامعي في مقدمته الطويلة المقولات الأساسية التي بنى بها بحثه الطويل الذي يقع في ٤١٨ صفحة موحداً بين اليهود والزمن الحديث وبينهم وبين القرن العشرين، مؤكداً "أن الزمن الحديث زمن يهودي، وأن القرن العشرين، بخاصة،هو القرن اليهودي". وأن التحديث لازم كل

ما هو: مدني، متحرك، متعلم، مرن، وأنه ارتبط بتعليم الشعوب وخلق الرموز، بعيداً عن الحقول وقطعان المواشي، وأن ما مايزه العلاقة المتبادلة بين التعليم والثروة، إذ مقصد الثروة هو التعليم، بقدر ما أن مقصد التعليم هو الثروة، وما بينهما تحويل عقلاني يجدد التعليم والثروة معاً. حوّل التحديث الفلاحين والأمراء إلى تجار، وأستعاض عن المزايا الموروثة بمزايا مكتسبة، ودمّر حالات قديمة وأيقظ العائلات المكتفية بذاتها. والتحديث بهذا المعنى، كما يقول المؤلف "جعل كل فرد قابلاً للتحوّل إلى يهودي". وبما أن فلسطين بلد زراعي مجهول، فلا مكان لها في التاريخ، ولا علاقة لها بالحداثة، هذه الحداثة المفترضة، التي أدرجت فلسطين في مشروع استعماري.

انطوت مقدمة الكتاب على تمييز اليهودي، الذي هو حداثي بطبعه، دون أن يأخذ بيده أحد: "بعض الفلاحين والأمراء يؤدّون عملهم أفضل من غيرهم، ولكن لا أحد يكون يهودياً خيراً من اليهودي ذاته". فهؤلاء اليهود، في عصر رأس المال، هم المقاولون الأكثر إبداعاً، وفي زمن الاغتراب، أكثر المنفيين خبرة، وفي زمن الخبرة أكثر المحترفين حذقاً. بل أن بعض قدماء المختصين من اليهود ـ التجارة، القانون، الطب، الصناعات النسيجية ـ أصبحوا أعلاماً في التحديث والتطوير. "ولأن اليهود كانوا قدماء استثنائيين أصبحوا نموذجاً للحداثيين".

يوحي كلام المؤرخ الأكاديمي بفكرتين أساسيتين ـ تثيران بعض الأسئلة. تقول الأولى منهما: إن اليهود حداثيون قبل غيرهم، ذلك أنهم في مسارهم جمعوا بين الخبرة المتقادمة والفرد المبدع والانصراف إلى التعليم وحافظوا "عائلة ـ نواة" تمارس الحداثة وتجددها بالخبرة المتوارثة. وتقول الثانية: عاش اليهود الظواهر الحداثية، قبل أن تعرفها الشعوب الأخرى، وعرفوا الحرية والعدالة، بقدر ما عرفوا القومية. والمحصلة بسيطة: فإذا كانت القومية ظاهرة حديثة صعدت في القرن التاسع عشر، فإن في تميّز وضع اليهود الحداثي ما يجعل منهم قومية، قبل القرن التاسع عشر وبعده. وبهذا المعنى، فإن القومية الأوروبية، التي أفضت إلى العدالة ـ القومية، المحددة بالبنى والقوانين، تقليد للقومية اليهودية، التي لا تظهر بناها وقوانينها واضحة إلا لليهودي الحداثي، الذي عاش قوميته قبل أن يعيش الآخرون قومياتهم. تبدو اليهودية هكذا قومية خالدة.

تأخذ القومية اليهودية، في زمن التحديث والحداثة، شكل البديهة، ويكون الذهاب إلى فلسطين فعلاً عادياً، يوائم الأزمنة الحديثة وينطلق منها. ولا يكون للفلسطينيين مكان، لأنهم خارج الحداثة، وخارج ظواهرها المتمثلة بالليبرالية والرأسمالية والفرد المبدع. بيد أن المؤلف، ولاعتبارات إيديولوجية تستدعي كلمة "الهولوكوست" لا يلبث أن يكتب: "سبب وحيد جعل من القرن العشرين "قرناً يهودياً"، تمثّل في محاولة هتلر تطبيق أفكاره العنصرية، التي عيّنت النازي شراً مطلقا، وظهور اليهودي كضحية كونية". والسؤال هنا: كيف سمح القرن اليهودي بظهور شر مطلق

معادٍ له، وهل تحتاج القومية اليهودية، "الذاهبة إلى فلسطين"، إلى تبرير هتلري المصدر، طالما أن حداثتها المطلقة لها شكل البداهة؟ يغدو الرجوع إلى هتلر صناعة إيديولوجية، وتصبح الظاهرة النازية شاذة لا علاقة لها بالتاريخ.

اشتق يوري سلزكين مقولتي: شعب الله المختار وأرض الميعاد، وهما لاهوتيتان، من الحداثة، فالأولى منهما مرتبطة بإنسان حداثي لا يشبه غيره، والثانية منهما محدّدة بالحرية التي تؤمّنها حداثية كونية، مركزها اليهود، الذين تأخذ بهم خبراتهم المتعددة الوجوه إلى حيث يريدون.

شرح السيد المؤرخ فكرته انطلاقاً من فكرة "الغريب"، التي تنطبق على اليهودي وغيره، وعلى اليهودي أكثر من غيره، لأنه يجمع في شخصه بين حذق الحاضر وخبرة الماضي. فالغريب هو المستعد دائماً للقيام بما لا يستطيع "المواطن العادي" أن يقوم به أو لا يريد ذلك، بدءاً من السحر والبيع المتجوّل وصولاً إلى العمل في المال ومعالجة الأمراض. يجبر الغريب، واليهودي غريب مستمر مفترض، على مهن لم يخترها، ويجبره عدم الاختيار على الاختصاص وإتقان العمل، والتحوّل إلى مختص لا يضارعه غيره، يساعد على ذلك "التزاوج الأسري"، لأن الغريب لا ينفتح، اجتماعياً على الخارج، إلا قليلاً فهو مقيم في بلد للآخرين، وفي مهنته معاً، التي تزوّد "المقيمين"، بما يحتاجون إليه. ومصدر قوته وعمله مرتبط به، ذاتي المصدر، لا يعتمد على الطبيعة الخارجية، وماثل في احتراف يلبي حوائج غيره.

ينحدر الغريب الاحترافي من هيرمس (عطارد)، بلغة المؤلف، إله جميع الذين لا ماشية لهم، ولا يحرثون الأرض، ولا يعيشون بالسيف، يعيشون من مهنهم، ويعتمدون على فطنتهم. إن المنتمين إلى هرمس، وهي كلمة يونانية تعني "كومة الحجارة"، يحترفون مهناً تحتاج العقل قبل غيره، مثل: السحرة، المرشدين وكتاب الرسائل، التجارة، يثيرون الإعجاب بما يستوردونه وسوء للظن معاً، وصورتهم المثلى "بروميثيوس"، الذي سرق نار الآلهة، معبراً عن الفضول والانجذاب إلى المعرفة. وهم مخلصون للعمل الذي يقومون به، ويميلون إلى التجدّد والحركة، ويتجولون بين البلدان المختلفة، يحتفون بالزمن ويزهدون بالمكان، كما لو كانت قوة "الغريب" تصدر عن كونه غريباً.

ولعل الفرق بين "عبدة المكان"، وأنصار الزمان هو ما خلق صورة الغريب السلبية، حيث يبدو العامل في الصناعات اليدوية "محتالاً"، بقدر ما يظهر التاجر "مرتزقاً"، وتبدو المرأة الغربية كياناً ممتلئاً بالشذوذ والإباحة. بل أن البعض رأى أن صفات اليهود تصدر عن "أنوثتهم"، خاصة أن هرمس كان ضعيفاً بقدر ما كان حاذقاً.

وبقدر ما أن الحداثة، وهي يهودية بامتياز وفقاً للمؤلف، تتسع للرأسمالية والحرية والديمقراطية والعقل العملي والعلمانية، فإن في وضع "شعب الله المختار"، أي اليهود، مكاناً لكل المبدعين وكارهي

العادات المستقرة والقادرين على المنافسة وتحصيل الخبرة وبناء الثروة، مهما تكن جنسياتهم. أي لجميع الذين تعلموا من اليهود، وتلاقوا معهم في الحذق والمهارة، والمكر الفعّال. لا غرابة أن يخترع هرمس، في عيد ميلاده، القيثارة وأن يسرق قطعان "أبولوّ"، ذاك الذي يحسن العمل اليدوي وليس له بالعمل الذهني علاقة، ولا غرابة أيضاً أن يعزو "العُطارديوّن" استمرارهم في البقاء إلى تفوّقهم.

وبالإجمال فإنهم تلك النخبة التي تتعامل مع العالم بالأفكار والتصورات والمفاهيم والحسبات الدقيقة واستثمار المتخيل العقلي إلى حدوده العليا، على اعتبار أن المعرفة سلاح الضعيف، بينما القوي، ظاهرياً، يتسلح "بالعضلات" والكلمات الكبيرة. لا يدرك "الرعاة" ان المعرفة تستولد التقنية، وأن التقنية الفاعلة تدمّر "العضلات "وتسخر من الكلمات الكبيرة.

٣. التفوّق اليهودي في مرايا كثيرة:

يدعم المؤرخ أطروحاته عن "القرن اليهودي" بمتواليات من الأرقام والإحصائيات، متّخذاً من يهود القرن التاسع عشر مرجعاً، ذلك أن معظم يهود وسط أوروبا وغربها انتقلوا في القرن التاسع عشر إلى المدن الكبيرة، ليكونوا امتداداً لتطلّعات "بروميثيوس". وإذا كان النصف الأول من الجملة واضحاً، فإن إضافة رمز الحرية الإغريقي لا وضوح فيه، لأن بروميثيوس عبّر عن الجوهر الإنساني الطليق، دون تحديده بجنس أو بدين.

ولأنهم على ما هم عليه، تجاوزت نجاحاتهم، في ميدان الاقتصاد، نجاحات غير اليهود، فقد أضافوا إلى المصرفي الشهير روتشيلد مصرفيين يشبهونه، حال: بليشوردير، شترن، أوبنهايم وسليمانز وغيرهم، متكئين على تضامن عائلي، يأخذ شكل الشراكة والاجتهاد الجماعي. نتج عن ذلك أن ثلاثين مصرفاً خاصاً من خمسين، في بداية القرن التاسع عشر في مدينة برلين، كانت تعود إلى عائلات يهودية. وأكثر من ذلك، أن التجمّع المصرفي الألماني الأعلى، الذي تأسس في نهايات القرن التاسع عشر، ضمّ في إدارته مصرفيين يهود، بقدر ما أن المؤسسات المالية في النمسا وفرنسا، لم تكن بعيدة عن تأثير عائلة روتشيلد وعائلات يهودية تشبهها.

لم يختلف الأمر في فيينا، في نهاية القرن، عنه في برلين، إذا كان أربعون بالمائة من مدراء البنوك العامة من أصل يهودي، مثلما كانت جميع المصارف، باستثناء واحد فقط، ذات إدارة يهودية. وما بين ١٨٧٣ و١٩١٠ بقيت نسبة الإدارة اليهودية للبنوك في النمسا تساوي ٧٠ بالمائة تقريباً. والوضع مشابه، ولكن بنسبة أعلى في هنغاريا ١٩٢١، إذ كانت نسبة اليهود في إدارة الشؤون المصرفية ٨٧,٨، وكانت نسبتهم في امتلاك الثروة المالية السائلة ٩١٪. وكان وضعهم الصناعي، بداهة، لا يختلف عن

وضعهم المالي. ففي النمسا كان اليهود عام ١٩١٧ يحتلون نصف إدارة المؤسسات الصناعية، البالغ عدها ١١٢، وكان يهود هنغاريا، في الفترة ذاتها يسيطرون على ٩٠٪ من الصناعات (ص:٤٨). ولم يكن الأمر مقتصراً على أوروبا الوسطى وحدها، ففي عام ١٩١٢ كان ٢٠٪ من أصحاب الملايين في بريطانيا يهوداً، وكانوا يمثّلون في ألمانيا، ما بين ١٩٠٨ - ١٩١١، ٣١٪ من العائلات الغنية ما يجعلهم، قياساً بعدد السكان الإجمالي، الفئة الأغنى في العالم، وكان روتشيلد المصرفي العالمي، وهو "ملك اليهود"، الرجل الأغنى مع عائلته في القرن التاسع عشر في العالم، يقول مؤلف الكتاب: "وبشكل عام، كان اليهود أقلية بين أصحاب البنوك، وكان أصحاب البنوك أقلية بين اليهود"، وكانوا في الحالين روّاداً في النظام الاقتصادي الجديد، واستثمروا تفوّقهم في مجالات اقتصادية وسياسية. فلم تكن الإمبراطورية الألمانية الجديدة قائمة على "الدم والحديد" وتعاليم بسمارك، بقدر ما قامت على الغني اليهودي جورج فون بلايشرودر، وكان لعائلة روتشيلد علاقات قوية مع دول عديدة.

وانطلاقاً من وحدة العلم والثروة، احتل اليهود مرتبة متفوقة بين المتعلّمين. ففي نهاية القرن التاسع عشر كانت نسبة اليهود في أوروبا ١٪ من السكان، بينما كانت نسبة المتعلمين منهم في فيينا، في مجال التعليم العالي، ٨٠٪ وكانت نسبتهم بين العلماء في ألمانيا ٥١٪. عاد ذلك إلى نجاحهم في ميدان التجارة أولاً. فاليهود الذين كانت نسبتهم، عام ١٨٨٠، ٣-٤٪ من السكان في فيينا، كانت نسبة التلاميذ منهم في جامعة فيينا ١٧٪. وفي هنغاريا، حيث شكلوا ٥٪ من السكان، كانت نسبتهم في المجالين العلمي والتقني ٤٣٪. وفي بروسيا حيث كانت نسبتهم ١ بالمائة فقط كان ١٧٪ من طلاب جامعة برلين يهوداً، وفي تشيكوسلوفاكيا كانت نسبتهم في الجامعات ستة اضعاف غيرهم. وبالإجمال "كانت الطبقة المتوسطة في أوروبا الشرقية كلها يهودية". ولهذا كان ٦٢٪ من المحامين في فيينا يهوداً، وكان منهم نصف الأطباء، ومثّلوا في مجال الصحافة ٦٣,٢٪ من جملة العاملين فيها. ينطبق ذلك على هنغاريا والنمسا وألمانيا. قال الخبير الإعلامي ستيفن بولر: "في زمن كانت الصحافة فيه أداة ثقافية جماهيرية، استطاع اليهود أن يسيطروا سيطرة واسعة على جميع الصحف".

لم يكن الأمر مختلفاً وكما يؤكد سليزكين، في مجال دور النشر، والمسرح والمعارض الفنية، وفي نهوض الثقافة والفن بشكل عام، "بفضل الدور الكبير الذي لعبه إبداع اليهود المتمرّدين". وبقدر ما كان لهم سيطرة في مجال الحقوق والقانون، بذلوا جهداً موازياً في دراسة "قوانين الطبيعة" و"قوانين المجتمع"، ولهذا فإن خمسة من العلماء التسعة الحاصلين على جائزة نوبل، في فترة جمهورية فايمار الألمانية، كانوا يهوداً، كان أحدهم ألبرت أينشتاين، الذي أصبح أيقونة أخرى من أيقونات الزمن الحديث، حال أيقونة أخرى مثلها: روتشيلد. ترجم المؤلف هذا الوضع قائلاً: "جسّد اليهود دائماً العقل، الذي جسّد دائماً العالم الحديث" و"اليهود أكثر المسيحيين تفوقاً". كان لهم القدرة على صيانة تقاليدهم العقلية،

"دون أن يقطعوا مع الماضي، والقدرة على السيطرة على الحاضر ذاهبين إلى المستقبل.

حين يصل المؤلف إلى ثورة أكتوبر السوفيتية عام ١٩١٧، والتي تحتل مساحة واسعة من الكتاب، يقول: "البلشفية مزيج من العقل الحديث والثقافة المدينية ـ ص: ٧٣"، وكان لليهود قصب السبق في المجالين واحتلوا، تالياً، دوراً سياسياً وإدارياً يتجاوز كثيراً عددهم بين السكان. فوفقاً للمؤرخ الأدبي الشهير فيكتور شوكلوفسكي، فإن نسبة اليهود في المناصب العليا في الجيش الأحمر وصلت إلى ٤٠٪ تقريباً، وكان ثلاثة من سبعة في المكتب السياسي يهوداً، منهم تروتسكي وكمنييف وزينوفيف، الذين كانوا في قيادة الحزب الشيوعي السوفييتي. وفي المؤتمر الأول للحزب في حزيران ١٩١٧ كان على الأقل ٣١٪ من رؤوساء الوفود يهوداً، وفي المؤتمر الذي أعلن الحزب فيه الثورة كان خمسة من أصل إثني عشر عضواً يهوداً. وكانت نسبتهم في اللجنة المركزية، في الفتة الممتدة بين ١٩١٩ و١٩٢١ هي واحد من أربعة، أي أن ربع القيادة كانت يهودية. يستشهد المؤلف بكلمات لمسؤول الثقافة في الحزب، لونشارسكي، وكان يهودياً، نسبها إلى مكسيم غوركي ولينين تحدثا فيها عن "الدم السلافي المخلط بالدم الفلاحي الذي هو سميك ويجري بطيئاً، بينما دم رفاقنا اليهود يتدفق مسرعاً، ويتعيّن على الدم الأول أن يختلط بدم الشعب اليهودي، الذي هو كخمرة معتقة عمرها ألف عام. ص: ١٨٠.

عرض مؤلف الكتاب المشهد اليهودي في الزمن الحديث مؤكداً أمرين: "تفوّق اليهود على غيرهم في جميع المجالات"، وارتكن إلى إحصائيات مرهقة لدعم ما يقول، مبرهناً: "أن اليهود هم شعب الله المختار في جميع الأزمنة".

٤. بحث علمي أم دعاوى أيديولوجية؟

كتب المؤرخ يوري سلزكين كتابه: "القرن اليهودي" بغبطة عالية، تتكشف في الأسلوب وغزارة المعرفة والانتقال المستريح بين إحصاء وآخر، وهو محق فيما فعل، يكشف عن التفوّق اليهودي ويدلّل أنه لا فرق بين أسطورة :"شعب الله المختار"، وهي دينية المرجع، والمعطيات العلمية في عصر العلم والتكنولوجيا: "عصر الإبداع اليهودي".

ومع أنه ارتكن إلى إحصائيات دقيقة، وإلى اختصاص المؤرخ فيه، الذي يوائم بين العلم التاريخي والوثيقة، فإن حماسه الذاتي، الذي لا يتفق مع موضوعية الوثيقة التاريخية، يطرح بعض الأسئلة.

هل اليهود في تفوقهم الذي لا يضارع، كما يبرهن الكتاب، معطى ديني أم معطى دنيوي، طالما أنه لا فرق بين الأسطورة الدينية والإحصاء العلمي، وهل النبوغ اليهودي مرتبط بشروط مكانية وزمانية، أم أنه معطى مرتبط بالجوهر اليهودي؟ كما يذهب الكتاب، وما الفرق، والحال هذه، بين يهود هنغاريا،

الذين اكتسحوا مجتمعهم، ويهود إثيوبيا "الفلاشا"، الذين لا يعاملون في إسرائيل (وطنهم القومي) باحترام كبير؟ وإذا كان المؤرخ قد فسّر بأشكال كثيرة، تفوّق اليهود في بلدان أوروبية اندرجت في حداثة الأزمنة الحديثة، فلماذا مرّ سريعاً على التفوّق اليهودي في روسيا، ذلك البلد الذي بقي متخلفاً إلى زمن ثورة أكتوبر؟ وما الضرورة إلى الإحصائيات المبالغ فيها، إن كان تفوّق اليهود يصدر عن يهوديّته، وإلا فكيف مثّل اليهود، ذات مرة، ربع الأعضاء في قيادة الحزب البلشفي الروسي؟

يقول عالم الاجتماع الفرنسي الراحل: مكسيم رودنسون: "بقي اليهود يهوداً بفضل التاريخ، لا رغماً عنه". فإذا كان الأمر كذلك، وهو كذلك، فمن أين جاءت عبقرية اليهود الخالدة، وعبقرية اليهود الروس، ولِمَ لم يتحوّل يهود "الفلاشا" إلى عباقرة؟ وإذا كان التفوق اليهودي كونياً، دون النظر إلى البلدان التي تفوّقوا فيها، كما لو كان تفوّقهم يصدر عن جوهرهم اليهودي، فما الضرورة إلى مصطلح "القرن اليهودي"، الذي يفصل بين قرن وآخر؟ أكثر من ذلك، إذا كانت حداثة اليهود تصدر عن ماهيتهم، فما الضرورة إلى الركون إلى نهاية القرن التاسع عشر والقرن العشرين، طالما أن اليهودي كان حداثياً قبل الأزمنة الحديثة وبعدها؟ وإذا كان القرن العشرون قرناً يهودياً بامتياز، كما يبرهن الباحث بلا تعب ولا نصب، فمن أين جاءت النزوعات المعادية للسامية، أي لليهود، التي بلغت ذروتها في "القرن اليهودي" ممثلة بالنازية، على سبيل المثال؟ علماً أن هذه النازية كانت "حداثية" وتفوّقت في الفيزياء و"أفران الغاز"؟.

تتكشّف لاموضوعية المؤرخ، ولا أقول إحصائياته، في نظره إلى القرن العشرين، الذي لم يكن يهودياً إلا لأنه كان "قرناً إنسانياً"، شاركت فيه جميع الشعوب. هذا القرن الذي، رغم "يهوديّته"، شهد نهب العالم الثالث واستعمار شعوبه وتقتيل سكانه، وبالتالي هل كانت الممارسات البربرية الاستعمارية في القرن العشرين جزءاً من تاريخ لا علاقة له "بالقرن اليهودي"، أم كانت يهودية القرن المفترض جزءاً من "الرجل الأبيض"، في رسالته الحضارية المزعومة؟

وإذا كانت الصهيونية: "ثورة قومية ثقافية"، كما يذهب الكتاب، بشكل واضح أو ناقص الوضوح، فما طبيعة هذا "الثقافي – الحداثي"، الذي لا يأتي، أبداً، على ذكر أهل فلسطين، التي رأت الصهيونية في أرضهم مشروعاً استعمارياً؟ ولماذا تخصيص فلسطين، "وطناً يهودياً"، إن كان الحداثي اليهودي حراً في كل مكان، ملكاً بمواهبه، حال أينشتاين وروتشيلد.

يأتي المؤلف على ذكر الصهيونية، في أكثر من مكان، كواقعة بديهية، أفرزتها "حداثة القرن العشرين اليهودية"، دون أن يشير إلى أدواتها السياسية التي تضمنت هرتسل الذي سعى إلى السلطان عبد الحميد، ملتمساً دعمه في تجسيد "الحقيقة اليهودية" في فلسطين، ودون أن يذكر نابليون، الذي

حرّض اليهود في الذهاب إلى "أرض أجدادهم"، ولا وعد بلفور الذي رأى في استعمار فلسطين مصلحة إنجليزية!! ما حاجة الصهوينية، وهي ثورة ثقافية، إلى بلد "متخلّف صغير"، كفلسطين، إن كان العالم كله مساحة لتجلّي العبقرية اليهودية؟ يجب التذكير بأن المؤرخ أسس أطروحته الأساسية، راجعاً إلى "عطارد" رسول الآلهة، الذي يبارك "الإنسان الحر الذي لا تأسره الحدود"، وإذا كان الأمر كذلك فما حاجة الصهيوني، إذن، إلى حدود جديدة، زهد بها من مطلع الحداثة الأوروبية؟

تحرّر المؤرخ من التاريخ مرتين: مرة أولى وهو يجعل من القرن العشرين كله قرناً يهودياً، دون الاعتراف بغير "اليهود" ومرة ثانية حين أنكر الشروط المكانية – الزمانية. ونسأل هنا: إذا كان التفوّق جزءاً من طبيعة اليهودي، الذي سبق تفوقه الأزمنة الحديثة وأسس حداثتها، فلماذا لا يظهر هذا التفوّق في دولة إسرائيل، التي أغرت "العلماء السوفييت" بالهجرة، بعد سقوط الاتحاد السوفيتي، ولم تنتج "أينشتاين" آخر، أو ما يشبهه، ولم تعط أديباً مثل كافكا، أو رساماً مثل شاغال، ولم يبرز تفوّقها إلا في تشريد الفلسطينيين و"إبداع" مجازرهم؟

لا يلتفت المؤرخ، المشدود إلى الإحصائيات إلى معنى التاريخ الموضوعي، الذي يفصح عن تقدم القيم كما يقول المؤرخ المغربي عبد الله العروي. وقد نسأل هنا عن العلاقة بين الصهيونية ـ وهي ثورة ثقافية ـ والقيم الإنسانية، التي تتكشّف في التاريخ، هذا إلا إذا اعتبرنا مجزرة "دير ياسين"، وكثيراً غيرها، تجلياً للعبقرية اليهودية في "القرن اليهودي"، وإذا اعتبرنا أيضاً أن الأساطير الصهيونية، عن شعب الله المختار وأرض الميعاد، مرآة لنبوغ يهودي كوني، وسم القرن العشرين من ألفه إلى يائه.

أدرج المؤلف في "إحصائياته الدقيقة" أبعاداً أيديولوجية، تساوي بين اليهود والحداثة وبين الحداثة الكونية والصهيونية وبين الحداثة الصهيونية واستعمار فلسطين. لا غرابة أن لا تلتقي نظريته عن "القرن العشرين" مع الفرنسي آلان باديو، الأكثر شهرة في بلاده وغيرها، الذي رأى في إسرائيل دولة استعمارية واعتبره يهود فرنسا، وهو فيلسوف التحرر والثورة، معادياً للسامية.

الإعلام ـ سلطة، أتقن اليهود استعمالها منذ زمن، برروا بها احتلال فلسطين، ذات مرة، ورأى بعض الفلاسفة الجدد المتصهينين، قبل ثلاثة عقود، في مجازر صبرا وشاتيلا "حدثاً سعيداً".

وعن هذا الإعلام وسلطته المتعددة الوجوه، صدر كتاب: "القرن اليهودي"

إشارات

Alain Badiou: Le Siecle, Seuil, Paris, 2005, 255. p.p.

Yuri Slezkine: The Jewish century: Princeton press, Princeton and oxford, 2004, 4858 p.p.

الأولوية لبناء نظام سياسي أم لبناء منظمة تحرير؟

د. جميل هلال*

تتكرر في الأحاديث السياسية الفلسطينية مفردات ملتبسة تحتاج إلى تمحيص في المعنى وتوضيح لدلالاتها لتساعد في تشخيص الواقع السياسي الفلسطيني ومساراته المحتملة بدقة. من هذه المفردات؛ النظام السياسي، الحقل السياسي الوطني والهوية الوطنية.

مفهوم النظام السياسي

يفترض الحديث عن النظام السياسي لكيان أو مجتمع ما يمتلك نظام حكم ما؛ سواء أكان نظاما ملكيا (أو أميريا)، جمهوريا، برلمانيا، رئاسيا، أو مختلطاً، وعما إن كان النظام يسمح بتفرد حزب سياسي واحد في الحكم (حزب حاكم، كما كان الحال لحزب البعث في العراق وسوريا أو معظم الأحزاب الشيوعية الحاكمة سابقا في الدول الاشتراكية) أو نظام يتنافس فيه عدد من الأحزاب السياسية. ما يميز بين الأنظمة السياسية ثلاثة أمور: الأول توفر تدابير مقرة ومتفق عليها لتداول سلمي للسلطة وعما إن كانت تتم بالتوريث أم بالانتخاب (سواء اعتمد نظام التمثيل النسبي، أو الأغلبي، أو المختلط) أم بالمبايعة أم بغير ذلك؛ والأمر الثاني يتعلق بطبيعة العلاقة بين السلطات الثلاث (التنفيذية، والتشريعية، والقضائية) ومدى استقلالية كل منها عن الأخرى، وفق نص دستوري (ملزم) لا لبس فيه؛ والأمر الثالث يتعلق بمدى التزام النظام باحترام الحريات العامة (بما فيها حرية التعبير والمعتقد والصحافة والتنظيم والتظاهر، والوصول للمعلومات) وبالحريات الفردية وبمساءلة المسؤولين.

بتعبير آخر يشترط وجود نظام سياسي حضور سلطة مركزية ذات ولاية على شعب (مواطنين) وعلى إقليم جغرافي محدد، وفي العادة معترف به دوليا. ومن هنا يرتبط وجود نظام سياسي

* باحث من فلسطين

بوجود دولة أو سلطة مركزية تمتلك صلاحية إصدار قوانين وإنفاذها في حدود إقليمها. في إطار هذا السياق يمكن الحديث عن نظام سياسي فلسطيني خداج بحدود الصلاحيات المتاحة للسلطة الفلسطينية (أو دولة فلسطين)، مع التنويه بأن حدود إقليمها لا تزال غير محددة على الأرض، ومنتهكة من دولة محتلة (إسرائيل). بعد سيطرة حركة «حماس» على قطاع غزة وحتى تراجع الأخيرة عن سلطتها نظريا في تشرين أول ٢٠١٧ كان على أرض الضفة والقطاع، نظامان لحكم ذاتي. هناك اتفاق ما زال قيد التنفيذ، بين التنظيمين المتنافرين لتوحيدهما في نظام واحد, وهو أمر يستدعي لاستكماله توحيد مؤسسات الحكم القائمة حاليا (التنفيذية والتشريعية والقضائية) ومنحهما شرعية انتخابية (من الجمهور الفلسطيني في الضفة وغزة)، أي تنظيم انتخابات رئاسية وتشريعية، وإعادة بناء مؤسسات منظمة التحرير الفلسطينية على أسس تمثيلية ديمقراطية، كون الأخيرة هي المرجعية الشرعية للسلطة (الدولة) الفلسطينية. ما ينبغي ملاحظته هنا أن منظمة التحرير ليست نظاما سياسيا كونها لا تملك ولاية وسيطرة على إقليم جغرافي محدد بل تمثل شعبا موزعا على تجمعات تقيم في دول وأقاليم مختلفة.

ما سبق يشير إلى إشكالية في الحديث عن وجود نظام سياسي فلسطيني كون ما هو مطروح مشروعاً هو دولة ذات سيادة على إقليمها الوطني المستقل، وحتى اللحظة لا وجود لدولة فلسطينية مستقلة وذات سيادة، ولا لإقليم تسيطر عليه هذه الدولة، بحكم أن الإقليم المقترح لإقامة دولة مستقلة عليه تسيطر عليه سيطرة تامة دولة مستعمِرة (إسرائيل). وتشمل سيطرتها الحدود والأجواء والمياه والموارد الطبيعية الأخرى، وهي تحاصر السكان الفلسطينيين في معازل محاطة بالمستوطنات (المستعمرات) والطرق الالتفافية وبمناطق «ج» وبجدار الفصل العنصري. كما يجب ملاحظة أن النظام السياسي المقترح إقامته لا يشمل كل الشعب الفلسطيني، بل يقتصر، عمليا، على الجزء المقيم في الضفة الغربية وقطاع غزة.

مفهوم الحقل السياسي

وجود حقل سياسي وطني (كما يستخدم مفهوم «الحقل» في العلوم الاجتماعية) لا يشترط بالضرورة وجود نظام سياسي (أي وجود دولة أو سلطة وطنية على إقليمها)، بل وجود مؤسسات أو أطر جامعة تتفاعل وتتنافس في إطارها ووفق قواعد متفق عليها أحزاب أو قوى سياسية، ويسعى كل منها لتقوية نفوذه في مؤسسات الحقل مستخدما رأسماله النضالي والفكري والمادي والمعنوي وحجم قاعدته الجماهيرية (الانتخابية). وفق هذا التعريف فإن كل دولة وطنية مستقلة أو حركة

تحرر وطني تشكل لنفسها حقلها السياسي الوطني الذي يحدد هوية جمهورها (الذي تمثله أو تسعى لتمثيله أو فرض الهيمنة (بمفهوم غرامشي) عليه). يضم الحقل السياسي تنظيمات أو حركات سياسية (علنية أو سرية أو كليهما) ومنظمات مجتمع مدني، وحركات اجتماعية تلتقي على أهداف عامة. وفق هذا المفهوم فإن منظمة التحرير شكلت حقلا سياسيا وطنيا (أي فلسطينيا) في أواخر الستينات من القرن الماضي وهيمنت عليه حتى قيام سلطة فلسطينية في العام ١٩٩٤ حين تراجع دورها ونفوذها لصالح مشروع تقوية مؤسسات السلطة الوطنية الفلسطينية التي سعت لأن تأخذ تسميات "دولاتية» (من الدولة) وتمنح لنفسها نظاما سياسيا (مجلس تشريعي، نظام رئاسي-برلماني، نظام انتخابي، الخ) قابل للتحول السريع من حكم ذاتي محدود الصلاحيات إلى نظام سياسي لدولة ذات سيادة كاملة..

من سمات الحقل السياسي لمجتمع أو لشعب أو لكيان وطني ما وجود مؤسسات وطنية جامعة تمكن من نشاط تنظيمات أو أحزاب سياسية (علنية أو سرية أو كليهما) لها برامجها وتحتكم لقوانين أو أعراف تنظم العلاقات بينها، وبينها وبين مركز القرار السياسي. وهي تنظيمات تتنافس وتتحالف فيما بينها وتسعى، في العادة، للتأثير على صناعة القرار الوطني (السياسي وغير السياسي). وبحكم ديناميكية حالة التنافس والتزاحم (بما فيها داخل الحزب الواحد أو الحركة السياسية أو الأسرة الحاكمة ذاتها) يبقى الحقل السياسي الوطني في حالة حراك دائم. وقد يحدث أحيانا (وإن بكثرة في الوضع العربي)، أن يلجأ طرف أو أكثر لاستخدام وسائل قوة للسيطرة على مركز القرار مما قد يوّلد حرباً أهلية أو انقلاباً عسكرياً أو انفصالًا (إقليم أو أثنية أو قومية) أو استقواء بقوى خارجية على قوى داخل الحقل. وقد يتم التوصل إلى تسوية بين القوى المتصارعة تتم بموجبها المحاصصة على مواقع السلطة وينتج عنها تهدئة لفترة قد تطول أو تقصر. هذا ما حدث في الصراع بين «حركتي «حماس» و»فتح» على السلطة والذي دفع حركة "حماس» لاستخدام القوة العسكرية للسيطرة على قطاع غزة، وإمساك حركة «فتح» (بالتوافق مع فصائل أخرى) بالسلطة (حكم ذاتي) في الضفة الغربية. وشهدت الفترة الممتدة ما بين ٢٠٠٧ وحتى خريف العام ٢٠١٧ مساعي عديدة للتوصل إلى «مصالحة» (اتفاق) بين الحركتين دون نتيجة بحكم توازن القوى المحلي والإقليمي والدولي. وعادت هذه المساعي للتجدد في خريف العام ٢٠١٧ بعد أن ارتجت موازين القوى المحلية والإقليمية ودخل على الساحة الدولية (في الولايات المتحدة تحديدا) قوى لها رؤياها الخاصة للمنطقة، بما فيها للصراع الفلسطيني-الإسرائيلي.

يحتاج فهم ما يدور في الحقل السياسي أدوات تختلف عما يحتاجه فهم ما يدور في النظام السياسي. فالحقل السياسي، إن لم يكن حقلا لدولة ذات سيادة أو سلطة مركزية ذات سيادة على إقليمها

الوطني، ليس من انشغالاته الأساسية «تداول السلطة» بقدر ما هو معني بإنهاء السيطرة الخارجية (الاحتلال والاستعمار والتدخل الخارجي) وتوطيد ركائز الاستقلال، ويهتم بالتالي باستراتيجيات التحرر من السيطرة الخارجية. ولذا فهو لا ينشغل بتنظيم العلاقة بين السلطات التنفيذية والقضائية والتشريعية، بل بمراكمة القوى في مواجهة السيطرة الخارجية (بأشكالها المختلفة). انشغالات الحقل السياسي الفلسطيني، كما جسدته منظمة التحرير حتى قيام سلطة فلسطينية في العام ١٩٩٤ تصدرها؛ استراتيجيات المقاومة، الحفاظ على استقلالية القرار الوطني، كسب التضامن الإقليمي والدولي، الحرص على الوحدة الوطنية، اتخاذ القرارات بالتوافق وليس عبر نظام الأكثرية العددية، تعزيز العمل التطوعي ودور التنظيمات الشعبية والنقابية والحركات الاجتماعية والحفاظ على وحدانية التمثيل للشعب الفلسطيني. وهي انشغالات تختلف عن تلك التي تعنى ببناء مؤسسات دولة أو سلطة وطنية على إقليمها، بوجود حكومة ، ووزارات، ومعارضة، وانتخابات عامة ومجلس تشريعي أو برلمان، وقانون أساسي، وتمثيل دبلوماسي وشؤون للأمن الداخلي وجيش وطني، وخطط اقتصادية ونظام ضرائب وسجل ولادة ووفيات وهويات سفر للمواطنين وتنظيم ممارسة المهن الحرة وقوانين للسير ورخص للمركبات، وشؤون للرعاية الاجتماعية، وكيفية ممارسة السيطرة على المعابر والأجواء والحدود والموارد الطبيعية، إقرار لموازنة سنوية، خطط لمكافحة البطالة والفقر، نظام تقاعد، ونظام ترقيات، وغير ذلك.

هناك تداخل بين النظام السياسي والحقل السياسي، قد يشمل جوانب من الحياة الديمقراطية والشفافية والمحاسبة، ومدى الالتزام بالمرجعيات (دستور، ميثاق، نظام أساسي) المتفق عليها، وظواهر مثل المحسوبية والزبائنية والواسطة وأشكال الفساد الأخرى داخل الأحزاب ومؤسسات المجتمع المدني، وفي المؤسسات الوطنية الجامعة. لكن التمييز بين الحقل السياسي وبين النظام السياسي يبقى مهما، وبخاصة في فهم التحولات التي دخلت على الحقل السياسي الوطني بعد اتفاق أوسلو وبعد قيام سلطة حكم ذاتي على أجزاء من الأراضي الفلسطينية التي احتلت علم ١٩٦٧. وغموض مضامين مفردات، في الوضع الراهن، مثل استراتيجية وطنية، ومشروع وطني ومصلحة وطنية عليا، ومضمون "تفعيل» منظمة التحرير، و»مصالحة» أو وحدة» وطنية وغيرها. الحقل السياسي الوطني يخص الكل الفلسطيني وإعادة بناء الحقل يحمل مشروعا متعدد الأبعاد؛ فهو لا يقتصر على إنهاء الاحتلال والاستيطان للأراضي التي احتلت في العالم ١٩٦٧، وإقامة دولة ذات سيادة لها نظامها السياسي الديمقراطي السيادي، ويشمل إنهاء التمييز العنصري ضد الفلسطينيين في الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨ وتقويم الظلم التاريخي الذي لحق بالشعب الفلسطيني جراء التشريد والتطهير العرقي، وإحقاق حق العودة لمن شرد من وطنه الأصلي. هناك فرق بين إعادة

بناء منظمة التحرير - كحركة وطنية جديدة تحت مسمى منظمة التحرير لما للاسم من رأسمال معنوي وديبلوماسي ونضالي، وإن تراجعت قيمة هذا الرأسمال بين نظرائه لما تعرضت له من تهميش وتجاهل وتقادم - كحقل سياسي وطني يمثل مصالح ويرعى حقوق كل مكونات الشعب الفلسطيني، وبين إزالة الاحتلال عن الأراضي الفلسطينية التي أعلنت عليها الدولة الفلسطينية كما تبنتها الجمعية العامة للأمم المتحدة.

الهوية والنظام والحقل السياسيين

يحيط بمفهوم الهوية الوطنية شيء من الالتباس بعلاقته بمفهومي النظام السياسي والحقل السياسي. لذا نجد من تحدث عن تفكك أو ذوبان الهوية الوطنية الفلسطينية بعد النكبة الفلسطينية، وتكرر هذا الحديث بعد أفول مؤسسات منظمة التحرير وتهميشها واختفاء أهمها. وفي الحالتين (النكبة المستمرة وغياب مؤسسات منظمة التحرير) الذي انهار وتفكك هو الحقل السياسي الوطني بعد هزيمة وتبعثر الحركة الوطنية في العام ١٩٤٨، وبعد تهميش مؤسسات منظمة التحرير الفلسطينية بعد العام ١٩٩٤. الهوية الوطنية تتغذى بالأساس، من سردية تاريخية تتناول جوانب مختلفة (سياسية واجتماعية وثقافية واقتصادية) من حياة الشعب وما دخل عليها من تحولات وأحداث ومنعطفات. السردية التاريخية الفلسطينية بعد العام ١٩٤٨ متعددة الروافد بحكم تعدد ما تعرضت له تجمعات الشعب الفلسطيني (داخل فلسطين التاريخية وخارجها) بعد النكبة وبعد احتلال إسرائيل بقية الأرض الفلسطينية عام ١٩٦٧. وفي جميع الحالات الهوية الوطنية تستند إلى نشاط الحقل الثقافي الفلسطيني بمكوناته المختلفة، وهذا النشاط لم يخفت أو يتراجع، بل ازداد حيوية في العقدين الأخيرين.

في العادة تتولى الدولة (عبر مؤسساتها التعليمية والإعلامية والثقافية) أو حركة التحرر (عبر تنظيماتها السياسية ووسائل إعلامها ومراكز أبحاثها) تقديم سردية لتاريخ شعبها وعلاقته بالأرض التي يقيم عليها. وهذا ما ارتبك، إلى حد ما، بعد تغُيّب مؤسسات منظمة التحرير وانشغال تنظيماتها السياسية باتفاق أوسلو وتداعياته وبروز قوى سياسية اسلامية جديدة تزاحم المنظمة. لقد فرض اتفاق أوسلو قيوداً على السلطة الفلسطينية وأضعف مهمة سرد الرواية الفلسطينية وتعريف من هو الشعب الفلسطيني وحدود جغرافيا فلسطين. وتصحيح هذا الوضع هو من مهمات منظمة التحرير بعد إعادة بناء مؤسساتها على أسس تمثيلية وديمقراطية جامعة، لكل مكونات الشعب الفلسطيني وتعبيراتها السياسية والفكرية، حيوية الحقل الثقافي هو الذي تولى الحفاظ على الرواية الخارجية الفلسطينية وإثرائها.

نظام سياسي أم حقل سياسي جديد أم كلاهما

شكلت منظمة التحرير الفلسطينية بعيد فترة قصيرة من تأسيسها في ستينات القرن الماضي الحقل السياسي الوطني للشعب الفلسطيني. ونشأ عن السلطة الفلسطينية بعد تأسيسها في العام ١٩٩٤ نواة لنظام سياسي فلسطيني لا يملك سيادة كاملة على أرضه الإقليمية ولا يمثل الكل الفلسطيني، لكنه يتمتع ببعض السلطات على غالبية سكان الضفة والقطاع الفلسطينيين، وتحديدا المقيمين في منطقتي «أ»، و «ب» وليس في منطقة «ج» ولا القدس العربية، ولا، بالطبع، على المستوطنين الإسرائيليين المقيمين في مستعمرات الضفة الغربية. حصول السلطة الوطنية الفلسطينية في العام ٢٠١٢ على وضع دولة غير عضو في الأمم المتحدة لم يغيّر من واقع بقائها بدون سيادة على الأرض، وعدم شمول ولايتها جزءاً كبيراً من الفلسطينيين.

لا شك أن السلطة الفلسطينية منذ تأسيسها تملكها هدف بناء مؤسسات دولة ذات سيادة على أراضي الضفة والقطاع وعاصمتها القدس الشرقية، وتشييد نظام سياسي لهذه الدولة المستقلة وفق أسس حددها النظام الأساسي الذي أقره المجلس التشريعي المنتخب في حينه. ولأن هذا الهدف لم ينجز، ولا يبدو أنه قابل للإنجاز في المدى المرئي بحكم موازين القوى الإقليمية والدولية الراهنة وسياسات الطبقة السياسية الحاكمة في إسرائيل. صحيح أن توحيد مؤسسات السلطة الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة يشكل شرطا ضروريا لتشييد نظام سياسي فلسطيني في سياق الصراع لترحيل الاحتلال الاستيطاني، وإقامة دولة فلسطينية مستقلة، وليس حكما ذاتيا على جيوب «بانتوستانية» معزولة عن بعضها البعض. لكن هذا ليس شرطا كافيا إذ يتطلب قيام الدولة ذات السيادة السيطرة التامة على إقليمها. وهنا سنجد من يذكر بأن المشروع الوطني الفلسطيني يبقى قاصرا إن اكتفى بدولة فلسطينية دون حق العودة إلى الوطن الأم.

ولعل واقع اللجوء والشتات وواقع التمييز الذي يعيشه الشعب الفلسطيني في الأرض التي احتلت عام ١٩٤٨، هما ما يمنحان أهمية خاصة لمهمة إعادة تشييد الحقل السياسي للكل الفلسطيني. وهي مهمة ملحة لترميم الخراب الذي نتج عن تفكك الحقل السياسي الوطني الذي مثلته منظمة التحرير الفلسطينية، بمؤسساتها التمثيلية وأطرها القطاعية والمهنية.

تفكك الحقل السياسي الوطني الناتج عن تغييب مؤسسات منظمة التحرير والانشطار الذي أصاب النظام السياسي غير مكتمل التكوين (ممثلا بالسلطة الوطنية الفلسطينية أو الدولة غير العضو في الأمم المتحدة) لدى سيطرة حركة «حماس» على قطاع غزة عام ٢٠٠٧. ولّد خشية لدى البعض من تبدد الهوية الوطنية الفلسطينية. ورغم وجود ما يقلق فعلا إزاء ما تتعرض له الرواية التاريخية

الفلسطينية من تشويه وتزييف ومحاولات طمس وحالة إنكار، إلا أن الهوية الوطنية، وتعبيرها السياسي المتجسد في الوطنية الفلسطينية، كما ورد سابقا، تتمتع بحيوية مذهلة لها تعبيرات عديدة متجددة كان آخرها هبة الجمهور الفلسطيني في القدس وافشاله مسعى إسرائيل تقسيم المسجد الأقصى، وبرز في مواجهات مشروع برافر، وفي تصدي الشباب للجنود الإسرائيليين في القدس والخليل ومواقع أخرى، وإضراب الأسرى، وابتداع أشكال جديدة في مواجهة الاستيطان («باب الشمس»، «باب الكرامة»، «أولاد يونس»...)، وفي المواجهات ضد جدار الفصل العنصري (بلعين، النبي صالح، الخ)، ومقاومة بدو النقب للتهميش والإنكار من الدولة الإسرائيلية، وغير ذلك من الأمثلة.

مصدر الخشية على الهوية الوطنية مصدره غياب مؤسسات وطنية جامعة وفاعلة (غياب حقل سياسي وطني)، ومن قصور النظام السياسي الراهن (ممثلا ببقاء السلطة الفلسطينية بعيدة عن امتلاك مقومات الدولة ذات السيادة، وممارستها لوظائف تبقيها في دائرة تنظيم شؤون المعازل («البانتوستانات» أو «الغيتوات») التي فرضت وجودها الدولة المحتلة، وهي تواصل استعمار وضم الأراضي قليلة السكان الفلسطينيين (الأراضي المصنفة «ج» وغور الأردن) بالإضافة إلى الكتل الاستيطانية وتهويد القدس العربية.

سؤال ما العمل؟

التحول في الحقل السياسي الفلسطيني جرى بفعل عوامل عدة؛ منها التحولات في بنية المنظمة وبرنامجها وعلاقاتها الإقليمية والدولية، ومنها تحولات ذات بعد استراتيجي شهدتها المنطقة والعالم غيّرت موازين القوى لغير صالح حق الشعب الفلسطيني في الحرية وتقرير المصير والعودة. من هذه العوامل أن مركز الثقل القيادي والمؤسساتي للحركة الوطنية الفلسطينية كما مثلتها منظمة التحرير، بما في ذلك مراكز فصائلها (باستثناء الحزب الشيوعي)، ومراكز الاتحادات والنقابات الفلسطينية، تبلور وتمأسس خارج أرض فلسطين التاريخية، أي على أراض لا سيادة لمنظمة التحرير عليها، بل لدول لكل منها حساباته السياسية والأمنية الخاصة. وهي دول رأت في وجود تنظيمات مسلحة فلسطينية على أرضها أمراً يمس سيادتها، ويعرّض استقرار نظمها لمخاطر. هذا الأمر أدخل منظمة التحرير في حالة تناقض وصراع مع أكثر من دولة عربية، وتحديدا حيث كان للمنظمة على أرضها وجودا مسلحا. هذا الحال أوجد تناقضا بين نظام سياسي لدولة ذات سيادة على إقليمها وحريصة على استقرار نظامها، وبين حقل سياسي لحركة تحرر تقيم قواعد ومراكز قيادية على أرض لا سيادة لها عليها ومعنية بتحرير أرضها المحتلة وبناء دولتها الوطنية عليها. هذا التناقض

بين منطق الدولة ومنطق حركة تحرر قاد لصراعات أخذ بعضها أشكالا من المواجهات العسكرية الدامية. لكنه غرس في الوعي السياسي الفلسطيني أهمية التواجد على أرض وطنية خارج سيطرة خارجية. هذا كان أحد أسباب الاندفاع للتحول من حركة تحرر وطني معرضة للترحيل الدائم إلى سلطة (دولة) تقيم على إقليمها الوطني. ومن العوامل الأخرى الهامة موقف الحليف الدولي الأكبر لمنظمة التحرير (الاتحاد السوفيتي) الذي دعم مشروع إقامة دولة فلسطينية على الضفة والقطاع. ولا شك بأن إخراج منظمة التحرير من لبنان بعد حصارها في بيروت صيف العام ١٩٨٢، وتشتت مؤسساتها وقياداتها أدى إلى تعميق الإحساس بالحاجة الملحة لموطئ قدم على أرض فلسطين.

كان للانتفاضة الأولى تأثير بالغ في إحداث تحول نوعي في بنية ولغة الحقل السياسي الفلسطيني: فهي نقلت مركز ثقل النضال الوطني إلى الأرض المحتلة عام ١٩٦٧ بعد أن كان مركزه قبل ذلك متنقلاً خارجها. الانتفاضة الأولى أخذت شكل المواجهات الجماهيرية المباشرة مع الاحتلال الإسرائيلي المباشر وانتجت مساندة وتكافلا من كل مكونات الشعب الفلسطيني الأخرى. وانتجت أشكالا مبدعة من المقاومة العامة للاحتلال من خلال اللجان الشعبية والمختصة والتدابير التكافلية للمجتمعات المحلية في المدن والقرى والمخيمات تحت توجيه قيادة وطنية محلية موحدة (القيادة الوطنية الموحدة للانتفاضة) تشكلت من القوى السياسية الفاعلة على الأرض في الضفة والقطاع. حركة «حماس» التي ظهرت مع بداية الانتفاضة الأولى بقيت خارج مؤسسات الحقل السياسي الوطني (خارج مؤسسات منظمة التحرير). وكان لقرار «حماس» (ومعها مختلف القوى الأخرى باستثناء الجهاد الإسلامي) خوض انتخابات المجلس التشريعي عام ٢٠٠٦، بعد انتهاء الانتفاضة الثانية وبعد غياب الزعيم الفلسطيني ياسر عرفات (في نوفمبر/تشرين الثاني عام ٢٠٠٤) رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير ورئيس السلطة الفلسطينية وحركة فتح، أن تولد شرخا بنيويا عميقا (سياسيا ومؤسساتيا وجغرافيا) في بنية النظام السياسي الفلسطيني المنقوص. وباتت مهمة إنهاء هذا الشرخ من أهم متطلبات بناء نظام سياسي يمتلك الحدود الدنيا من التماسك والشرعية الجماهيرية في الضفة والقطاع يهتم بتلبية الاحتياجات الأساسية للفلسطينيين ويقف في وجه سياسات وممارسات الاحتلال الاستعماري العنصري.

كما تركت الانتفاضة الأولى تأثيرها على الحقل السياسي الوطني من خلال تبني المجلس الوطني الفلسطيني في العام ١٩٨٨ وثيقة الاستقلال وإشهاره قبول منظمة التحرير دولة فلسطينية مستقلة إلى جانب إسرائيل. لكن مجمل التحولات الإقليمية والدولية وأوضاع المنظمة الداخلية هيأت لتوقيع منظمة التحرير على اتفاق أوسلو دون توفر الضمانات والشروط الكافية للانتقال من حكم ذاتي محدود إلى دولة ذات سيادة على كل الأرض المحتلة عام ١٩٦٧ وعاصمتها القدس،

ودون التفريط بحق العودة وإدارة الظهر لمستقبل الفلسطينيين في إسرائيل. لقد حرمت التحولات الإقليمية والدولية (وتحديدا انهيار الاتحاد السوفيتي واشتداد قبضة الولايات المتحدة على منطقة الشرق الأوسط) منظمة التحرير من أهم حلفائها الإقليميين والدوليين، وأخضعتها لعزلة سياسية ومالية (على أثر موقفها من احتلال الكويت من قبل النظام العراقي)، مما ترك تأثيره على مواقف المنظمة وقدرتها على المناورة والصمود. كما أضعفت كثيرا من هيمنة المنظمة على حقلها الوطني وبخاصة أنها لم تبادر لتجديد بنية مؤسساتها وفقا للظروف الجديدة، وتجاهلت ضرورة إجراء مراجعة نقدية لأساليب عملها وخاصة بما يتعلق بعلاقاتها بتجمعات شعبها الفلسطيني المختلفة وبصلاتها مع القوى العربية المساندة، ومع القوى الدولية المتعاطفة مع قضية الشعب الفلسطيني.

دخلت منظمة التحرير فضاء التفاوض مع إسرائيل، وهي في أضعف حالاتها، ووقعت على اتفاق أوسلو وعلى حق إسرائيل في الوجود دون أن تضمن مقابل ذلك اعتراف إسرائيل بحق الشعب الفلسطيني في دولة سيادية على أرضه الوطنية ولا في حقه بتقرير المصير ولا بحقه في العودة إلى وطنه. وانشغلت القيادة السياسية بعد اتفاق أوسلو في مأسسة سلطة حكم ذاتي، وأهملت الحاجة إلى تجديد بنية وبرنامج منظمة التحرير (أي الحقل السياسي الوطني) على أسس تمثيلية ديمقراطية جامعة. وهو أمر بات ضروريا لأكثر من سبب واعتبار؛ منها ضرورة استيعاب القوى السياسية الجديدة التي دخلت الحقل (قوى الإسلام السياسي) على أسس ديمقراطية وطنية ومنع تفتت الحقل الوطني إلى مكوناته الجغرافية، وتأمين الشروط الضرورية لبناء نظام سياسي سيادي على الضفة الغربية (بما فيها القدس) وقطاع غزة دون التفريط بالحقوق التاريخية.

لقد ترك تفتت الحقل السياسي الوطني الذي مثلته منظمة التحرير مكونات الشعب الفلسطيني في حالة انكشاف لمخاطر جمة بعد أن غابت عنها المؤسسات الوطنية الجامعة لتتولى تمثيل مصالحها وتطلعاتها الوطنية في ساحاتها المختلفة. كما أن سيطرة الدولة الاستعمارية العنصرية على نواحي الحياة المختلفة في الضفة والقطاع ولد حاجة للاعتماد على الريع الخارجي، الأمر الذي أبقى كليهما عرضة للضغوط والابتزاز وإن ولد ضرورة لصياغة وتنفيذ استراتيجية مواجهة لسياسة الاحتلال والحرص على توفير الرعاية الضرورية لصمود المواطنين. لكن إرساء شروط توليد سلطة سيادية (أي سلطة بيدها سلطة وليس سلطة بلا سلطة كما وصفت) على الضفة والقطاع يبقى قاصرا جدا إن لم يترافق مع إعادة بناء الإطار الجامع الراعي لمصالح وحقوق كل مكونات الشعب الفلسطيني في فلسطين التاريخية وخارجها؛ أي دون بناء حقل سياسي وطني لحركة تحرر لشعب متعدد الأوضاع المعطلة لحريته وحقوقه، وبناء «سلطة» ذات وظائف خدمية لشعبها تكون خاضعة للمساءلة أمام مؤسسات منظمة تحرير جديدة وأمام جمهورها. أي أن اللحظة الوطنية تتطلب بناء حقل سياسي

وطني ذو برنامج تحرري انعتاقي، ونظام سياسي موّحد (مسيّر من قبل مركز الحقل وتوجهاته)، وكلاهما على أسس ديمقراطية وطنية كفاحية، مستفيدا مما توفره التكنولوجيا الحديثة من وسائل وإمكانات تواصل وتفاعل بعيدا عن رقابة سلطات القمع والاحتلال والتمييز العنصري، ودون فلترات أخبار ودعاية أطراف ذات مصالح وأهداف خاصة. وهي مهمة ليست بالسهلة ولكنها ليست مستحيلة إن تحملت القوى السياسية وقوى المجتمع المدني الحية مسؤولياتها التاريخية بشجاعة وحكمة ورؤية واضحة، وإن لم نفقد الأمل في تفجر «ربيع عربي» جديد يعيد وضع المنطقة في مسار تقدمي تحرري وانعتاقي جديد، تكون فلسطين في قلب هذا المسار، فالأسباب التي فجرت الربيع الأول ما زالت حية تماما، لتفجير ربيع جديد.

السياسة الأميركية الجديدة في عهد ترامب تجاه الشرق الأوسط

عبد الغني سلامة*

مقدمة

سبّب فوز «دونالد ترامب» في الانتخابات الرئاسية الأميركية في تشرين ثاني/نوفمبر ٢٠١٦ صدمة للعالم بأسره، وقبل ذلك صدمة للأميركيين أنفسهم، بمن فيهم الذين انتخبوه، فهؤلاء الذين صوتوا له، فعلوا ذلك احتجاجًا على النخبة السياسية الحاكمة من الحزبين، ولأسباب أخرى، وربما لم يكونوا متوقعين له النجاح.. والسبب ببساطة شخصيته وغرابة أطواره؛ فقد وصفته العديد من وسائل الإعلام الأميركية بأنه شخص شعبوي عنصري ومتقلب؛ إضافة إلى نشرها قصصا كثيرة تحدثت عن تحرشه بالنساء، وتصريحاته العنصرية، وتهديده المسلمين والسود والأقليات والمثليين والمهاجرين، وتهديده ببناء سور مع المكسيك، وبإلغاء نظام التأمين «أوباماكير».. وقبيل الانتخابات كان البيت الأبيض قد أصدر بيانا أشار فيه إلى أن المرشح دونالد ترامب غير مؤهل لرئاسة أميركا، كما انتقده رئيس الوزراء البريطاني «كاميرون»، واعتبر أن تصريحاته غريبة، وتثير الجدل وعديمة الفائدة.. ١

كما أثارت تصريحاته مخاوف القطاعات الصناعية والمالية والتجارية، ومخاوف النخب الأميركية من تأثر علاقات أميركا مع دول العالم، وإمكانية تصعيد الأجواء، خاصة مع تهديداته بإلغاء أو تجاوز الاتفاق النووي الإيراني، إضافة إلى منع المسلمين من دخول الولايات المتحدة، وتشجيعه حمل السلاح في أركان البلاد، عدا عن دعوته إلى نقل السفارة الأميركية إلى القدس.

ومع كل ذلك، نجح «ترامب» في أن يكون أول رئيس أميركي من خارج المؤسسة السياسية التقليدية. اليوم، وقبل أن ينهي عامه الأول في البيت الأبيض، ما زال «ترامب» بسياساته الغامضة، وشخصيته التي يصعب التنبؤ بتصرفاتها، وتصريحاته الغريبة.. ما زال يثير المخاوف، ويستدعي العديد من

* باحث من فلسطين

التساؤلات، خاصة لمنطقة الشرق الأوسط، المنطقة الأكثر سخونة في العالم، وبالذات للفلسطينيين، الذين ما زالت قضيتهم دون حل، منذ أكثر من قرن..

في هذه الدراسة، سنحاول الإجابة على الأسئلة التالية:

- ما هو وضع القضية الفلسطينية بعد وصول ترامب للحكم؟
- هل هناك مشروع أميركي جاد لإيجاد حل لعملية السلام؟
- وهل يكون الحل في إطار ما يطلق عليه حلًاإقليمياً للمنطقة؟
- وما هي ملامح الحل الإقليمي من منظور أميركي ومنظور إسرائيلي؟

ترامب بين الحملة الانتخابية، واستحقاقات الرئاسة الفعلية

إذا استعرضنا تعهدات «ترامب» قبل وأثناء حملته الانتخابية، سنجد أنها تغيّرت أكثر من مرة، وباتجاهات متعددة، مثلا في البداية تحدث عن حق الفلسطينيين في تقرير المصير، وأن على إسرائيل دفع ثمن ما تحصل عليه من دعم أميركي، ثم انقلب بشكل شامل إلى أن وصل إلى التعهد بنقل السفارة إلى القدس، وعدم السماح بإقامة دولة فلسطينية «إرهابية»، وأن الحل يأتي عبر مفاوضات ثنائية دون إملاءات ولا تدخل من أحد، عدا عن قوله إن الاستيطان حق مشروع لإسرائيل.. كما فاخر بأن ابنته تزوجت من يهودي، وأنها حامل وستلد طفلًا يهوديًا. ثم أطلق غداة الانتخابات تصريحًا مغايرًا لما صرح به قبلها بقوله إنه سيعمل للتوصل إلى اتفاق سلام بين إسرائيل والفلسطينيين. ٢ فإذا اعتاد كل مرشح أن يحاول في خطابه الانتخابي مراعاة جميع الجهات ليكسب ودها وأصواتها، فإن «ترامب» أفرط وبالغ في كسب ود اليهود، مع إدراكه أن هذا سيخسره أصوات المسلمين والأقليات ومن هم من أصول عربية ولاتينية.

هذه المواقف والتصريحات المتعارضة تصعّب من عملية التكهن بتوجهاته، خاصة وأنه لم يعتمد في نجاحه على دعم اللوبي الصهيوني (رغم تقربه منه)، ولم تتكون شخصيته السياسية داخل أيٍ من الحزبين الكبيرين.. وهو متحرر إلى حد ما من تأثيرات وضغوطات اللوبيات الاقتصادية الأميركية.. وقبل ذلك، فهو لا يملك رصيدًا سياسيًّا وليست لديه خبرة كافية على صعيد السياسات الدولية، وتتسم تصريحاته بالفوضى وعدم الانسجام.

ولكن تصريحات «ترامب» أثناء حملته الانتخابية لا يشترط أن تكون فعلا هي عماد سياسات البيت الأبيض، فكما هو معروف، فإن الرؤساء في الحملات الانتخابية يتحدثون كثيراً، ويقدمون الوعود،

لجلب أصوات الناخبين، وليس بالضرورة أن يطبقوا وعودهم بعد فوزهم بالانتخابات، خاصة بعد أن يصطدموا بالواقع، ومصالح مراكز القوى والأطراف المؤثرة المختلفة.. عادة، فإن الرؤساء ينضبطون على الإيقاع الذي تضبطه مكونات الدولة العميقة، وبإيجاد حالة من التوازن لإدارة وحماية مصالح مختلف الجهات والأطراف المؤثرة على سياسة الولايات المتحدة داخليا وخارجيا..

مثلا، بخصوص موضوع نقل السفارة، فقد وعد منذ عام ١٩٧٢، عشرون مرشحًا رئاسيًّا أميركيًّا بنقل السفارة إلى القدس، ولكن لم ينجح أي منهم في تنفيذ ذلك. كما أن مجلس الشيوخ أقر عام ١٩٩٥ قانونًا لنقل السفارة الأميركية إلى القدس؛ في موعدٍ لا يتأخر عن ٣١ أيار ١٩٩٩. ومع ذلك، يتم تأجيل تطبيق هذا القانون كل ستة أشهر بسبب تعقيدات الوضع السياسي والقانوني لمدينة القدس، وما يمكن أن يترتب على ذلك من تصاعد للتوتر في المنطقة، أو الإضرار بالمصالح الأميركية في ظل الاضطرابات التي تعصف بالإقليم. ٣

وفي هذا الإطار، من المستبعد أن يُقدِم ترامب على تنفيذ وعوده الانتخابية بنقل السفارة إلى القدس، خشية من تفجر الوضع الفلسطيني الداخلي، ومن ثم زيادة الوضع التهابًا في منطقة الشرق الأوسط، الأمر الذي سيجلب ردود فعل عربية وإسلامية قد تؤثِّر على المصالح الأميركية.٤

محددات السياسة الأميركية الخارجية

مع أهمية فهم وتحليل شخصية الرئيس الأميركي لفهم واستشراف التوجهات الأميركية، خاصة وأن الرئيس يتمتع بقدر لا بأس به من الصلاحيات، وقد برهنت الأحداث في مرات سابقة على أن الفريق الذي يختاره الرئيس يلعب دورا هاما في رسم سياسات الولايات المتحدة، وتحديد أولوياتها.. ومع ذلك، هناك من يقلل من تأثير شخصية الرئيس وأسماء فريقه والمقربين منه، على اعتبار أن أميركا دولة قانون ومؤسسات، والقرار فيها لا يتحكم به الرئيس (وهذا صحيح بشكل عام)، وإن البيت الأبيض حل فيه قبل «ترامب» رؤساء سابقون، كانوا أداة من أدوات الدولة العميقة، وإن الإستراتيجية المعتمدة أميركيًا واحدة لا تتغير، وإنما تتغير أساليب تطبيقها. ٥

وبالرغم من أن القضايا الداخلية مثل البطالة والتأمين الصحي والهجرة غير الشرعية، ستشكِّل محاور أساسية في أولويات الرئيس الأميركي الجديد، إلا أن السياسة الخارجية ستلعب دورًا هاماً. بعض المحللين، رأوا ان أمرين سيتصدران سلم أولويات سياسة «ترامب» الخارجية، هما: التجارة والأمن؛ في ما يتعلق بالتجارة، سيركز «ترامب» على الاتحاد الأوروبي، ودول مثل الصين والمكسيك واليابان، أما بالنسبة للأمن، فسيتوجه تركيزه إلى منطقة الشرق الأوسط. وقد حدد «ترامب»

التهديد الأمني الرئيسي الذي يواجه الولايات المتحدة بما أسماه «إرهاب الإسلام المتطرف»، وتعهد بالتحالف مع «العالم المتحضر» لمواجهته و»إزالته من على وجه الأرض»..٦

على الصعيد الخارجي، أمام الإدارة الأميركية الجديدة ملفات دولية مهمة، أبرزها موضوع الإرهاب، العلاقات مع روسيا، وإيران، والشرق الأوسط.. ومن المرجح أن تكون إدارة ترامب أقل تردداً من إدارة أوباما في التدخل المباشر واستخدام القوة الجوية الكبيرة الحجم وتجاهل الضحايا المدنيين، كما فعلت مثلا في قصف مطار «الشعيرات» السوري. وهذا يجعلها أقرب إلى النهج الروسي.

بالنسبة للعلاقة مع روسيا، يبدو أن «ترامب» رأى في روسيا شريكاً محتملاً، وكذلك فعل وزير الخارجية «ريكس تيلرسون»، ومثل «بوش» و»أوباما» اللذان بدءا رئاستهما بتفاؤل حول التعاون مع روسيا، وسرعان ما اصطدم تفاؤلهما بواقع تناقض المصالح، يبدو أن «ترامب» سيغير نظرته تجاه روسيا، سيما وأن فريقه للأمن القومي، من «فلين» إلى «ماتيس» إلى «مايك بومبيو» رئيس الاستخبارات المركزية، يعتبرون روسيا عدو أميركا الرئيسي في العالم على المدى الطويل.٧

ومع تزايد الاتهامات لروسيا بالتدخل في الانتخابات الأميركية، بدأت تطفو على السطح معالم أزمة بين البلدين، حيث لم تنتظر موسكو طويلا للرد على العقوبات التي فرضت عليها من قبل الكونغرس الأميركي مؤخرا، ضمن إطار الشبهات بتدخلها في نتائج الانتخابات الرئاسية الأميركية الأخيرة، فقد عاجل «بوتين» للإعلان عن طرد ٧٥٥ موظفا دبلوماسيا أميركيا كرد على العقوبات، مستبعدا أي تحسن قريب في العلاقات بين بلاده والولايات المتحدة. ٨

أما الموقف تجاه إيران فيمثل تناقضاً آخر في سياسة إدارة «ترامب»؛ فالرئيس وفريقه الأمني يرون أن إيران عدو يجب إضعافه وتحجيمه، لكنه عبّر مراراً انه غير معني بالتصادم مع إيران، وأنه يفضل العمل مع روسيا في سورية، ولمصلحة نظام الأسد في مواجهة معارضيه. ٩

أما بخصوص موضوع الإرهاب؛ فإن «ترامب» وفريقه يرون وجود علاقة بين الإرهاب والإسلام (خلافا لأوباما الذي كان واضحا في الفصل بينهما)؛ فقد قال في كلمته عند تنصيبه رئيساً إنه سيوحد العالم «المتحضر» ضد «الإرهاب الإسلامي المتطرف».

وفي مستهل عمله، زار «ترامب» وكالة الاستخبارات المركزية (سي آي أي)، وأخبرهم بأنهم سيكونون في طليعة الحرب على الإرهاب، وعيّن لقيادة فريقه للأمن القومي عسكريين متمرسين: الجنرال «مايكل فلين» مستشاراً للأمن القومي، الذي لديه خبرة طويلة في محاربة الجماعات الإرهابية من خلال عمله كضابط استخبارات، والجنرال «جيمس ماتيس» وزيراً للدفاع؛ وهو القائد العام السابق للقيادة المركزية، ولديه تجربة في محاربة حركة «طالبان» وتنظيم «القاعدة» في أفغانستان والعراق. ١٠

محددات السياسة الأميركية تجاه القضية الفلسطينية

منذ قيام إسرائيل عام ١٩٤٨، تبنتها أميركا بشكل كامل، وشكلت لها الحاضنة السياسية والاقتصادية الأهم والأقوى، ودعمتها في مجلس الأمن ضد كل محاولات إدانتها، وقدمت لها المساعدات الاقتصادية والعسكرية، بما يضمن تفوقها في المنطقة.. ولا نبالغ إذا قلنا أنه لولا الدعم الأميركي لما أمكن لإسرائيل أن تكون بما هي عليه الآن، بل وهناك شك في إمكانية بقائها بمعزل عن الدعم الأميركي.. وللدلالة على أهمية إسرائيل بالنسبة لأميركا، وقَّع «أوباما» قبل شهرين من انتهاء ولايته (أيلول ٢٠١٦)، اتفاقًا للمساعدات العسكرية لإسرائيل بقيمة ٣٨ مليار دولار للعشر سنوات القادمة، ارتفعت من خلاله قيمة المساعدات العسكرية الأميركية السنوية لإسرائيل من ٣,١ مليارات دولار إلى ٣,٨ مليارات دولار. ١١

وبعد نشوء منظمة التحرير الفلسطينية، أوساط ستينات القرن الماضي، وما نشأ عن ذلك من تغيرات عميقة في مجريات الصراع، وإعادة طرح القضية الفلسطينية من جديد، بقوة وبشكل مختلف.. ظلت السياسة الخارجية الأميركية تتميز بالانحياز التام لإسرائيل، وحتى نهاية الثمانينات لم تعترف بالحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني، ولم تعترف بمنظمة التحرير.

وبعد ذلك، بدأت السياسة الخارجية الأميركية تتغير تدريجيا، وببطء شديد، بدأت بالموافقة على فتح مفاوضات مباشرة مع المنظمة (جرت في تونس مع السفير الأميركي)، ثم في عهد كلينتون، رعت الإدارة الأميركية اتفاق أوسلو، وبعد ذلك تحدث «بوش» ولأول مرة عن حق الفلسطينيين في دولة، ثم جرى طرح حل الدولتين، والذي ظل عنوان توافق دولي، لكنه آخذ بالتآكل والتراجع.

وطوال العقود الماضية، اتسمت السياسة الأميركية بالاستقرار النسبي تجاه التفاعل مع ديناميكيات الصراع الفلسطيني-الإسرائيلي والأطروحات المختلفة تجاهها، وظلت تحكمها محددات عامة، تنطلق من ثلاثة محاور أساسية، وهي: الالتزام الأميركي بأمن إسرائيل وضمان تفوقها، واعتبار إسرائيل التجسيد الوحيد للديمقراطية في الشرق الأوسط، وتأثيرات اللوبي اليهودي في أميركا والمسيحيين الصهيونيين..

بمعنى آخر، فإن السياسة الخارجية الأميركية مهما تغيرت الإدارة في البيت الأبيض، سوف تظل خاضعة لعوامل ثلاث متداخلة، أولها حماية المصالح الإسرائيلية وضمان تفوقها في الإقليم، لأن إسرائيل أهم حارس لحماية المصالح الأميركية في المنطقة والعالم، وثانيها المحافظة على الاستراتيجية الأميركية التقليدية تجاه الصراع الفلسطيني-الإسرائيلي، مع إمكانية بروز سياسة أكثر سلبية وأكثر تحيزا، ستمكِّن إسرائيل من تحقيق تطلعاتها وأطماعها. أما ثالثا، فالأخذ بعين الاعتبار التطورات

الملتهبة في منطقة الشرق الأوسط، من جراء ثورات ما سمي بالربيع العربي، في محاولة للمحافظة على مصالح الولايات المتحدة الحيوية. ١٢

ويؤثِّر في بنية هذه الاستراتيجية وترتيب أولوياتها عاملان هامان. تشكِّل المؤسسات الأميركية الراسخة، والقيود القانونية والدستورية والمحددات السياسية، وتأثير المجموعات الضاغطة المختلفة، وخاصة اللوبي اليهودي، ومراكز الأبحاث، ووسائل الإعلام، والرأي العام الأميركي المؤيِّد في معظمه لوجهة النظر الإسرائيلية عاملًا مهمًّا في بلورة السياسة الخارجية الأميركية وتعريفها. أما العامل الثاني فيرتبط بالتحولات الدولية والإقليمية؛ حيث شكَّل الصراع الفلسطيني-الإسرائيلي، ومنذ توقيع اتفاق أوسلو، القضية الأولى ضمن أولويات الإدارات الأميركية المتعاقبة في الشرق الأوسط إلى أن فرضت التطورات الإقليمية أولويات أخرى نتيجة أحداث أيلول/سبتمبر عام ٢٠٠١، وما تلا ذلك من احتلال العراق عام ٢٠٠٣، وظهور تنظيم القاعدة، واضطراب منطقة الشرق الأوسط وتخلخل بنيتها السياسية والاجتماعية والدينية، مع بروز ما يُطلَق عليه الثورات العربية عام ٢٠١١ والتنظيمات الجهادية المتطرفة مثل داعش وغيرها. لذلك، فإن دور الإدارة الأميركية الجديدة سوف يكون محدَّدًا بالتطورات في الداخل الأميركي من جهة، وبتفاعل الأحداث في منطقة الشرق الأوسط من جهة ثانية. ١٣

وهذه المحددات، يصعب على أي رئيس أميركي أن يحيد عنها، وبالتالي فإن سياسة «ترامب» في محصلتها ستراوح بين ما عهدناه من السياسات الأميركية السابقة، مع تعاطف أكبر نسبياً مع إسرائيل.١٤

رؤية ترامب لحل الصراع

في مقابلاته وخطاباته، ركَّز ترامب على ضرورة تقديم كافة أشكال الدعم لضمان تفوق إسرائيل، وجاء في بيان حملته الانتخابية أنه سيستمر بتقديم المعونة الأميركية، وسيبذل قصارى جهده لتوسيع هذا الدعم وتعزيزه. مؤكِّداً أيضًا أن حلَّ الدولتين هو المرجَّح في المستقبل القريب، ولكنه لام الفلسطينيين وحدهم على فشل عملية السلام وحمَّلهم المسؤولية. واتهم السلطة الفلسطينية بأنها «شريكة في نشر الكراهية»، وشدد على أن إدارته «لن تدعم إقامة دولة إرهابية في الأراضي المحتلة». كما أنه تعهد باستخدام حق النقض ضد أي قرار معاد لإسرائيل في الأمم المتحدة، وأكد على وعده بنقل السفارة الأميركية في إسرائيل إلى مدينة القدس. وبقي البيان صامتًا تجاه الاستيطان الإسرائيلي في الضفة الغربية. ١٥

وبعد الانتخابات مباشرة، صرَّح «جيسون جرينبلات»، مستشار «ترامب»، بأن الأخير لا يعتبر المستوطنات الإسرائيلية عائقًا أمام السلام، وأنه لا يُدين بناء المستوطنات، هذا الموقف، تجاوز المواقف التقليدية للإدارة الأميركية باعتبار الاستيطان عقبة أمام تحقيق السلام. ١٦

وعلى ضوء ذلك، رجح محللون بأن إدارة «ترامب» ستكون أقل ميْلًا لانتقاد التوسع الاستيطاني، مقارنة مع إدارة أوباما التي انتقدته مرارًا، ولكن دون أن تتخذ أية خطوات جدية لوقفه. وأن اليمين الإسرائيلي سيتقوى أكثر، وسيعزز محاولاته لضمِّ أجزاء من الضفة الغربية، دون خوف من أية معارضة حقيقية من الإدارة الأميركية الجديدة، وأن اليمين الإسرائيلي سيكون طليق اليدين إلى حد كبير في تنفيذ سياساته، وأكثر جرأة في مواصلة اعتداءاته تجاه الفلسطينيين. ١٧

حل الدولتين حسب رؤية ترامب

بصورة عامة، لن يحظى الصراع الفلسطيني-الإسرائيلي بموقع متقدم على جدول أعمال الإدارة الأميركية الجديدة، نظرا لانشغالها (ومعها بقية العالم) بقضايا باتت تعتبرها أكثر سخونة وأهمية، وعلى رأسها الإرهاب. ومع ذلك، سوف توليها بعض الاهتمام، ولكن لصالح إسرائيل. ومثل هذا النهج الانعزالي لن يُحدث قطيعة كاملة مع نهج الرئيس السابق أوباما، والذي لم يحتل الصراع الفلسطيني-الإسرائيلي أولوية قصوى لديه، وخاصة خلال السنتين الأخيرتين من حكمه. فقد فقدت الإدارة الأميركية بالفعل الاهتمام بعملية السلام بعد فشل «جون كيري» في إطلاق مفاوضات مباشرة بين الفلسطينيين والإسرائيليين عام ٢٠١٤. ١٨

ومع ذلك، يمكن القول: إن الخطوط الرئيسة لرؤية «ترامب» لحل الصراع تؤيد حل الدولتين كفكرة عامة، وأن الطريق الأوحد لإنهاء الصراع يتمثل في المفاوضات الثنائية ما بين الفلسطينيين والإسرائيليين، وأن يقتصر الدور الأميركي على تسهيل هذه المفاوضات. ولا يعتبر «ترامب» حل الدولتين شرطا لتحقيق السلام، وقد صرح بأنه سيدعم أي حل يتفق عليه الطرفان، ولم يشترط حل الدولتين.. لذلك، سيعارض أية خطوات فلسطينية يمكن أن تكون، من منظوره، خطوات أحادية الجانب، مثل التوجه للمؤسسات الدولية وعلى رأسها الأمم المتحدة للاعتراف بدولة فلسطينية. وسيعرقل مثل هذه التحركات، وسيستخدم «الفيتو» ضد أي حلٍّ يتبناه مجلس الأمن الدولي. ١٩

سيناريوهات محتملة لسياسة ترامب

ربما تكون المعالم العامة لسياسة «ترامب» قد توضحت إلى حد ما، بعد مرور أكثر من نصف عام على تنصيبه، وعليه، من المرجح بروز أحد ثلاثة سيناريوهات حيال تدخل الإدارة الأميركية في الصراع الفلسطيني-الإسرائيلي: ٢٠

أولًا: تعزيز الاستراتيجية الأميركية التقليدية، دون أن تطرأ عليها تغيرات جذرية خلال الفترة القادمة، خشيةً من أن يؤدي أي تغير جذري إلى زيادة التوترات والاضطرابات في المنطقة، لذلك، على الأغلب ستحافظ إدارة ترامب على الثوابت الأميركية التي ميَّزت سياسات الإدارات الأميركية المتعاقبة خلال العقود الماضية، والتي عملت على ضمان تفوق إسرائيل، وتوفير شبكة أمان لها في المحافل الدولية. ثانيًا: الانعزال السلبي لصالح اليمين الإسرائيلي، وزيادة الضغط على الفلسطينيين، بما يؤدي إلى تسهيل التوسع الاستيطاني، وتسريع تهويد القدس، وإبقاء الحصار على قطاع غزة، وترسيخ واقع جديد في الضفة الغربية يضمن السيادة الإسرائيلية. وضمن هذا السيناريو، سيكون من المستبعد أن تسمح الإدارة الأميركية الجديدة، كسابقاتها، لأي فاعلين دوليين آخرين بأن يكسروا هذه القاعدة. وبالتالي، فإن هذا الخيار سيعني أن الفلسطينيين سيُتركون لمواجهة مصيرهم في ظل ميزان دولي مختل بالكامل لصالح إسرائيل.

ثالثًا: تطوير مصالح غير متوقعة في عملية السلام، أو تخلي ترامب، بعد مرحلة تجارب مريرة، عن منطقة الشرق الأوسط، وتراجعه وراء جدران القلعة الأميركية. ويعزز احتمالات هذا السيناريو في المدى المتوسط وجود نزعة انعزالية قوية في تفكير ترامب، وكذلك في مزاج أتباعه، وإذا تراجع بهذا الشكل فقد ينسحب من الشرق الأوسط في شكل أوسع مما فعله أوباما، ويترك المنطقة آنذاك مفتوحة للصراع بين القوى الإقليمية وروسيا والجماعات الإرهابية المختلفة. ٢١ علاوة على ذلك، يمكن أن تسهم العزلة الأميركية في تشجيع الصعود الروسي كقوة كبرى في المنطقة؛ لذلك حافظت إسرائيل على تنسيق جيد مع الروس حول قضايا الأمن في الشرق الأوسط، وخاصة الحدود السورية-الإسرائيلية، وتعكس الزيارات التي قام بها نتنياهو إلى روسيا، وميدفيديف إلى القدس ورام الله، الاهتمام الروسي المتزايد بالانخراط في أزمات المنطقة.

وفي هذا السياق، من المؤكد أن تستغل إسرائيل التحركات الأميركية في منطقة الشرق، الهادفة إلى محاربة ما يطلق عليه «الإرهاب الإسلامي»، للزجِّ بالفلسطينيين في هذه الأزمات، ومحاولة تصويرهم على أنهم جزء من الإرهاب الإسلامي، وسبب التوترات وعدم الاستقرار في المنطقة. وعلى أغلب تقدير، فإن المواقف الإسرائيلية سوف تتواءم مع الملفات الحساسة في المنطقة، وخاصة

البرنامج النووي الإيراني، وتنامي قوة حزب الله، وطبيعة التشكل السياسي في سوريا، والدور الإقليمي لتركيا.٢٢

ويبدو أن كافة السيناريوهات المحتملة لحدود التدخل الأميركي في مرحلة ترامب لا تبشِّر، ولا تدعو للتفاؤل في إقامة دولة مستقلة كاملة السيادة في المستقبل القريب. لذلك، سيكون رهان القيادة الفلسطينية على المسار الفلسطيني (وبشكل جدي) ضمن المؤسسات الدولية وخاصة الجمعية العامة للأمم المتحدة ومحكمة الجنايات الدولية. وفي هذا السياق، سيكون على الفلسطينيين التوقف عن المراهنة على الإدارة الأميركية المنفردة لعملية السلام، واللجوء عوضًا عن ذلك إلى مصادر القوة الفلسطينية الداخلية المتمثلة في إعادة توحيد الجهود الفلسطينية وإنهاء الانقسام الداخلي. ٢٣

حل القضية الفلسطينية في إطار حل إقليمي للمنطقة

تزايدت الأطروحات المتعلقة بالتخلص من التسوية الفلسطينية ومن استحقاقاتها، للتحول نحو إقامة نوع من السلام الإقليمي بين إسرائيل وبعض الدول العربية يستوعب الحل الفلسطيني أو يدعمه، وفي نفس الوقت يشتمل على خلق مناخ سياسي إقليمي مُوّاتٍ لعلاقات عربية / إسرائيلية، مع إيجاد مؤسسات إقليمية وعلاقات تعاون اقتصادي. ومثل هذا الطرح تم بحثه من قبل، بحسب تسريبات لصحيفة «هآرتس»، في القمة التي عقدت بين نتنياهو وكل من الرئيس المصري عبد الفتاح السيسي والملك الأردني عبد الله الثاني في العقبة (شباط ٢٠١٦). ٢٤

وخطورة هذا الطرح أن إسرائيل لم تعد مبالية بعملية السلام، وليست مجبرة على إيجاد حل للقضية الفسطينية، وترى أنه بوسعها التكيف مع الظروف الحالية، بل وتجييرها لصالحها، لا سيما بعد انحسار المقاومة بكل أشكالها، ومع غياب تهديدات الضغط الدولي، وتصدع الجبهة الشرقية بتفكّك الجيشين السوري والعراقي، وحالة الضعف والانهيار العربي، وتزايد المخاطر الناجمة عن صعود النفوذين التركي والإيراني وتمددهما على حساب المصالح العربية، طبعا إلى جانب المشروع الإسرائيلي/ الأميركي الرامي إلى بسط الهيمنة على المنطقة العربية وتجزئتها، وإعادة رسم خارطتها السياسية.

وقد كشفت صحيفة «جيروزاليم بوست» (حزيران/يونيو ٢٠١٧) تفاصيل ما يُعرف بـ«مبادرة السلام الإسرائيلية»، التي سبق أن بدأت ملامحها تظهر في تصريحات لأعضاء الحكومة الإسرائيلية، إذ أوضحت أن هذه المبادرة «ترمي إلى تحقيق حل شامل ومتعدد الأطراف للنزاع العربي/الإسرائيلي، بدلاً من حل ثنائي للنزاع الفلسطيني/الإسرائيلي»، وأن هذه الخطة ستطرح على إدارة «ترامب».

وحسب الباحث «ماجد كيالي»؛ تتأسس أطروحات التسوية الإقليمية على ركيزتين أساسيتين: أولاهما، التحول من التسوية مع الفلسطينيين إلى التسوية مع بعض الدول العربية، وإقامة علاقات طبيعية بينها وبين إسرائيل، والثانية حل المسألة الفلسطينية في الإطار العربي -لا سيما غزة مع مصر، والضفة مع الأردن- في إطار كونفدرالي مثلاً، أو بإقامة دولة في غزة، وترك الضفة مع الأردن و/أو إسرائيل في إطار كونفدرالي. ٢٥

ما يعني أنه بدلاً من البدء في الحل مع الفلسطينيين؛ ستجري التسوية بداية في الإطار العربي، أي تطبيع العلاقات العربية الإسرائيلية قبل حل القضية الفلسطينية، وهو ما يعني تهميش البعد الفلسطيني، وأن الفلسطينيين لم يعودوا مقررين في شأن التسوية أو الصراع مع إسرائيل، خاصة بعد تبلور فكرة التسوية القائمة على المصالح الأمنية والاقتصادية التي يفترض أنها باتت تجمع إسرائيل بالدول العربية.٢٦

وعموما، هذه الأطروحات ليست جديدة؛ فقد بدأت المفاوضات متعددة الأطراف في إطار مؤتمر مدريد (١٩٩٢)، وفي حقبة التسعينات ظهر مشروع «الشرق الأوسط الجديد»، الذي تحدث عن مصالح مشتركة سياسية وأمنية واقتصادية، توجب نوعاً من السلام والتعاون بين دول المنطقة وضمنها إسرائيل..

ورغم أن هذه الأطروحات تصب مباشرة لصالح إسرائيل، إلا أنها ضربتها عرض الحائط، وأصرت عوضا عن ذلك على تكريس واقع الاحتلال ورفض أي انسحاب من الضفة الغربية، والتمسك بالقدس عاصمة موحدة، وبتعزيز الاستيطان، خاصة أنها لم تجد في الوضع الفلسطيني أو العربي أو الدولي ما يضغط عليها لإجبارها على الانسحاب. ٢٧

خلاصة

لن يتغير وضع القضية الفلسطينية كثيرا في عهد ترامب، بل إنه سيواصل انحيازه لصالح إسرائيل، وبشكل أكبر.. والحديث عن صفقة القرن، وعن حل شامل، ما زال غامضا، وما هو مطروح تسوية إقليمية ذات بعد اقتصادي وسياسي وأمني، هدفها التطبيع، ستقوي من وضع كيان السلطة الفلسطينية، وتحسّن من الأوضاع الاقتصادية للمناطق الفلسطينية، لكن دون دولة مستقلة.. وهذا يضع الفلسطينيين بين خيارين، إما القبول بما هو مطروح، أو بقاء الحال على ما هو عليه؛ وفي الحالتين فإن إسرائيل هي الرابحة، إلى حين تحسن موازين القوى نسبيا، بتغيير المعادلات دولياً وإقليمياً وعربياً.

الهوامش

١. البيت الأبيض: ترامب غير مؤهل لرئاسة الولايات المتحدة، روسيا اليوم، ٨-١٢-٢٠١٥،

https://arabic.rt.com/news/803191

٢. هاني المصري، زلزال ترامب والقضية الفلسطينية، جريدة الأيام، ١٥-١١-٢٠١٦.

٣. المصدر، هل ينقل ترامب سفارة بلاده إلى القدس؟، ٩ تشرين الثاني /نوفمبر ٢٠١٦:

http://www.al-masdar.net

٤. مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، مسارات القضية الفلسطينية في برامج مرشحي الانتخابات الأميركية، تموز/ يوليو ٢٠١٦.

٥. هاني المصري، مصدر سابق.

٦. بول سالم، ٣ سيناريوهات لسياسة ترامب تجاه الشرق الأوسط، ٩-٢-٢٠١٧، العربية نت.

https://www.alarabiya.net/ar/politics/20173/09/02/

٧. المصدر نفسه.

٨. طرد دبلوماسيين أميركان، وكالة يورو نيوز، ٣١-٧-٢٠١٧.

http://arabic.euronews.com/201731/07//cuts-on-us-diplomatic-staff-in-moscow-will-affect-visa

٩. بول سالم، ٣ سيناريوهات مصدر سابق.

١٠. المصدر نفسه.

١١. قناة الجزيرة، أميركا وإسرائيل توقّعان اتفاق مساعدات غير مسبوقة، ١٤ أيلول/سبتمبر ٢٠١٦.

١٢ ليهي بن شطريت، محمود جرابعة، الصراع الفلسطيني الإسرائيلي في منظور ترامب، الجزيرة نت، ١-١٢-٢٠١٦.

١٣. المصدر نفسه.

١٤. سياسة ترامب قد تحمل مفاجآت تجاه الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، وكالة فلسطين اليوم الإخبارية، ٢٥-٦-٢٠١٧. https://paltoday.ps/ar/post/290307

١٥. ليهي بن شطريت، محمود جرابعة، مصدر سابق.

١٦. وكالة معًا الإخبارية، مستشار ترامب: الرئيس لا يعتبر المستوطنات عائقًا أمام السلام، ١٠ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١٦: https://maannews.net/Content.aspx?id=875875

١٧. ليهي بن شطريت، محمود جرابعة، مصدر سابق.

١٨. ليهي بن شطريت، محمود جرابعة، المصدر نفسه.

١٩. مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، مصدر سابق.

٢٠. ليهي بن شطريت، محمود جرابعة، مصدر سابق.

٢١. بول سالم، مصدر سابق.

٢٢. ليهي بن شطريت، مصدر سابق.

٢٣. ليهي بن شطريت، المصدر نفسه.

٢٤. ماجد كيالي، من التسوية الفلسطينية إلى التسوية الإقليمية، الجزيرة نت

http://www.aljazeera.net/knowledgegate/opinions/201710/7/

٢٥. ماجد كيالي، مصدر سابق .

٢٦. ماجد كيالي، المصدر نفسه.

٢٧. ماجد كيالي، المصدر نفسه.

رحلة الحرب من أجل السلام

أربعة عقود على زيارة السادات للقدس ...

أربعون عاماً من الرقص على الإيقاع الأميركي

شذى يحيى*

"جئت إليكم اليوم على قدمين ثابتتين، لكي نبني حياة جديدة، لكي نقيم السلام وكلنا على هذه الأرض أرض الله كلنا، مسلمين ومسيحين ويهود نعبد الله ولا نشرك به أحدا، وتعاليم الله ووصاياه هي حب وصدق وطهارة وسلام «.

أربعون عاماً مرت على يوم التاسع عشر من نوفمبر١٩٧٧م الذي وقف فيه رئيس أكبر دولة عربية القائد المنتصر في معركة حاسمة كانت واحدة من أهم محطات حرب ضروس استمرت منذ العام١٩٤٨م وحتى تلك اللحظة الرهيبة من التاريخ لحظة وقف فيها المنتصر أمام برلمان المهزومين يطلب السلام ويفتح باباً من التنازلات والمعاهدات والاتفاقيات بمحطات تلو محطات حتى جاء اليوم الذي أصبح فيه التطبيع علنياً ومكاتب الرعاية للمصالح الاسرائيلية في العواصم العربية أمراً واقعاً، وليتحول القرار٢٤٢ الذي صيغ في ٢٢نوفمبر ١٩٦٧م وينص على انسحاب اسرائيل لحدود ما قبل يونيو منتهى آمال العرب ولتجادلهم فيه اسرائيل لأنه لا ينص على الانسحاب من جميع الأراضي المحتلة بل على الانسحاب من أراض محتلة، وليصدر القرار٣٣٨ الخاص بوقف اطلاق النار في أكتوبر ١٩٧٣م ليحض على مجرد تطبيق٢٤٢، ومازلنا نعيش الاتفاق الذي ابرم في كامب ديفيد في اطارين :

الأول تحت مسمى «إطار السلام في الشرق الأوسط « لتحقيق السلام بين اسرائيل والعرب بمجموعة من المعاهدات في إطار٢٤٢ وإنشاء سلطة حكم ذاتي في الضفة الغربية وقطاع غزة وبداية مباحثات الوضع النهائي للفلسطينين.

---

* باحثة وأكاديمية من مصر

والثاني هو اتفاق كامب ديفيد للسلام بين مصر واسرائيل والذي وضعت لمساته النهائية في ٢٦مارس من العام١٩٧٩م وانسحبت اسرائيل بموجبه من سيناء، تلا ذلك مدريد١٩٩١ التي جاءت بمعاهدة السلام بين الأردن وإسرائيل عام١٩٩٤، فأوسلو ١٩٩٣م وهو الاتفاق الذي حقق الهدف الأساسي من المعاهدة التي وقعها السادات بإنشاء سلطة حكم ذاتي فلسطيني مؤقت أو قال والت روستو «يجب أن تفضي الحرب إلى تسوية شاملة قائمة على تفوق الإسرائيليين الشامل وليس على وقف لإطلاق النار لن يسوى شيئاً»، وبن جوريون سنة١٩٦٨م «إذا كان لابد من الاختيار بين الصلح والحدود التي تم الحصول عليها بفضل انتصارنا في حرب الأيام الستة فإنني أفضل الصلح، لكنني لا اتحدث عن مجرد وثيقة موقعة فالعرب لا يحترمون الوثائق، انني أتحدث عن صلح فعلي أتحدث عن تعاون بين اسرائيل والعرب، تعاون اقتصادي، سياسي، ثقافي وفي مقابل صلح كهذا فإنني مستعد للتنازل عن كل الأراضي التي تم فتحها في العام الماضي»، "من شأن الإمكانية الحقيقية الوحيدة للصلح أن تأتي من تفاهم بين روسيا وأميركا ففي هذا العالم ليس هناك سواهما من يقدر على إيجاد سلام حقيقي ومن شأن الدولتين العظميين أن تكونا قادرتين على إلزام العرب بعقد صلح ولابد من تذييل هذا الصلح بمصادقتهما عليه لابد من ضمانة ، لكن الحديث عن إسرائيل كبرى كتلك التي وصفتها قبل نحو خمسين سنة هو حديث لا معنى له في غياب جماعة سكانية يهودية تستوطن جزئياً هذه المنطقة»، أما ريمون أروين فقد قال في ٢٩أغسطس١٩٦٧م "إن الإسرائيليين يعرفون دائماً ما يجب عليهم قوله، وهم يعرفون أحياناً ما يتمنون الحصول عليه، فهل من الجائز أيضاً أنهم لا يعرفون دائماً ما يتمنونه في عمق أنفسهم».

إسرائيل دائماً ما كانت ترى أن أراضيها هي مجمل فلسطين تحت الإنتداب ولم يكن لديها الرغبة في السكان العرب في المناطق التي تتحدث عنها لذلك كان التفكير دائماً في استيعاد السياسات الاستعمارية متمثلة في حكم ذاتي فلسطيني في الجيوب ذات الأغلبية العربية تحت الحماية الاسرائيلية هذه الرؤية كانت واضحة جداً منذ وضعت اسرائيل يدها على الأرض في العام ١٩٦٧م، فقد كانت رؤية موشيه ديان تنص على الحدود الآمنة وهي الواقع على الأرض وتشتمل هذه الرؤية على أمرين الأول المرابطة الدائمة للقوات الإسرائيلية في الضفة الغربية والثاني هي الحدود السياسية التي تشمل إما حكماً ذاتياً فلسطينياً أو إستعادة السلطة الأردنية، كانت خطة ديان قائمة على إعادة إحياء وتطوير كل المخططات والأساليب الاستعمارية القديمة، وتبلورت هذه الخطة في تصور قدمه موشيه ألون للحكومة الاسرائيلية سمي فيما بعد بخطة ألون الحدود يجب أن تكون على نهر الأردن ويجب على إسرائيل ضم المناطق ضعيفة الكثافة السكانية العربية مع القيام في داخل المجال بترك عدد من الجيوب ذات الحكم الذاتي التي يمكن عند الاقتضاء ربطها بالأردن ورغم معارضة

الخطة من قبل من يريدون ضم الضفة بالكامل بوصفها أرض إسرائيلية ومن يؤيدون السيطرة الشاملة على الأرض لكن دون استيطان كديان فإن خطة ألون ظلت هي الأساس الذي قامت عليه السياسة الإسرائيلية تجاه الضفة وغزة حتى يومنا هذا، ديان في مقابلة صحافية نشرت في مستهل أكتوبر١٩٦٧م يعرف الحدود الجديدة بأنها مثالية دون أن تكون واقعية «اذا عبرنا قناة السويس نكون على مشارف القاهرة، واذا عبرنا نهر الأردن فإننا نكون في عمان، واذا اجتزنا القنيطرة فهذا يعني اننا في دمشق، وإذا ما نشبت حرب جديدة سيكون بوسع الجيش الإسرائيلي احتلال عاصمة عربية ليفرض تسوية، وللحفاظ على الطابع اليهودي للدولة ليس بالإمكان ضم الأراضي».

كانت الحسابات الاسرائيلية صحيحة نظرياً لكنها لم تأخذ بالاعتبار أن إغلاق قناة السويس معناه ضرورة مرور ناقلات البترول عن طريق رأس الرجاء الصالح ونشوء فجوة في سعر البترول ما بين منتجيه في الخليج والآخرين خارج منطقة الخليج بالاضافة للحاجة لبناء ناقلات نفط عملاقة وعدم مواكبة الانتاج البترولي لاحتياجات النمو الاقتصادي في الدول الصناعية كذلك صعوبة نقل سلعها لمناطق الاستهلاك بالاضافة لأن الدول الخليجية التزمت لدول المواجهة بتعويضها عن خسائرها المادية وفقاً لمقررات اتفاقية الخرطوم جراء الاحتلال الاسرائيلي لمناطق ايراداتها الحيوية كقناة السويس وأبار البترول في سيناء مما سيدفعها هي الأخرى للتصلب في رفع سعر البترول وكما قال دبلوماسي فرنسي «إن الكويت والسعودية تنويان جعل الشركات البترولية الأميركية تدفع مبلغ القروض التي ستقدمانها لمصر والأردن وفي النهاية تتحمل الولايات المتحدة تكاليف العملية بالكامل بالإضافة لتحملها لجزء كبير من نفقات إسرائيل، والملاحظ هنا أن الملكيات العربية اكتسبت قوة على العقل وإن كانت مرغمة تحت ضغط الرأي العام في بلادها على مساندة الدول المعتدى عليها فإنها ايضاً اكتسبت قوة فاعلة بمساهماتها المالية لأنه بمقتضى ما دفعته سيصبح رأيها مأخوذاً بالاعتبار في أي تسوية سياسة مقبلة وهو أمر رحبت به الدول الغربية لعلاقة الحبل السري التي تربطها مع هذه الدول وهذا ما أثبتته الرسالة التي أرسلها الملك فيصل للرئيس الأميركي جونسون في أعقاب مؤتمر الخرطوم، الذي وصف فيه الصلح بالمصالحة وعرف المواقف العربية بأنها بناءة وأن الرهان الحقيقي هو حالة العلاقات بين الغرب والعالم العربي وإذا لم يتم التوصل بسرعة إلى حل مقبول بالنسبة للعرب فسوف يكون شعورهم بالمرارة من الجسامة بحيث أن أصدقاء أميركا لن يعودوا قادرين على الفعل وهذا ليس من شأنه أن يعود بالفائدة إلا على الطرف الآخر «القوميين»، وكانت اسرائيل على الطرف الآخر تزيد من تعنتها بحجة غياب الاعتراف والرغبة في الصلح عن مقررات مؤتمر الخرطوم، فيقول ليفي أشكول «إن موقف قادة الدول العربية يعزز قرار الحكومة الاسرائيلية برفض عودة ظروف من شأنها تمكين من يسعون إلى القضاء على اسرائيل من إضعاف

أمنها ووحدتها وتهديد وجودها»، ثم أعقب ذلك في سبتمبر «بما أن العرب لا يريدون السلم فليس أمام إسرائيل من حل آخر سوى أن تضع الحدود الطبيعية نصب عينيها وما من حدود هنا أكثر طبيعية من قناة السويس»، وفي ٢٢سبتمبر يقول آبا ايبان «إن بلاده سوف ترفض اي حل مفروض من الخارج وأن التسوية ستتم عبر مفاوضات مباشرة أما فيما يتعلق بالحدود فسوف يتم تحديدها باتفاق مشترك» (أي من قبل إسرائيل) إذا أرادت إسرائيل فرض الأمر الواقع على الأرض ودون أي تنازلات وهو ما لم يوافق عليه الغربيون منذ البداية، ففي وقت مبكر جدً ومنذ مايو١٩٦٧م رأى الرئيس جونسون أنه من الخطورة بمكان نشوب أي نزاع عسكري أو تطور النزاع العسكري القائم فعلاً في الشرق الأوسط وأنه لا يمكن أن يتم حل هذا النزاع إلا بالمفاوضات والطرق السلمية ووافقته فرنسا على هذا الرأي وكانت أكثر صراحة في هذا من خلال مواقف وتصريحات ديجول الذي أوضح « أن فرنسا لا تعتبر أياً من التغيرات المتحققة في الساحة عن طريق العمل العسكري مكسباً "، وبومبيدو الذي قال أنه «من الواضح أن هذه المشكلات لا يمكنها أن تجد حلاً مرضياً عبر الطريق العسكري، وفرنسا لا يمكنها الاعتراف بالأمر الواقع المتمثل في الفتح بالسلاح، ويجب للانسحاب أن تتم تسوية كل مشكلات المنطقة مع التأكيد على حق جميع الدول بالعيش في سلام وتسوية مسألة اللاجئين وحرية الحركة في طرق الملاحة الدولية» ولكن هذه التصريحات لم تمنع الفرنسيين والأميركيين من الالتفاف على خطر تصدير السلاح لدول النزاع الذي كانوا قد أعلنوه علانية وكسروه سراً.

إذاً فإن الغربيين كانوا مدركين وجوب الحل السريع لمشكلة تثقل كاهل الاقتصاديات الغربية وتفوق التقدم الصناعي، لكنهم كانوا مدركين أيضاً أن الوقت مازال مبكراً جداً للحل وأنه من الصعب بل من المستحيل أن تقوم التسوية على فكرة التفوق الساحق للإسرائيليين وتمكنهم من كل أوراق اللعبة كما يريدون هم وكما رأى بعض مستشاري جونسون مثل والت روستو وجهة نظر عبر عنها كوف دومورفيل في٧نوفمبر ١٩٦٧م أمام الجمعية العامة فقال «إن المشاعر مازالت شديدة الاحتدام والأحقاد، ولم لا نعترف بأنها عصية جدا على التسكين كما يبدو بحيث أنه من شأن أي مواجهة مباشرة أن تكون أبعد مما يمكننا تخيله، وعليه فسوف يكون الصلح سيرورة جد طويلة، ووحده جهد من الخارج مدعوم من الرأي العام الدولي يمكنه تدشين التطور الضروري والسماح له بالنمو نمواً إيجابياً».

ثم جاء فوز نيكسون بالانتخابات الأميركية لتزداد صعوبة التعامل مع الجانب الاسرائيلي وتعنته، فالادارة كانت ترى أن واجب السياسة الأميركية في الشرق الأوسط ذو طابع جيوسياسي بالدرجة الأولى يتمثل في مواجهة توسع نفوذ الاتحاد السوفييتي في المنطقة وقطع الطرق على السوفييت في

أن يكونوا المتحدثين الرسميين بشأن العرب، فقد كان نيكسون مقتنعاً برؤية مساعده كيسنجر من أنه ليس على أميركا أن ترسم حدوداً لإسرائيل لكنه أيضاً كان متأثراً برأي صديقه ديجول الذي كان يرى أن « الواقع أن إسرائيل تصبح إمبريالية بشكل متزايد باطراد وديان يجازف بأن يكون سيدها :إنه يريد الذهاب إلى النيل، إلى الفرات، يريد الذهاب إلى بيروت إلى دمشق وهو يستطيع ذلك لأنه يملك إمكانات ذلك والعرب مشتتون وتسليحهم أضعف وكل ما هناك أنه سيجد نفسه بين السكان العرب في مصر في العراق في سوريا وسوف تتكاثر الحوادث والاغتيالات ومعسكرات الاعتقال، أما خطوط وأنابيب البترول فسوف يجري نسفها وسوف تنهار الحكومات العربية في القاهرة وعمان وبيروت وسيأخذ مكانها غاضبون حانقون لا نعلم من الذي سيقودهم لكن من سيقودهم على أي حال لاهو أنتم ولا السوفييت».

ويرد نيكسون أنه لا يجب السعي إلى اتفاق بشأن الشرق الأوسط على غرار اتفاق يالطا وأن الاتحاد السوفييتي لا يجب أن ينظر إليه بوصفه الصديق الوحيد للعرب ففرنسا من الممكن أن تقوم بنفس الدور، وكانت رؤية نيكسون التي أكدها لديجول أن القرار الذي سيتخذه بشأن الشرق الأوسط لن يكون قائماً على اعتبارات السياسة الداخلية، وقد أزعج هذا التقارب الفرنسي الأميركي المسؤولين الاسرائيليين ودفعهم لتحمل الضربات الموجعة في القناة من قبل الفدائيين دون شكوى خوفاً من ضغط الدول العظمى عليهم للحصول على حل مفروض للنزاع»، واستمر التعنت الاسرائيلي الذي دفع بجولدا مائير للرد على تصريحات جمال عبد الناصر في مجلة تايمز بتاريخ ١٢مايو١٩٦٩م حول وجوب أن تشمل التسوية النهائية «الانسحاب من كل الأراضي المحتلة واتاحة الخيار للفلسطينين لكي يتمكنوا من العودة إلى ديارهم وعندها سيكون مستعداً للاعتراف بالواقع الجديد سواء كان اسمه إسرائيل أو أي كان" كذلك في الصنداي تايمز أدلت بتصريح في يونيو١٩٦٩م قالت فيه "متى كان هناك شعب فلسطيني مستقل له دولة فلسطينية؟!!! لقد كانت هناك سوريا الجنوبية قبل الحرب العالمية الأولى ثم كانت هناك فلسطين التي تستوعب الأردن، ليس الأمر وكأن هناك شعباً فلسطينياً في فلسطين ليعتبر نفسه شعباً فلسطينياً وكأننا طردناه بعد مجيئنا ومن ثم استولينا على بلده، إنهم لم يكونوا موجودين أصلاً».

وبحدوث انقلاب القذافي في ليبيا في سبتمبر١٩٦٩م يزداد الموقف الأميركي صعوبة وهوالذي كان صعباً أصلاً بوجود حرب الاستنزاف والتقدم الذي يحرزه الفدائيون في لبنان والأردن وتفسر السياسة الإسرائيلية هذا الضعف على أنه لمصلحتها كون السوفييت يسعون لطرد الغربيين من المنطقة مما يدفع جوزيف سيسكو كبير مفاوضي الخارجية الأميركية في الشرق الأوسط للاعلان صراحة للإسرائيليين بأن الولايات المتحدة لديها مصالح أخرى في المنطقة غير إسرائيل ويرد عليه

رابين سفير إسرائيل في واشنطن بأنه يجب أن تقوم إسرائيل بالعمل القذر وتوجيه ضربة قاضية لمصر الناصرية مما سيضع حداً للتشدد العربي والتغلغل السوفييتي، دفع هذا الفهم الخاطئ السفير الاسرائيلي في واشنطن إلى إبلاغ حكومته بأن الولايات المتحدة مهتمة بمواصلة التصعيد السياسي والقضاء أيضاً على الجيش المصري، فيستمع الإسرائيليون لسفيرهم ويتجاهلون تصريحات وزير الخارجية روجرز من أن الدول العربية ليست عدوة للولايات المتحدة التي لا تحتاج إلى ترضيتها»، رغم ذلك وبسكرة الثقة في داخل حكومة الصقور الاسرائيلية المؤمنة برأي عزرا فايتسمان ان التفوق الجوي الإسرائيلي كفيل بمواجهة جميع النزاعات المسلحة، وبالثقة في تصريحات السفير رابين بأنه أخذ تعهدات حازمة من محاوريه الأميركان في دعم الموقف الإسرائيلي ظلت السياسة الاسرائيلية متمسكه بأنه لا عودة عن خطوط المواجهة ولذلك فشلت كل محاولات سيسكو الذي زار إسرائيل في أبريل١٩٧٠م في إقناع المسؤولين في إبداء مجرد إشارة للانسحاب وقد كان أهم ما حدث في هذه الزيارة ولم يفلح الصهاينة في ترجمته أن سيسكو في ختام زيارته لمحطته الأخيرة طهران أشار لأول مرة لفلسطين بقوله «تدرك الولايات المتحدة تماماً أنه لا يمكن أن يتحقق في الشرق الأوسط سلام دائم مستقر وعادل إن لم يلبي هذا السلام المطالب المشروعة لجماعات سكانية كثيرة تتوقف حياتها على ما يسمى بالمشكلة الفلسطينية»، وعلى الرغم من ذلك استأنفت الولايات المتحدة في سرية تامة صفقات سلاحها مع إسرائيل مما أوصل الرسالة ملتبسة مرة أخرى للصهاينة وواصلت الحكومة الاسرائيلية تعنتها متمثلاً في مقابلة أجراها ديان مع محطة CBS تحدث فيها قائلاً «باستثناء سيناء التي يمكن وفق شروط معينة رد جزء منها ولكن ليس شرم الشيخ إلى المصريين فإن الجولان والضفة الغربية وغزة ستظل بتمامها تحت سيطرة قوات إسرائيل المسلحة وبوجه أخص فإن خط نهر الأردن سوف يتعين الحفاظ عليه عسكرياً بصفة مستديمة «، وهي وجهة النظر التي لم تتغير حتى بعد وفاة عبد الناصر وتولي السادات الحكم في مصر بل ازدادت حدة بعد إقناع جماعات الضغط الصهيونية القوية في واشنطن والمدعومة بمستشار نيكسون للأمن القومي هنري كيسنجر ولو لفترة أن دعم إسرائيل هو جزء من معركة أميركا مع السوفييت في الحرب الباردة بل إزدادت ثقة وعلى الأخص بعد إعلان السادات فور توليه السلطة وقفاً لإطلاق النار لثلاثة أشهر، ثقة تجلت في تصريح ديان في نوفمبر١٩٧٠م بأنه «إذا حاولت قوات الجمهورية العربية المتحدة عبور القناة فإن إسرائيل ستطلق ضدها قواتها المدرعة» ... "سيتعين إذلال الجيش المصري إذا ما استأنف القتال".

ولكن الحكومة الاسرائيلية أيضاً قدمت تنازلاً بقبول القرار٢٤٢ خوفاً من تعديله وإن كانت طالبت بتفسير، وسيلي هذا التمديد تمديد آخر لوقف إطلاق النار لستة أشهر أخرى وإعادة فتح القناة إذا

انسحبت اسرائيل من على الضفة الغربية وتركت الجيش المصري يرسخ أقدامه عليها بل ويبدي قبولاً ضمنياً بخوض مباحثات سلام حال انسحاب الإسرائيليين من الأراضي المحتلة وتنفيذ قرارات مجلس الأمن وهو مارد عليه أبا إيبان بأن ٢٤٢ لا ينص على الانسحاب من جميع الأراضي ويتبعه دايان أنه يفضل شرم الشيخ دون صلح على صلح دون شرم الشيخ».

وهنا كانت وصية الولايات المتحدة لمبعوث الأمم المتحدة السيد يارنج بفصل الشأن المصري عن الشأن الأردني فهم يرون أن الشأن الأول أقل صعوبة على التسوية ناهيك على أنه ينطوي على مخاطر كبرى بالنسبة لاستقرار المنطقة أما الشأن الثاني فهم يرون بالمقابل أنه ينطوي على رد الأراضي المحتلة ومن ثم ينطوي على صدمة عاطفية جسيمة بالنسبة للصهاينة» وبانقضاء المرحلة الأولى أي بوضع الخلاف المصري ـ الإسرائيلي على الطريق الصحيح سيكون بالامكان الاهتمام بالاردن وهذا هو المسار الذي تم بحذافيره وإن كان قد استغرق أعواماً طويلة كانت هذه التوصية في ٢٥فبراير ١٩٧١م ومعمولاً بها حتى يومنا هذا، كان هذا التحول في السياسة الأميركية قد بدأ مع زيادة استعار القتال في الجبهة عام١٩٧٠م ومواجهة القوتين العظميين لبعضهما حرفياً في المعركة فالإسرائيليون المسلحون بطائرات الفانتوم الأميركية بدأوا يضربون في العمق المصري مما يدفع السوفييت لتزويد المصريين بطيارين وطائرات ميج٢١ وصواريخ سام٢ وسام٣ التي نصبت على ضفة القناة فيما عرف بحائط الصواريخ مما أدى بحلول أغسطس ١٩٧٠م أن أصبحت خسائر سلاح الجو الاسرائيلي على الجبهة المصرية أكبر من قدرة الولايات المتحدة على تزويد اسرائيل بطائرات الفانتوم وعلى الأخص أن هذه الطائرات توجه أيضاً إلى معركة أميركا في فيتنام .

عامل آخر تسبب في تغيير السياسة الأميركية هو طرد السادات للخبراء السوفييت في مفاجأة غير متوقعة في أغسطس١٩٧٢م، وأعلن كيسنجر أنه لا يفهم لماذا يترك السادات ورقة رابحة في المفاوضات دون مقابل لكن الحقيقة انه لم يقطع علاقته تماماً بالسوفييت الذين ترك لهم تسهيلات الموانئ ومع ذلك فقد طمأن نيكسون ووزارة الخارجية الأميركية التي كان كل همها تحييد الشرق الأوسط كطرف في الحرب الباردة بل ودفع بهذا الأميركان للرغبة في دعم توجهه الجديد كما وضع ضغطاً على السوفييت لتزويده بالأسلحة وكان الإسرائيليون من العجرفة تجاه هذه الخطوة لدرجة أنهم لم يدركوا خطورتها واعتبروها انتصاراً لقدرتهم على الردع بعد المناورة الناجحة من السادات فيما يخص الخبراء الروس ونظراً لتغير الظروف في الإدارة الأميركية المضغوطة بفضيحة ووتر جيت والتي تسعى للخروج منها عبر أي إلهاء مثل تحقيق السلام في الشرق الأوسط استسلم السوفييت لحتمية النزاع المسلح ولفكرة الاعتراف بأن للعرب الحرية في تحرير أراضيهم عبر كل الوسائل وتم الافراج عن شحنات السلاح من قبل الاتحاد السوفييتي وأجرى الجيش تحضيراته كلها لازالة خط

بارليف والتدريبات على السلاح السوفييتي الجديد تحت سمع وبصر الإسرائيليين الذين استنتجوا من ذلك أن المصريين ليس لديهم نية فعلية للقتال، وفي الوقت ذاته كانت الدبلوماسية المصرية تستغل موقف نيكسون الذي أراد أن يبدو كنصير للسلام في الشرق الأوسط وتدخل في الحوارين الأول بين وزيري الشؤون الخارجية والثاني سري بين مستشاري الأمن القومي في محاولة لتقريب وجهات النظر المصرية والاسرائيلية لكن المعضلة الأكبر كانت أن الادارة الأميركية نفسها في هذه اللحظة لا تعرف ماذا تريد فالرئيس نيكسون يتحدث عن أمور مبهمة وشعارات تصلح للاستهلاك الدعائي أكثر منها كأساس للتفاوض ووزير الخارجية روجرز يتحدث عن حل مؤقت يمهد لجلوس الأطراف المعنية على طاولة المفاوضات أما مستشار الأمن القومي الذي يريد أن يبرز أنه المحرك الحقيقي للأحداث فهو يعبر عن وجهة نظر واضحة ألا وهي أنه لابد من ضمان امن إسرائيل لأنه الأهم بالنسبة للمصالح الاستراتيجية الأميركية، كما أنه يشترط إيقاف التعاون مع السوفييت والحد من نفوذهم في الشرق الأوسط لكي يصبح العرب بعد توفر هذين الأمرين معتدلين في المنظور الأميركي وفي هذه الحالة فقد يكون من الوارد أنه بوسع الولايات المتحدة ممارسة ضغوط على إسرائيل «أي تسوية تقوم على تفوق الاسرائيلين الساحق كما عبر روستو في العام ١٩٦٧م».

كانت نية كيسنجر عرض خطة على المصريين يتم بموجبها استعادة سيناء مع ترك النقاط الاستراتيجية وعلى رأسها شرم الشيخ ومعها البؤر الاستيطانية تحت سيطرة الإسرائيليين وهو حل على حد قول هنري لورنس يتألف في الواقع من إعادة إختراع الأشكال الكلاسيكية للإمبريالية الأوروبية في القرن التاسع عشر" وبالطبع رفض المفاوض المصري حافظ إسماعيل الحل فوراً وهو ما شكل صدمة لكيسنجر وعندما قدم حافظ إسماعيل للسادات تقريره بخصوص رؤية كيسنجر هذه اقتنعت الإدارة المصرية أنه لا مفر من الحرب، وعلى الأخص بعد إبلاغ جولده مائير للإدارة الأميركية استعدادها القبول للتفاوض على كل شيء إلا القدس والجولان وشرم الشيخ» وقد حصلت بعد هذا التصريح على شحنات جديدة من الأسلحة من بينها طائرات وبهذا ظهر جلياً أن الإدارة الأميركية تعزز الموقف الاسرائيلي مما زاد قناعة المصريين بأن خيار الحرب لم يعد مجرد خيار بل أصبح الواقع الوحيد.

قام المصريون بواحدة من أفضل عمليات الخداع في التاريخ السياسي والعسكري فكانت خطتهم ببساطة هي قول الحقيقة على مرأئ ومسمع من الجميع والبداية هي تشكيل وزارة حرب جمع فيها رئيس الجمهورية سلطة الرئاسة وسلطة رئاسة مجلس الوزراء في أواخر مارس ١٩٧٣م وإعلان هذه الوزارة في الخامس من أبريل عن أنها وزارة حرب بموافقة أعضائها بالإجماع على استئناف القتال وقد حدث هذا بعد اجتماع سري بين السادات والفريق الجمصي رئيس هيئة الأركان أبلغه

فيه الأخير أنه سيتم تحديد أفضل موعد لعبور القناة بعد مراعاة الظروف الطبيعية كالمد وقوة التيار وإضاءة القمر ودرجة الحرارة مع مراعاة توقيتات الأحداث السياسية «الانتخابات الاسرائيلية نهاية أكتوبر والأعياد الدينية يوم الغفران أقدس أيام السنة اليهودية» أي أن السادس من أكتوبر هو الموعد المناسب وعلى الأخص أنه سيوافق يوم العاشر من رمضان في السنة الهجرية وهو ذكرى انتصار غزوة بدر وهذا سيكون له وقع رائع على الجبهة الداخلية المصرية ومريع على الرأي العام الاسرائيلي، تلى ذلك إجراء السادات لحديث مع مجلة نيوز ويك الأميركية مطلع أبريل أكد فيه أن المصريين إختاروا الحرب وقال بالنص «بعد كل الاتصالات التي أجريناها، أصبح الموقف الآن واضحاً، لقد حانت ساعة المواجهة»، الغريب أنه بعد كل هذه التحركات المصرية الواضحة للعيان لم تظن المخابرات الأميركيةCIA وحدها أن السادات يناور بل اتفقت معها المخابرات السوفييتية رغم قرب السوفييت من مصادر صناعة القرار في مصر فقد فسر كلا الجهازين التصاريح والتحركات المفاجئة للسادات على أنها حذلقة متباهية جديدة بسبب وصول شحنات السلاح الروسي المتأخرة، ومحاولة سياسية لممارسة بعض الضغوطات على الجانبين الأميركي والإسرائيلي، الأغرب أن أحداً لم يعبأ بتكثيف الجيش المصري لمناوراته «أكثر من ٢٢مناورة في العامين ١٩٧٢ـ٧٣ « أقصى ما حصل أنه وفي نهاية أبريل هاجمت رئيسة الوزراء الإسرائيلية جولدا مائير سلوك السادات وتلويحه بالحرب في كل مناسبة مؤكدة إستعداد إسرائيل التام للقتال في معركة لن تكسب مصر شيئاً منها، التغيير الوحيد كان في موقف الرئيس الأميركي نيكسون المترنح بفعل أصداء فضيحة ووتر جيت والخائف من الضغط البترولي للعرب في الثالث من مايو بقوله أنه يتعين دراسة جميع الجوانب المهمة للنزاع في الشرق الأوسط بما في ذلك الحقوق المشروعة للفلسطينيين كما أبدى الرئيس قلقاً كبيراً مما يعترض الحفاظ على التزود بالبترول الخليجي ووصف هذا الأمر بأنه الرهان الحقيقي المهم للعالم الغربي وقد كان ذلك بعد تحميل الملك فيصل ملك السعودية رسالة غاضبة للإدارة الأميركية جراء تحيزها لإسرائيل عن طريق مسؤولي شركة أرامكو للبترول.

وبالرغم من ذلك ظلت إسرائيل مطمئنة وواثقة بحليفها الأميركي على الأخص أن آبا إبان الذي كان في زيارة لواشنطن في الأسبوع الأخير من مايو حصل على تأكيدات من داخل الإدارة أن الولايات المتحدة لن تخضع لإبتزاز دول الخليج مما دفعه للتصريح قائلاً «أشك في أن أميركا التي أعلنت استقلالها قبل مئتي عام يمكن أن تصبح ولاية تتبع أبوظبي أو الكويت»، وعلى نفس الصعيد أعطت القيادة المصرية المستعدة للحرب فرصة أخيرة للإدارة الأميركية للتدخل وأرسلت مبعوثها حافظ إسماعيل ليلتقي سراً بكيسنجر في فرنسا حاملاً مطلباً واحداً هو أن مصر تريد سلاماً مشرفاً يشمل استرداد سيادتها على كامل أراضيها وكان رد كيسنجر بنفس الوضوح «مصر لا يمكنها أن تحصل عبر

مائدة المفاوضات على ما خسرته في ساحة المعركة» وهنا حسم الأمر نهائياً، لابد من الذهاب للحرب لتغيير شروط اللعبة وأن الحل السياسي الحقيقي الذي يكفل استرداد السيادة لن يتم إلا عبر طريق المعركة واستقرت هذه القناعة تماماً لدى المصريين عندما عهد نيكسون لكيسنجر بحقيبة الخارجية بالاضافة لمهامه كمستشار للأمن القومي، وأيضاً بعد الهجوم الضاري الذي شنته جماعات الضغط على رئيس شركة ستاندرد أويل للبترول عقب طلبه من المساهمين أن تتبنى حكومة الولايات المتحدة سياسة أكثر مراعاة وتوازناً تجاه المصالح العربية حرصاً على مصالحها البترولية ومصالح المساهمين الاقتصادية واضطراره للاعتذار 'إذن فقد كان الأميركان والإسرائيليون في حالة نشوة ويرون أنه لا خطر من الحرب وحتى في حال إندلاعها سيسحق العرب في أيام لذلك كان كيسنجر يهدف إلى إنهاك العرب والحصول على صلح واعتراف بإسرائيل بأقل تنازلات ممكنة من الإسرائيلين الذين كانوا قد بلغ بهم الزهو والاطمئنان مبلغاً جعل حزب العمل الحاكم في بيانه السنوي للعام ١٩٧٣م يكتب مطمئناً الشعب على مستقبله الزاهر «على خط بارليف يسود الهدوء مثلما يسود في سيناء والضفة والجولان، الحدود آمنه والمستوطنات تنغرس ووضعنا السياسي مستقر. تلك هي المحصلة المترتبة على السياسة المتوازنة والجسورة والمتبصرة التي تسير عليها حكومتنا» .

في نفس السياق كان موشي ديان وزير الدفاع يؤكد في كل مناسبة أنه لا خطر على إسرائيل للعشر سنوات القادمة وسيتم سحق أي محاولة من قبل العرب للهجوم، ونهج اغلب المحللين السياسيين الإسرائيليين نهج ديان في تحليلاتهم فكان الرأي الأعم أنه طالما ظلت إسرائيل محتفظة بتفوقها الجوي فإنها ستظل الأقوى عسكرياً في الشرق الأوسط حتى تقرير المخابرات العسكرية الإسرائيلية الصادر بتاريخ٢٩سبتمبر ١٩٧٣م برقم٤١٠ كان يؤكد أن المخاوف المصرية من شن هجوم جوي مازالت مستمرة وأن تقديرات المصريين بوقوع هذا الهجوم هي التي دفعته إلى المناورات والتعبئة والتأهب وأن هدف التأهب هو إمتصاص الهجوم الإسرائيلي المتوقع»، وقد أشارت جولدا مائير إلى هذا التقرير امام لجنة أجرانات التي شكلت للتحقيق في أسباب الهزيمة في جلستها بتاريخ ٦فبراير ١٩٧٤م.

هذه النشوة الأميركية الإسرائيلية والثقة باختلال موازين القوى لصالح إسرائيل كانت العامل الأساسي الذي ساعد العرب على نجاح خطتهم فطبول الحرب كانت تصم أذان العالم، وإسرائيل وحليفتها لا يسمعان إلا صوت تفوقهم الساحق، الأخطر أنه فور إبلاغ الجانبين المصري والسوري للسوفييت بأنهما سيقومان بعملية عسكرية لإنهاء حالة اللاسلم واللاحرب أسرعت الحكومة السوفييتية إجلاء مستشاريها وعائلاتهم من البلدين عبر جسر جوي وأصدرت الأوامر لكل السفن التي ترفع علم الاتحاد السوفييتي بالإبحار من الموانئ المصرية والسورية كما أصدرت قيادة الجيش المصري أمراً للجنود بالتوقف عن صوم شهر رمضان وأعلنت القاهرة أنها بصدد إغلاق مجالها الجوي كما أرسلت

الغواصات المصرية إلى مهمات في أعالي البحار حيث لا يمكن الاتصال بها ولم تكن هذه المعلومات خفية على إسرائيل والولايات المتحدة وظل الطرفان مقتنعين تماماً أن كل هذه التحركات هي مجرد مناورات وتمويه لتحقيق مكاسب على ساحة العملية السياسية، وما طمأن الحكومة الإسرائيلية بشكل أكبر أن هيئة أركان جيش الدفاع كانت قد درست بالفعل إمكانية حدوث هجوم عربي لكن رأيها أن ضربة جوية موجعة يتلوها هجوم من قوات الاحتياط لهو كفيل بتحويل دفة المعركة من الهجوم للدفاع، كما ساهم أيضاً عامل قرب الانتخابات الإسرائيلية التي كان مقرراً نهاية أكتوبر في زيادة الضغط على الحكومة لتجاهل مؤشرات الحرب أياً كانت لأن عامل تمسك حكومة حزب العمل بسياساتها التي ترى أنها تحقق الأمن لإسرائيل كان هو الذي يجعلها مفضلة لدى الناخب الاسرائيلي وإعلان التعبئة العامة قبيل الانتخابات مباشرة سوف يعطي مؤشراً عكسياً للناخبين كما سيضعف موقفها الرافض للمفاوضات إلا على أساس الأمر الواقع والحدود القائمة على الأرض أمام حلفاء إسرائيل ودعم هذا العقلية الإسرائيلية التي كانت تنظر للعرب نظرة دونية وترى أنهم لا يفهمون إلا منطق كل شيء أو لاشيء، ولذلك فإن التفكير في مفهوم حرب محدودة بعيد تماماً عن تصوراتهم وهم ليس لديهم الذكاء الكافي لشن عملية عسكرية بغرض تغيير الواقع على الأرض وإنهاء الوضع القائم وإجبار إسرائيل وحلفائها على تحريك مسار سياسي جديد، كل هذه الثقة جعلت من الهجوم الذي شنته القوات العربية على الجيش الإسرائيلي في السادس من أكتوبر بمثابة الصاعقة التي أربكت كل الحسابات والمخططات التي بنتها الحكومة الإسرائيلية على مدار أعوام منذ عام ١٩٦٧م وهكذا في يوم السابع من أكتوبر١٩٧٣م وفي تمام الساعة الثانية وخمسين دقيقة بعد أربعة وعشرين ساعة وخمسين دقيقة من بدأ الهجوم المصري السوري وقف وزير الدفاع الإسرائيلي موشيه ديان في مجلس الوزراء قائلاً «ليس هذا هو الوقت المناسب لمحاسبة النفس، أنا لم أقدر جيداً قوة العدو، ولا قدراته القتالية، بينما بالغت في تمجيد قواتنا وقدرتها على الصمود إن العرب يقاتلون بشكل أفضل بكثير من ذي قبل لديهم الكثير من الأسلحة وهم يصيبون دباباتنا بأسلحة خاصة ... نحن نواجه مشكلة تتعلق باختلال شديد في توازن القوى»، كان هذا هو الحال في القيادة الاسرائيلية أما على صعيد الشارع الاسرائيلي فكان الوضع أسوأ بكثير ولم يخفف من وقع الصدمة الأولى للتقدم المصري السريع في سيناء تمكن إسرائيل من فتح ثغرة على الضفة المقابلة في العمق المصري، فقد رأى الإسرائيليون أن الجيش لم يكن على اهبة الإستعداد وقت الهجوم كما لم يستطع إيقاف تقدم الجيوش العربية، كان الرأي العام الإسرائيلي أيضاً مصدوماً ومذهولاً بسبب ضخامة عدد المصابين والأسرى أولاً والسبب الثاني لذهوله هو أن هذه المرة الأولى التي تفقد فيها إسرائيل أرضاً استولت عليها بقوة السلاح وهذا ما أفقد الرأي العام كل ثقة كان قد نماها في نخبته العسكرية والسياسية في لحظات، هذه النخبة التي دأبت على

التأكيد أن الجيش الاسرائيلي قادر على تحقيق نصر ساحق وماحق على العرب حال اي هجوم وجعل الإسرائيليين يتأكدون أن أمنهم سيظل دائماً مهدداً من قبل جيرانهم طالما لم يصلوا إلى تسوية معهم، وبالرغم من ان المحللين العسكريين الأميركيين إعتبروا ان إحداث الثغرة وإجبار الجيش المصري على التوقف عن التوغل في سيناء هو بمثابة نصر تكتيكي لإسرائيل على أرض المعركة ألا أن هذا لم يغير من إحساس الشعب الاسرائيلي بمرارة الهزيمة والخوف على أمنه بل على وجوده نفسه، فقد ضربت مفاجأة الحرب الفكرة التي قامت عليها دولة إسرائيل في الصميم فكرة ارض الميعاد التي ستؤوي اليهود من كافة انحاء العالم لتنهي الشتات «الدياسبورا» وتحميهم من محارق أخرى على شاكلة المحارق النازية.

وبالرغم من كل المحاولات على مدى الأعوام لإقناع الرأي العام الإسرائيلي أن ما حدث في اكتوبر١٩٧٣م كان لابد منه لتحقيق السلام وليقف السادات وقفته الشهيرة في ١٩نوفمبر عارضاً هذا السلام في الكنيست ظل هذا الرأي العام مهزوماً من داخله لشعوره الدائم بأن سلامه مهدد ولم يستطع أحد ان يغير هذا الشعور فقد تبدد حلم الشعب الصهيوني في إسرائيل الكبرى المتفوقة والمسيطرة على ارض الميعاد التوراتي لكي تقوم مملكة الله اليهودية، تبدد حلم الدولة القوية التي تستطيع في لحظات تدمير جيرانها وتقدر في أيام على غزو عواصمها كما لم تعد هجرات اليهود لإسرائيل هي الأخرى بنفس الكم او الزخم، كما تناقصت الاستثمارات التي كانت ترى في الاقتصاد الاسرائيلي اقتصاداً قوياً في بلد آمن، الكثير من الأحلام العظيمة تراجعت حتى وإن لم تتبدد كلياً، وجاءت اتفاقية السلام التي تخلى فيها الإسرائيليون كما كانت ترى نبوءة بنجوريون، عن ثوابت قوية وضعوها كخطوط حمراء كشرم الشيخ ومستوطنات سيناء ظلت ناقصة ومجمدة كورق موقع لم يكفِ للتطبيع الكامل اقتصاديا واجتماعياً وثقافياً كما كانوا يحلمون وظلت الحوادث المتفرقة المتمثلة في قتل إسرائيليين في سيناء والقاهرة والاعتداء عليهم ورفض النقابات والنخب المصرية التعامل مع اسرائيل ومهاجمة وسائل الاعلام حتى الرسمية منها للدولة العبرية تذكر الرأي العام الاسرائيلي أن الورقة الموقعة ليست كفيلة بالقدر الكافي بتحقيق أمنه ولهذا تظل حرب ١٩٧٣م أو حرب يوم الغفران كما يسميها الصهاينة بمثابة المهدال «Mehdal" أي انتكاسة في المسيرة ناتجة عن العجز عن توقع ما سيحدث.

وكان اهم الدروس التي تعلمتها إسرائيل من انتكاسة يوم الغفران هي أن الولايات المتحدة لن تظل داعماً لها بلا شروط كالطفل المدلل فقد كانت هذه اللطمة كفيلة بإعادة صانع القرار الإسرائيلي لصوابه وباعادة إسرائيل لحجمها الطبيعي كمحارب بالنيابة عن الولايات المتحدة في الشرق الأوسط سواء في الحرب الباردة أو كحام للمصالح الأميركية، تعلم الأميركيون درسهم الذي هو أن أميركا لن تغامر بحرب عالمية ثالثة ولا بتباطؤ معدلات التنمية لديها نتيجة انخفاض

الواردات البترولية القادمة لها ولحلفائها من دول الخليج ونتيجة لإرتفاع أسعار البترول فقط لأنها تدعم إسرائيل فصانع القرار الأميركي مهما بلغت قناعته بأهمية إسرائيل لن يقبل أن تدفع بلاده فاتورة حرب الطرفين المتقاتلين لمجرد أن الإسرائيليين شرهون في ابتلاع أراضي هم غير قادرين على إعمارها أو السيطرة عليها ولهذا السبب بالذات رضخت إسرائيل وعادت للخطة الأولى سياسة الخطوة خطوة طويلة الأمد كما أسماها كيسنجر للحصول على أكبر قدر من المكاسب مقابل التنازل عن أقل رقعة من الأرض ورضخ العرب الذين تجمعهم المصالح مع أميركا هم ايضاً وساروا في طريق المفاوضات وقدموا التنازلات التي كان أولها الصلح المنفرد بين مصر وإسرائيل ولم تنقطع سلسلتها حتى اليوم، ورقص جميع أطراف اللعبة يومها ومازالوا يرقصون وفقاً للإيقاع الأميركي .

وهكذا حصلت الولايات المتحدة على ما ارادته تماماً من كل الأطراف وكسبت جولتها المصيرية الكبرى مع الاتحاد السوفييتي وأخرجته من الشرق الأوسط وبربحها لهذه الجولة مهدت لضربتها القاضية التي تسببت في تفككه ودماره في ساحة أفغانستان بعد ذلك بأعوام.

المراجع:

١ـ مسألة فلسطين (المجلد الرابع ـ الكتاب السابع) ـ هنري لورنس ـ ترجمة بشير السباعي ط١ ٢٠١٢م ـ المركز القومي للترجمة .

٢ـ انتصار أكتوبر في الوثائق الإسرائيلية ج١ ـ وثائق القيادة السياسة إشراف ومراجعة إبراهيم البحراوي ط١ ٢٠١٤.

3- Rashid Khalidi : Resurrecting Empire Tauris and coltd2004.

4- The Myth of Defeat : The Memory of the Yum Kippur war in Israeli society, Charles S.liebman , CIA Research .policy Archive.

5- President Nixon and The role of intelligence in the1973 Arab Israeli war 30January 2013, Richard Nixon library and museum.

6- The Super Powers in the Arab Israeli conflict 1970 1973 Abraham S.Becker Decemb,1973 The Rand Corporation Santa Monica, California 90406.

7- The Yom Kippur war :Indications and warnings L. Youssef Aboul Enien The foreign Area officer journal January February2003.

من أرشيف الجلسات الأولى للحكومة الإسرائيلية عام ١٩٦٧

مستقبل الضفة الغربية وقطاع غزة

عليان الهندي*

بعد خمسين عاما على حرب عام ١٩٦٧، أفرج أرشيف دولة إسرائيل عن الوثائق المتعلقة بجلسات الحكومة الإسرائيلية، قبل وبعد ستة أشهر من تلك الحرب، التي سميت بحرب الأيام الستة إسرائيليا، وبنكسة حزيران عربيا وفلسطينيا، التي نتج عنها احتلال إسرائيل لما تبقى من فلسطين التاريخية وأراض من مصر وسوريا ولبنان والمملكة الأردنية الهاشمية.

الوثائق نشرت بالكامل، لكن حذف منها ما يتعلق بهوية مزودي المعلومات الاستخبارية، والتصريحات العنصرية، وما يتعلق بالتعامل مع الأسرى العرب الذين تم إعدام الآلاف منهم بدم بارد. وتحمل كل جلسات الحكومة المشار إليها كلمتي «سري جدا».

المقالة الحالية، ترصد جزءا من الحوارات التي جرت داخل الحكومة الإسرائيلية بخصوص مستقبل الضفة الغربية والقدس الشرقية وقطاع غزة، وقد استخدمتُ فيها المصطلحات الإسرائيلية نفسها، بهدف محاولة تزويد القارئ والمختص بالرؤية الإسرائيلية الحقيقية من دون تدخل.

قرار الحرب

بهدف إجبار الحكومة الإسرائيلية على شن عدوان شامل على الدول العربية، عقدت الحكومة الإسرائيلية اجتماعا ضم وزراء شؤون الأمن من ضمنهم رئيس الحكومة ليفي أشكول (١١ وزيرا) وهيئة الأركان التي ترأسها حينه الجنرال إسحاق رابين (١٧ جنرالا و٤ ضباط يحملون رتبة عقيد،

* باحث من فلسطين

وضابطان يحملان رتبة مقدم وضابط برتبة رائد)١. ويعتبر هذا الاجتماع من أهم الاجتماعات التي عقدتها الحكومات الإسرائيلية على الإطلاق منذ نشأتها حتى هذا اليوم، حيث وصفته وسائل الإعلام الإسرائيلية بتمرد الجنرالات أو شبه الانقلاب، الذي اتضحت فيه الصورة الحقيقية لمن يحكم إسرائيل في أوقات الطوارئ، وأن القائد الأعلى للجيش ليس رئيس الحكومة، بل هو رئيس الأركان، ليس وفق القانون فقط، بل وفق العرف السائد في مؤسسات دولة إسرائيل، ومن يملك قرار الحرب، يملك بالتأكيد قرار السلام.

رغم ذلك، احتاجت هيئة الأركان، الحكومة للتوقيع على قرار الحرب وأهدافها، التي وضعت من قبل جهاز الاستخبارات في الجيش الإسرائيلي. ولم يتوقف الضغط على اتخاذ قرار الحرب، بل امتد ليشمل تعيين الجنرال المتقاعد موشيه ديان وزيرا للدفاع، الذي كان له القول الفصل في تحديد السياسة الإسرائيلية المستقبلية تجاه الضفة الغربية وقطاع غزة والقدس.

حماس الجيش الإسرائيلي لشن العدوان، رافقه تأييد شامل من قبل الحكومة خاصة رئيسها ليفي أشكول الذي كان أكثر مَن عبر عن إرادة الجيش في تلك الفترة. وفي جلسة الرابع من حزيران، قررت الحكومة بكامل هيئتها شن العدوان على العرب بهدف ما ادعته حينها «تحرير إسرائيل» من الوضع الخانق الذي تمر فيه، وخولت رئيس الحكومة ووزير الدفاع بإعطاء تعليمات لرئيس الأركان إسحاق رابين بتحديد موعد العملية العسكرية، الذي لم يتأخر ولو للحظة موجها الأوامر لشن العدوان الذي أصبح يعرف في الذاكرة العربية والفلسطينية بنكسة حزيران٢.

المشاكل المستقبلية لدولة إسرائيل

تبين من أول اجتماع عقدته الحكومة الإسرائيلية في اليوم الثاني للحرب، أن النصر الذي يحققه جيشها بات قريبا جدا، ما دعا رئيس الوزراء في بداية الجلسة إلى القول أن هزيمة العرب تتطلب من إسرائيل، وضع خطة مناسبة تضمن وجود دولة إسرائيل بسلام وأمن على طول حدودها مع الدول العربية٣.

كذلك لم يتناسى وزير الداخلية الإسرائيلي حينها ،وممثل حزب المفدال في الحكومة، حاييم موشيه شابيرا، سؤال الجنرال أهارون ياريف ،رئيس جهاز الاستخبارات، عن هرب سكان الضفة الغربية وقطاع غزة أم لا، حيث كانت الاجابة مخيبة لآمال الوزير، الذي أبلغه بعدم وجود عمليات هروب جماعي في المناطق المذكورة بما فيها القدس، باستثناء مدينة أريحا، موضحا أن هناك عمليات استسلام جماعي وليس هروباً٤. وفي نفس الاجتماع، حدد رئيس الحكومة الإسرائيلية ليفي أشكول

المشاكل المستقبلية لإسرائيل وهي:

المكانة المستقبلية للضفة الغربية وبقاء السكان فيها.

مستقبل قطاع غزة وكيفية تهجير السكان.

مسألة ضم القدس.

العلاقات مع مصر ومستقبل سيناء.

هضبة الجولان٥.

احتلال

أوضح رئيس أركان الجيش الإسرائيلي الجنرال إسحاق رابين في اليوم الثالث من الحرب قائلا، نجح الجيش الإسرائيلي في احتلال كل الضفة الغربية وقطاع غزة ووصلت قواته حتى الحدود الأردنية وقناة السويس، فيما لم تنجز مهمتها في هضبة الجولان، وقال أن الضفة الغربية تشهد عمليات قنص متواصل، باستثناء مدينة الخليل التي وصلته معلومات تفيد بأن وجهاء مدينة الخليل سيتعاونون مع دولة إسرائيل. وحول مدينة القدس، قال أن الجيش امتنع عن دخول البلدة القديمة منها، نتيجة عمليات القنص المتفرقة التي تشهدها ولاعتبارات سياسية٦.

وبخصوص قطاع غزة، أوضح الجنرال أن القطاع يعتبر مشكلة حقيقية، حيث يوجد فيها ما يقارب لوائين من جيش التحرير التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية (المقدر عددهم بـ ٤ آلاف مقاتل)، وتوقع وفق مصادر عسكرية إسرائيلية سقوط ٥٠ جنديا عند «تطهير القطاع» من جيش التحرير الذي يقاوم طوال الوقت.

وأضاف الجنرال، مع احتلال الضفة وقطاع غزة سيطرنا على أكثر من مليون ونصف مليون عربي وهو أكثر من طاقة إسرائيل٧، لكنه توقع هروب ١٠٠ ألف عربي من هاتين المنطقتين، خاصة من الضفة الغربية، منوها إلى عدم حدوث هروب جماعي٨".

ومع انتهاء جلسة المجلس الوزاري قررت اللجنة الوزارية لشؤون الأمن الاستجابة لطلب رئيس الأركان إسحاق رابين إلغاء المنطقة العازلة مع سوريا واحتلال هضبة الجولان، مع إعادة انتشار الجيش الإسرائيلي على طول الحدود مع نهر الأردن٩.

انطباعات أولية

توقف القتال بشكل رسمي، بعد ستة أيام من الحرب، دفعت بوزير الدفاع الإسرائيلي موشيه ديان إلى التجول في الضفة الغربية وقطاع غزة والاجتماع برؤساء بلديات نابلس ورام الله وجنين١٠، واستمع إلى مطالبهم المختلفة التي تركزت على ضرورة توفير الغذاء والوقود الذي بدأت مخازنه تنفد في الضفة الغربية وقطاع غزة، وذلك على نفقة البلديات، خاصة مدينة نابلس التي أبلغت الوزير أنها مستعدة لدفع أثمان المواد الغذائية مثل الطحين والسكر والزيت، وطالبوا بفتح مراكز المدن للتجارة والتبضع١١.

وبخصوص الوضع المالي، أوضح ديان أن رؤساء البلديات أبلغوه أنهم يملكون أموالا في البنوك الأردنية المغلقة، ولا يستطيعون سحبها، بهدف دفع مرتبات الموظفين. وأبلغ ديان أعضاء الحكومة، أن رؤساء البلديات طلبوا منه تخفيف منع التجول، ومنحهم حرية التنقل بين المدن للبشر والبضائع.

وطالب رؤساء البلديات من موشيه ديان إعادة الحافلات التي سرقها الجيش الإسرائيلي من مدن الضفة الغربية لاستخدامها في العمليات العسكرية ضد الجيوش العربية، خاصة في مدينتي نابلس وجنين التي نهب منها الجيش الإسرائيلي ٤٠ حافلة وسيارة خاصة، وهي كل ما تملكه المدينة من حافلات نقل بضائع وركاب١٢. حيث وعد بإعادة ١٠ حافلات لمدينة جنين وعدد غير محدد لمدينة نابلس مع السماح بتنقل البشر والبضائع قبل حلول منع التجول الذي فرض على مدن الضفة الغربية وقطاع غزة١٣.

وخلال اجتماعه مع رئيس بلدية رام الله وبعض الوجهاء، أبلغهم ديان انه لن يسمح بأية مظاهرات من اللاجئين المنتشرين في المدينة، وانه على استعداد لمعالجة الأمر خلال ربع ساعة في حال جرت أية مظاهرة. ولفت انتباه وزير الدفاع الإسرائيلي الجمال الرائع الذي تتمتع به مدينة رام الله والفيلل الجميلة المنتشرة في شوارعها، حيث أبلغه أحد المرافقين أن هذه الفيلل بنيت من أموال دول الخليج التي يعمل الكثير من أبناء رام الله -لاجئين وغير لاجئين- فيها١٤.

ولم يغب عن الوزير التطرق لهمجية الجنود، حيث أبلغ الحكومة أنه أمر الجيش بالانتشار خارج المدن ومخيمات اللاجئين، وإقامة مقرات القيادة خارجها، لأنه لاحظ أن الجنود يدخلون الفنادق والمنازل الفارغة وينامون ويجلسون فيها من دون أي اعتبار. وأبلغ الوزراء، أن الحياة الطبيعية في الضفة الغربية ستعود إلى طبيعتها خلال ١٠ أيام.

وخلال الجلسة، أشار ديان أن مستوى القيادة التي سيتعامل معها من العرب، إن كانت في المجال

الإداري أو السياسي، ستكون على مستوى رؤساء البلديات ليس أكثر، فكل مدينة ستكون مسؤولة عن محيطها، ونحن لا نتطلع إلى وجود قيادات سياسية، بل قيادات خدمية، وأبلغهم أن الضفة الغربية ستكون وحدة منفصلة عن القدس والأردن١٥. وعند زيارة الوزير لمدينة الخليل لاحظ التوتر الموجود في المدينة حول الحرم الإبراهيمي، وأبلغ الوزراء أن مغارة الماكفيلا وقبر راحيل يتطلبان تسويات خاصة لأنهما مقدسان عند اليهود والعرب.

ولإدارة الضفة عسكريا واقتصاديا أبلغ ديان الحضور تعيين قائد المنطقة الوسطى الجنرال عوزي نركيس حاكما لكل الضفة الغربية، فيما عين حاكما عسكريا لكل منطقة، واقترح ووافقت الحكومة الإسرائيلية على تشكيل لجنتين لإدارة الضفة: الأولى، وزارية لمعالجة الشأن الاقتصادي. والثانية، من كل المدراء العامين في الوزارات الإسرائيلية لمعالجة بقية القضايا والمشاكل.

أما بخصوص الوضع في قطاع غزة، أشار وزير الدفاع الإسرائيلي موشيه ديان، أن القطاع غير مستقر من الناحية الأمنية وهناك تفجيرات وعمليات نهب لمخازن وكالة الغوث. وأضاف أن سكان قطاع غزة بما في ذلك منطقة رفح يعادون إسرائيل، وستشهد المنطقة بين الفينة والأخرى صدامات ومواجهات إلى حين استقرار الوضع الأمني فيه، نظرا لوجود كميات كبيرة من الأسلحة المصرية فيه». وشبه ديان التحركات الإسرائيلية في القطاع بمن يسير في الرمال المتحركة١٦.

ورغم صعوبة الأوضاع الأمنية في القطاع، أشار ديان أنه لا توجد إشارات لتمرد شامل في القطاع أو أية نشاطات جماهيرية، وكل ما هناك عمليات عسكرية فردية، والهدف الإسرائيلي هو الفصل بين السكان وبين «المخربين» وإعادة الحياة لطبيعتها، كي يتوقف التحريض والارهاب ويشعر المواطن الغزاوي أن أية ممارسات عنيفة ستعرضه للخسارة١٧.

وأشار موشيه ديان إلى وجود مئات الموظفين المصريين في قطاع غزة الذين لن يطردوا ولن يسمح لهم بالعودة إلى القاهرة، بهدف استبدالهم باليهود الموجودين في مصر١٨.

وعلى الصعيد العام، توجه ألوف اليهود من دولة إسرائيل إلى مختلف مدن الضفة الغربية ومدينة غزة، حيث قاموا بالتجول فيها وبدخول الحرم الإبراهيمي ومسجد قبة راحيل بالأحذية من دون مراعاة حرمة المكان للمسلمين، بينما توجهت بعض الجماعات اليهودية للمطالبة بإسرائيل الكبرى، بزيارة المواقع التي يتوقع بناء مستوطنات يهودية فيها مثل غوش عتصيون والحي اليهودي في مدينة الخليل. ودفعت الزيارات العامة لليهود للضفة الغربية وقطاع غزة وزير الدفاع ديان للتحذير منها خشية أن تؤدي إلى مزج اليهود مع العرب.

ديموغرافيا

ذهل وزراء حكومة الاحتلال من العدد الهائل للسكان العرب الموجودين في الضفة الغربية وقطاع غزة، إضافة إلى ٣٠٠ ألف عربي يحملون الهوية الإسرائيلية، مقارنة مع عدد اليهود الذي وصل عددهم في ذلك إلوقت إلى ٣،٢ مليون يهودي في كل فلسطين التاريخية١٩.

واعتبر الوزراء هذا الكم الهائل من السكان مشكلة ديموغرافية واقتصادية مهددة لدولة إسرائيل ولوجود اليهود فيها، إذا لم يتم التوصل لحلول يتم من خلالها التخلص من السكان.

حجم المشكلة وخطورتها وتطورها، دفعت وزير المالية بنحاس سابير إلى القول :»أن اليهود سيعيشون على بركان منذ اليوم الأول لوجودهم في الضفة الغربية وقطاع غزة٢٠. بينما صرح وزير التربية والتعليم زلمان أران ان ضم الضفة الغربية لإسرائيل كمن يضع الدجاج المشوي في أحضانه، وإننا سنبكي لأجيال لو ضممناها.

القدس

إثر انتهاء المعارك، قسمت إسرائيل الضفة الغربية وقطاع غزة إلى ثلاث مناطق، بإضافة مدينة القدس كجسم مستقل، وتبعت بحق هذه المناطق ثلاثة سياسات مختلفة تصب جميعها في مصلحة إسرائيل.

وكان أمر وزير الدفاع الإسرائيلي حينها موشيه ديان بإنزال العلم الإسرائيلي من على المسجد الأقصى ومنع صلاة الحاخام شلومو غورين فيه وإخراجه مع الجنود الذين كانوا يتجولون بالأحذية داخل المساجد في الحرم القدسي الشريف، أول أمر يتعلق بمدينة القدس. ويعود ذلك إلى رغبته بعدم تحويل الصراع من صراع وطني إلى صراع ديني، يوحد من خلاله العرب والمسلمين أنفسهم ضد دولة إسرائيل. كما وضع ديان «سياسة الأمر الواقع» في المسجد الأقصى التي حظيت بموافقة الحكومة، والمتعلقة بترتيب دخول غير المسلمين للمسجد. ورفض ديان تعيين حاكم عسكري لمدينة القدس إسوة بالضفة الغربية وقطاع غزة، مكتفيا بصلاحيات الجنرال عوزي نركيس قائد المنطقة الوسطى، التي تمتد لمدينة القدس من الناحية العسكرية٢١.

وكان القرار الثاني، الذي لم يتخذ بالحكومة الإسرائيلية، بل نفذ وفق توجيهاتها، هو هدم حارة الشرف (حارة المغاربة) وتوسيع ساحات البراق لتتسع لمئات ألوف اليهود، بعد أن كان عرضها أقل من أربعة أمتار، وإعادة تسميتها بالحائط الغربي (أو حائط المبكى وفق التسمية الفلسطينية

الشعبية) لما يسمى بالهيكل الثالث. وتسبب الهدم والتدمير بتشريد ٤ آلاف فلسطيني (٨٠٠ عائلة فلسطينية) وهدم مئات المنازل التابعة لهم، حيث تم طردهم إلى شعفاط وسلوان وغيرها من الأحياء المقدسية٢٢. ودفعت كراهية العرب والرغبة بطردهم والتخلص منهم في حارة المغاربة بالبلدة القديمة من القدس، الوزير يغيئال ألون إلى المطالبة بتنظيف ما يسمى بالحي اليهودي من العرب خلال يومين، مستغلين أجواء الصدمة التي يمر بها العرب٢٣.

وفي سياق مختلف، تقرر ضم المدينة بواسطة قرار من الحكومة الإسرائيلية، تصادق عليه الكنيست، بواسطة مد قانون القضاء والحكم من دولة إسرائيل على مدينة القدس، بواسطة أوامر تنفيذية صادرة عن وزير الداخلية، الذي لم يتأخر للحظة، وقام بإصدار تعليماته بحل البلدية الأردنية، وتطبيق القانون الإسرائيلي على القدس، وفي المناطق التي حددتها إسرائيل على أنها جزء من المدينة، التي شملت ٢٨ قرية وحيا، لم تكن مشمولة في القدس قبل حرب عام ١٩٦٧. وطلب من الوزراء عدم إظهار الضم بصورة احتفالية، واعتباره أمراً طبيعياً وعادياً، كي لا يتسبب الضم بردود فعل دولية غاضبة٢٤.

وبخصوص العلاقة مع الأمم المتحدة ومقر المندوب السامي في القدس الشرقية، الذي سيطرت عليه قوات الاحتلال الإسرائيلي، اشترطت إسرائيل إعادته، بعد مفاوضات شاقة مع الأمم المتحدة، التي وافقت على أن ملكيته لإسرائيل، وأن الجنرال أود بوول الذي عمل قبل الحرب مشرفا على اتفاقيات وقف إطلاق النار مع الدول العربية، يعمل منذ التوقيع على الاتفاق مبعوثا خاصاً للأمين العام للأمم المتحدة٢٥.

قطاع غزة

أثار احتلال قطاع غزة شهية إسرائيل في ضم المزيد من أراضي الفلسطينيين. وتبين من خلال جلسات الحكومة ،إن كانت الأمنية أو العادية، أن مستقبل القطاع محسوم لصالح ضمه لدولة إسرائيل، لكن مشكلتين كبيرتين واجهتا الضم وهما:

الخوف من العودة إلى الحدود الدولية – كما حصل بعد حرب السويس عام ١٩٥٦، عندما أجبرت إسرائيل على العودة إلى الحدود القائمة قبل الحرب، بعد مماطلة من رئيس وزرائها دافيد بن غوريون لعدة أسابيع، حين حاول القول أن قطاع غزة جزء من «أرض إسرائيل الانتدابية»، إسرائيل هي الوريث الوحيد للانتداب، نتيجة رفض العرب لقرار التقسيم.

ولمعالجة الأمر من ناحية قانونية ،وفق المنطق الإسرائيلي، اخترع مصطلح الحدود الدولية لـ «أرض

إسرائيل» (فلسطين التاريخية) في أي اتفاق سلام مع الدول العربية. وفي حالة القطاع، دار الحديث عن عودة إسرائيل إلى الحدود الدولية مع جمهورية مصر العربية، التي لا يعتبر القطاع جزءا منها. حيث أشارت الحدود التي تم ترسيمها عام ١٩٢٠ بين دول الانتداب المحتلة للدول العربية، أن القطاع جزء من فلسطين. وبعد عام ١٩٤٨، لم تضمه مصر لها، وتعاملت مع القطاع حتى عام ١٩٦٧ كقوة مسيطرة عسكرية فقط، في حين منحت الفلسطينيين صلاحيات كبيرة جدا في إدارة شؤون حياتهم. وبالتالي، فإن دولة إسرائيل هي الطرف الأحق بحكم القطاع من أي طرف آخر بما في ذلك الفلسطينيين.

وكان شرط الحدود الدولية، هو أحد الشروط الإسرائيلية لعدم تراجعها لحدود الرابع من حزيران عام ١٩٦٧.

كانت مشكلة اللاجئين، هي المشكلة الثانية، وهي الأهم، من وجهة نظر إسرائيلية، حيث تواجد في قطاع غزة ٤٠٠ ألف لاجيء. واعتبر هذا الوجود العائق الوحيد أمام ضم القطاع لدولة إسرائيل، ما دفعها إلى البحث في كل جلسات الحكومة التي عقدت حتى أواخر عام ١٩٦٧، عن الطرق الكفيلة بتهجير اللاجئين خارج القطاع٢٦.

وكان مشروع توطين لاجئي القطاع العرب في منطقة العريش المصرية، هو أول الخيارات المطروحة وأهمها، حيث طالب معظم الوزراء بتوطينهم بثلاث مناطق في العريش، تبدأ بنقل ١٠ آلاف نسمة كتجربة، وإذا قدر لمشروع التوطين النجاح، تواصل إسرائيل توطين اللاجئين العرب هناك.

وابدى رئيس الحكومة الإسرائيلية ليفي أشكول موافقته على المقترح، لكنه اشترط موافقة مصر عليه في اتفاقية السلام المتوقعة مع جمهورية مصر العربية. كما عارض ليفي اشكول توطين يهود في تلك المنطقة لنفس الأسباب، واشترط أن يكون عضوا في لجنة تشكل للاستيطان في العريش وسيناء، في إشارة منه لحرصه على التوصل لاتفاق سلام مع مصر. ونتيجة لذلك، ولعدم وجود اتفاق مع مصر، بحثت الحكومة عن خيارات أخرى لتهجير العرب.

وكان الخيار الثاني لتهجير لاجئي قطاع غزة إلى الضفة الغربية، خاصة في منطقة الغور الواسعة والفارغة من السكان، المتوفر فيها بنية تحتية زراعية وصناعية مستقبلية.

رغم منطقية المشروع من وجهة نظر بعض الوزراء، إلا أن الأمر استقر في نهاية المطاف على رفض الفكرة لأنها تحل مشكلة قطاع غزة لإسرائيل، على حساب نقلها إلى الضفة الغربية التي اعتبرت بالنسبة لإسرائيل أهم من القطاع، ولها فيها أطماع مماثلة لتلك الموجودة فيه.

وكان من ضمن المقترحات، تهجير العرب إلى الدول المستقبلة للاجئين مثل كندا ونيوزيلاندا وحتى إلى البرازيل التي لم يتمنى رئيس حكومة إسرائيل ليفي أشكول تهجير كل العرب في الضفة الغربية

وقطاع غزة إليها، بل بحث الأمر مع سفير البرازيل في إسرائيل حينها، الذي لم يرد على الطلب مبلغا رئيس الوزراء الإسرائيلي، أنه سينقل هذا الطلب لحكومته٢٧.

وإلى حين ضم قطاع غزة، وافقت الحكومة الإسرائيلية على مقترح ديان بفرض الحكم العسكري على قطاع غزة، الذي استمر حتى تبخر كل الوجود الإسرائيلي في القطاع عام ٢٠٠٥ عندما انفصلت إسرائيل عن القطاع في إطار الفصل أحادي الجانب.

الضفة الغربية

احتار الوزراء في جلسات الحكومة الإسرائيلية حول التسمية الجديدة للضفة الغربية، فقد تحفظ وزير الدفاع ديان على تسميتها بالمناطق المحتلة، بينما دعا مناحيم بيغن إلى تسميتها بالمناطق المحررة والمدارة، في حين قررت الحكومة الإسرائيلية تسميتها بالمناطق المدارة، بما في ذلك قطاع غزة. وخلال الاجتماعات، لم يذكر اسم يهودا والسامرة كمسمى للضفة الغربية بالمطلق، في حين كانت مختلف التسميات تتدحرج في اجتماعات الحكومة.

واتضح من جلسات الحكومة الإسرائيلية المختلفة أن الأطماع الإسرائيلية في الضفة الغربية، لم تقل عن الأطماع بقطاع غزة، لكن وجود أكثر من ٩٠٠ ألف عربي شكل العقبة الكأداء في التوجهات الإسرائيلية المختلفة لتحديد مستقبل الضفة، واتفق معظم الوزراء على صعوبة، بل واستحالة ضم هذا العدد الكبير لدولة إسرائيل، الذي يهدد وجودها٢٨.

ونتيجة ذلك، تركزت النقاشات داخل الحكومة على طرق تهجير الفلسطينيين، مثل التهجير إلى كندا، أو توطينهم بالأردن ،في أي إطار من الأطر، بما في ذلك الوحدة اقتصادية بين الضفتين. وكان أحد المقترحات يدعو إلى زيادة التدريب المهني في الضفة الغربية، كوسيلة لحث الشبان العرب على البحث عن فرص عمل في دول الخليج وغيرها. الخوف من العدد الكبير للعرب دفع برئيس الوزراء الإسرائيلي حينها ليفي أشكول إلى القول أن نسبة الولادة في صفوف العرب كبيرة جدا، وإذا استمر الوضع على حاله، سيقول لنا العرب، نحن أغلبية كبيرة جدا، لماذا لا تمنحونا حق الانتخاب، وحينها ستكون لنا مشاكل دولية كبيرة٢٩.

وبعد وصول القوات الإسرائيلية إلى نهر الأردن، دمرت الجسر وابقته مفتوحا لتمكن العرب من مغادرة الضفة الغربية بطرق متعددة منها الترهيب والطرد الذي مورس خاصة في منطقة الغور وفي مدينة قلقيلية وفي قرى اللطرون، وغيرها من الأماكن.

كما ركزت نقاشات جلسات الحكومة حول عدد الذين «خرجوا» من الضفة الغربية نتيجة الحرب،

الذين قدرت أعدادهم من ٢٠٠-٢٢٠ ألف نسمة، فيما قدمت تقارير للحكومة تشير إلى أن ٥ آلاف فلسطيني سيخرجون كل شهر من الضفة الغربية لو استمرت موجة المغادرة الحالية٣٠.

وبطلب من المملكة الأردنية، وضغط من الولايات المتحدة وبريطانيا، وافقت إسرائيل على منح ٣٠ ألف تصريح عودة لسكان الضفة الغربية الذين نزحوا إلى الضفة الشرقية، لكنها وضعت صعوبات كبيرة أمام عودة هذا العدد الذي اعتبرته كبيرا جدا، ووضعت معايير لمن يرغب بالعودة خاصة الأقارب من الدرجة الأولى، وفي نفس الوقت وضعت إجراءات على الجسر كانت تدفع من يرغب بالعودة إلى اليأس من الدخول، خاصة أن الكثير منهم كان يصل إلى الجسر الأردني مرات عديدة من دون إمكانية الدخول٣١.

وجود الفلسطينيين دفع الحكومة الإسرائيلية في جلساتها المختلفة إلى طرح فكرة الانفصال عن الفلسطينيين، حيث كان يغيئال ألون من أشد المؤيدين للانفصال والحلول الجزئية للقضية الفلسطينية، حتى قبل أن تثبت إسرائيل وجودها في الضفة الغربية. لكن موقف وزير الدفاع الإسرائيلي موشيه ديان كان هو الحاسم في تحديد مستقبل الضفة الغربية حين طالب بعدم اتخاذ أي قرار يتعلق بمستقبل الضفة الغربية، تاركا الأمور للظروف التي ربما تخدم إسرائيل مستقبلا.

ومثل قطاع غزة، أعلن ديان أن السلام مع الأردن سيتم وفق الحدود الدولية، أي عدم الاعتراف بضم الضفة الغربية للأردن واعتبارها قوة محتلة.

وخلال اجتماعات الحكومة، برزت قصة الاحتياجات الأمنية الإسرائيلية ليس فقط في الضفة الغربية، بل مع كل الدول العربية، حيث تنافس الوزراء على تحديدها، لكنهم اتفقوا على وضعها في مقدمة أي اتفاق مستقبلي مع أي من الدول العربية.

كما اتفق الوزراء على استخدام كلمة السلام مع تحديد تفسير واضح لها، من دون إعلانه، وهو توقيع اتفاق سلام مع الدول العربية يتضمن تعديل الحدود وإيجاد مناطق خالية من السلاح وفك المقاطعة الاقتصادية وايجاد حل إقليمي لقضية اللاجئين.

القرارات

نتيجة انتصارها العسكري الواضح على الدول العربية، قررت الحكومة الإسرائيلية، بعد سلسلة اجتماعات وضع شروط السلام مع الدول العربية التي جاء من ضمنها:

إلغاء حدود وقف إطلاق النار الموقعة عام ١٩٤٩ بين إسرائيل وجاراتها.

يكون أساس أي سلام مع مصر، هو العودة إلى الحدود الدولية، التي لا يعتبر قطاع غزة جزءا منها، بل هو جزء من أراضي إسرائيل. وبقاء القطاع كجزء من دولة إسرائيل لم يكن مطلبا فقط، بل كان شرطا أساسيا لأي سلام مستقبلي مع مصر.

نفس الحال ينطبق على الأردن، حيث اعتبر نهر الأردن الحدود بين الطرفين. مع استعداد إسرائيل لوحدة اقتصادية معه.

ضم القدس الكاملة لدولة إسرائيل، ووضع ترتيبات خاصة للأماكن المقدسة لأبناء الديانات المختلفة.

استمرار الحكم العسكري في الضفة الغربية، كمرحلة انتقالية، مع البحث عن حلول فعالة على المدى البعيد.

تكتفي دولة إسرائيل بإعلان بحثها عن حلول لمشكلة اللاجئين، الذين ستظل المسؤولية عنهم، من صلاحيات وكالة الغوث الدولية بناء على الاتفاق الموقع بين الطرفين. كما تطالب إسرائيل بحل مشكلة اللاجئين بالمستقبل في الدول العربية، مثل المغرب والأردن والعراق وسوريا والجزائر، وغيرها من الدول، مع التأكيد على تبادل السكان اللاجئين، بدلا من ألوف اليهود الذين «طردوا» من الدول العربية٣٢.

خلاصة

بعد خمسين عاما من الاحتلال، نجحت دولة إسرائيل في ايجاد حل لمشكلتين (السلام مع مصر والأردن) من المشاكل التي عددها ليفي أشكول قبل خمسين عاما قبل اليوم، بينما ظلت عالقة في المشاكل المتعلقة بالصراع مع الفلسطينيين وسوريا.

الحوار والجدل والمشاريع والسياسات والقرارات الإسرائيلية الحالية، تشبه إلى حد بعيد، تلك الحوارت التي عقدت في أوساط الحكومة والنخب الإسرائيلية الحاكمة على مختلف مشاربها بعد عام ١٩٦٧، التي تتحدث جميعها عن كيفية مواجهة القضية الفلسطينية، وطرد السكان من الضفة الغربية وقطاع غزة، وطرق ضمهما، التي كان آخرها مشروع نائب رئيس الكنيست بتسلال ستيواريتش المسماة «خطة الحسم» التي تدعو الفلسطينيين إما إلى التسليم بوجود دولة إسرائيل أو العيش فيها من دون حقوق، أو الحرب، وهي مقترحات تشبه إلى حد بعيد مقترحات يغيئال ألون وموشيه ديان في ذلك الوقت.

الأكثر وضوحا في الصراع القائم بين الحركة الصهيونية الاستعمارية العنصرية، ومن ورائها دولة

إسرائيل، وبين الحركة الوطنية الفلسطينية، أنها لم تنجح في تحقيق مشروعها الذي شنت على أساسه عدوان العام ١٩٦٧، فقطاع غزة الذي عملت قبل وخلال وبعد العدوان على ضمه، لم يعد جزءا من إسرائيل، وهو نظيف من المستوطنين الذين عاثوا فيه فسادا على مدار ٤٠ عاماً تقريبا.

أما مدينة القدس، فقد بدأت تطرح في إسرائيل مشاريع، وتشكل لوبيات من أجل التخلي عن الأحياء التي ضمتها لها خلال عام ١٩٦٧. كما فشلت إسرائيل في وضع قدم لها في الحرم القدسي الشريف من خلال تقسيمه زمانيا ومكانيا. ورغم الدعاوى اليهودية بقدسية المسجد الأقصى، لم يعر المكان أي اهتمام عام، ولم يقم اليهود بزيارته بصورة جماعية عفوية، منذ بداية الاحتلال حتى اليوم، ولو كان ذلك من باب حب الاستطلاع.

أما الضفة الغربية، فتحاول الدولة العبرية، ومنذ خمسين عاما ابتلاعها، لكنها عصية على الابتلاع، وتقاوم وتهدد بالموت لكل من يحاول قضمها.

كما أن مصطلح الفلسطيني ،الذي لم يذكر كثيرا في اجتماعات الحكومة الإسرائيلية، في محاولة منها لمحوه عن الخارطة، أصبح اليوم يحكى على كل لسان في دولة إسرائيل، وتحول إلى المهدد رقم واحد لدولة إسرائيل وفق استطلاعات الرأي منذ أكثر من عقدين. متفوقا بذلك على كل التهديدات الأخرى، مثل التهديد الايراني أو التهديد الذي يشكله حزب الله.

صحيح أن الفلسطينيين لم يهزموا المشروع الصهيوني، لكنه لم يمسحهم عن الخارطة، بفضل وجودهم على الأرض ،الذي تعزز وتقوى على مدار العقود الخمسة الماضية، وأصبح يميل لصالحهم، فهل يتنبهون إلى أهمية وخطورة وجودهم على دولة إسرائيل، ويتبنون مشروعا سياسيا جديدا يأخذ المعطيات الحالية الايجابية لهم بعين الاعتبار ؟.

الهوامش:

١ . جلسة المجلس الوزاري المصغر لشؤون الأمن مع هيئة الأركان العامة، أرشيف دولة إسرائيل، ١٩٦٧/٦/٢.

٢ . جلسة الحكومة الثانية عقدت الساعة الثانية عشرة والنصف ظهرا، بكامل هيئتها وبحضور رئيس الأركان، أرشيف دولة إسرائيل، ص ٣٣، ١٩٦٧/٦/٤.

٣ . يضم المجلس الوزاري المصغر لشؤون الأمن، أرشيف دولة إسرائيل، ١٩٦٧/٦/٢، رئيس الأركان الذي يعتبر عضوا أساسيا فيه. حضر الجنرال إسحاق رابين كل جلسات اللجنة، باستثناء بعض الجلسات التي عقدت خلال الحرب. من حيث اتخاذ القرار، المجلس الوزاري المصغر لشؤون الأمن أهم من الحكومة العادية.

٤. مصدر سبق ذكره.

٥. مصدر سبق ذكره.

٦. المجلس الوزاري المصغر لشؤون الأمن، أرشيف دولة إسرائيل، ص ٤، ١٩٦٧/٦/٧

٧. لم يستخدم مصطلح فلسطيني في كل جلسات الحكومة، وكان مصطلح عربي هو المصطلح الدارج، رغبة من إسرائيل بمحو الفلسطينيين عن خارطة أي حل مستقبلي على اعتبار أن حل قضيتهم يتم في الدول العربية فقط.

٨. مصدر سبق ذكره، ص ٤.

٩. مصدر سبق ذكره، ص ٣٠.

١٠. الراحلين حمدي كنعان من نابلس ونديم الزرو من رام الله ورئيس بلدية جنين محمد الجعبري من الخليل وراغب العلمي من غزة.

١١. أرشيف دولة إسرائيل، جلسة الحكومة العادية، من ص٢-١٥، ١٩٦٧/٦/١٨.

١٢. أرشيف دولة إسرائيل، جلسة الحكومة العادية، ص ٣٩، ١٩٦٧/٨/٢٠.

١٣. مصدر سبق ذكره، جلسة رقم، ص ١٧، ١٩٦٧/٦/١٨.

١٤. نفس المصدر.

١٥. نفس المصدر، ص ١٨.

١٦. أرشيف دولة إسرائيل، جلسة الحكومة العادية، ص ٤١، ١٩٦٧/٧/٢٣.

١٧. المصدر نفسه.

١٨. المصدر نفسه، ص ١٦.

١٩. جلسة الحكومة العادية، ص ١٠، ١٩٦٧/٨/٢٠.

٢٠. نفس المصدر

٢١. جلسة الحكومة العادية، ص ١٤، ١٩٦٧/٦/٢٧.

٢٢. شموئيل باهط، الحي الذي وقف في وجه حائطنا، هدم حارة المغاربة قرب «الحائط الغربي»، بمبادرة من رئيس بلدية القدس تيدي كوليك والجنرال عوزي نركيس ووزير الدفاع موشيه ديان، مجلة عت-مول، ص ٢٥٠، ٢٠١٥.

٢٣. أرشيف دولة إسرائيل، ص ٢٦، جلسة الحكومة العادية بتاريخ ١٩٦٧/٦/١٤ .

٢٤. نفس المصدر، ص ٢٠.

٢٥. ويكبيديا، نشرت قصقوصة جريدة دفار المنشور فيها الاتفاق، بعنوان قصر المندوب السامي، ١٩٦٧/٨/٢٤.

٢٦. المجلس الوزاري المصغر لشؤون الأمن، أرشيف دولة إسرائيل، ص ٤٨، ١٩٦٧/٦/١٥.
٢٧. أرشيف دولة إسرائيل، جلستي الصباح والمساء، ص ٧، ١٩٦٧/٨/٢٠.
٢٨. مصدر سبق ذكره، ص ١٨، جلسة ١٩٦٧/٦/١٥.
٢٩ . المصدر نفسه، ص ٢٤.
٣٠. أرشيف دولة إسرائيل، جلستي الحكومة الصباحية والمسائية، ص ٤٣، ١٩٦٧/٨/٢٠.
٣١. المصدر نفسه.
٣٢. مصدر سبق ذكره، من ص ٤٧-٤٨، ١٩٦٧/٦/١٥.

وعد بلفور:
توراة الحركة الصهيونية.. وإنجيل الغرب الاستعماري

عزيز العصا*

مقدمة

حلّت في الثاني من تشرين الثاني من العام ٢٠١٧ الذكرى المئوية للوعد الذي سلّمه وزير الخارجية البريطاني آنذاك «آرثر جيمس بلفور» إلى اللورد «ليونيل وولتر دي روتشيلد»، يشير فيها إلى تأييد الحكومة البريطانية إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين. وفي هذه الذكرى المؤلمة تبارت الأقلام وتدافع الكتاب والمحللون والسياسيون للكتابة. وكان لكل كاتب زاوية رصد منها مبررات ودوافع بريطانيا لمنح هذا الوعد اللاأخلاقي، والنتائج الكارثية التي نجمت عنه.

سوف نتناول في هذا المقال، وعد بلفور بأبعاده الفكرية والأيديولوجية، وبمحركاته الاستعمارية من قبل القوى الاستعمارية العظمى ذات المصالح في المنطقة. إذ أن وعد بلفور لم يكن عبارة عن بضعة أسطر صاغها «بلفور» من خياله، إرضاءً للحركة الصهيونية، وإنما هو تعبير عن تحوّل مفصلي، شهده العالم في تلك الحقبة، ما جعل بريطانيا تعتبره «إنجازاً!» تعتز به، وتحتفل بمئويته أكثر ابتهاجًا من «إسرائيل» نفسها التي أنشأها هذا الوعد. كما سيتطرق المقال إلى مقدّمات الوعد، ذات العمق التاريخي والعقائدي، ونتائجه الكارثية الممتدة لعقود قادمة، يصعب على المرء تقديرها.

نص الوعد: ألغام تستمر انفجاراتها

لا يمكننا التحدث عن هذا الوعد، دون سبر غور النص، وتفهّمه، ووضع الأجيال اللاحقة في صورة

* باحث من فلسطين

الإجحاف والظلم الذي أوقعه عليها، لكي تبقى ممسكة بناصية حقوقها ولا تتنازل عنها. فقد جاء في هذا الوعد ما نصّه:

عزيزي اللورد روتشيلد

يسرني جدا أن أبلغكم بالنيابة عن حكومة جلالته، التصريح التالي الذي ينطوي على العطف على أماني اليهود والصهيونية، وقد عرض على الوزارة وأقرته:

«إن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وستبذل غاية جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية، على أن يفهم جليا أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن ينتقص من الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن في فلسطين ولا الحقوق أو الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى.»

وسأكون ممتنا إذا ما أحطتم الاتحاد الصهيونى علما بهذا التصريح.

بقراءة متمعّنة، نجد أن هذا النص يُقرّ بأنها فلسطين –وليس لها أي إسم آخر-، كما أنه يحمل أيديولوجيا شرّيرة جوهرها: إن إلغاء شعب وإحلال شعب آخر مكانه، ووفق حسابات الحقل والبيدر الاستعماريين، أمر بسيط، وأن الشعوب مجرد «أشياء»، يمكن التخلص منها بسهولة ويُسر، طالما أن القوة متوفرة، وقادرة على السيطرة وتحقيق مصالح القوة الغازية».

ثم يَفصِل، تمامًا، بين اليهود وغير اليهود؛ فاليهود «شعب» ولهم وطن، وسيكون وطنهم «فلسطين»، وأما غير اليهود، على أرض فلسطين فليس لهم حق المواطنة، وإنما لهم حقوق مدنية تتعلق بممارسة حياتهم اليومية «البيولوجية!»، وممارسة شعائرهم الدينية. كما أن «وعد بلفور» يحافظ على حقوق اليهود في البلدان الأخرى التي يتواجدون فيها.

بذلك، نجد أن منبع هذا الوعد الرؤية الصهيونية الاستيطانية-الإقليمية التي لم ترَ في الآخر سوى أداة لتحقيق مآرب ومخططات، تسعى من أجل بناء دولة يهودية على حساب الآخر١ .

محاولات غربية متعددة على مدى (١٢٠) عامًا.. والأهداف استعمارية

تتمتع فلسطين بأهمية استراتيجية، عبر العصور. لذلك، كانت محط أطماع القوى الاستعمارية؛ كل منها يسعى إلى توظيفها لصالح حركته التجارية وتنقل جنوده بين القارات، لكي يحسم أمر معركته مع أعدائه لصالحه. فكان «نابليون» القائد الفرنسي التاريخي أول من تنبّه إلى ذلك وأعلن على الملأ، في العام ١٧٩٨ أثناء غزوه لفلسطين، عن رغبته بإنشاء وطن لليهود في فلسطين، عندما وجّه نداءً (لليهود)، جاء فيه٢ : «أيها الإسرائيليون، أيتها الأمة الفريدة فرنسا تقدم لكم ورثة آبائكم، استعيدوا ما أخذ منكم بالقوة ودافعوا عنها، بدعم فرنسا ومساعدتها».

وقد هدف نابليون من هذا النداء، الذي أعلنه في ظلّ الدولة العثمانية، وقبل (١٢٠) عامًا من انهيارها، إلى تحقيق عدد من الأهداف الاستراتيجية، منها٣: إيجاد حاجز مادي بشري يفصل ما بين مصر وسوريا، واستغلال ذلك في تسهيل وتدعيم الاحتلال الفرنسي لكل منهما، وتهديد مصالح بريطانيا من خلال إغلاق طريق مواصلاتها المؤدّية إلى الهند.

بذلك، يكون نابليون أول من يقترح إقامة دولة يهودية في فلسطين، وقد سبق «بلفور» بمائة وعشرين عامًا. الأمر الذي جعل وايزمان-الصهيوني يصفه بأنه أول الصهيونيين الحديثين غير اليهود٤.

أما بريطانيا فتجرّأت على الدولة العثمانية، وأخذت ترفع صوتها للاستحواذ على فلسطين، بشتى الوسائل والطرق، فطرحت المشاريع والأفكار الطموحة بشكلٍ علني، منها:

في أوائل القرن التاسع عشر، ألّف «شافتسبري»؛ وهو شخصية بريطانية مهمة، كتابًا، بعنوان: «انجلترا وفلسطين»، يقول فيه: «لا يوجد حتى الآن نظام فعّال للدفاع عن مواصلاتنا مع الشرق على خط القناة، وأن الحكمة الاستراتيجية تجعل من الضروري التقدم إلى ما وراء ذلك الخط، وتشكيل حصن للدفاع عن أهم نقطة حيوية حساسة في نظامنا الدفاعي... وأن كل شيء يشير إلى أن تلال يهوذا هي الحامية الحقيقية ضد أي هجوم من سوريا»٥.

وفي العام ١٨٣٨ أطلق اللورد آشلي/ البريطاني دعوة لجمع اليهود على أرض فلسطين؛ كخطوة أولى نحو تنصيرهم، باعتبار أن استعمار فلسطين ضرورة للاقتصاد البريطاني، الذي شهد آنذاك ازدهاراً وتوسعاً نتيجة للثورة الصناعية٦.

لم يتوقف الأمر عند الفرنسيين والبريطانيين، وإنما شهد القرن التاسع عشر أيضًا دخول الألمان والإيطاليين والأميركان على الخط أيضًا. وطرح كل منهم مشروعًا أو أكثر يهدف إلى الاستحواذ على فلسطين:

في العام ١٨٤١ أعلن الضابط الألماني «فون مولتكه» عن مشروع، ينص على إنشاء «مملكة القدس»، يتم فيها بعث التقاليد والقيم الصليبية، ويجعل من فلسطين دولة واقية بين مصر وسورية، وجسراً يربط أوروبا بالقارة الهندية. وفي العام ١٨٥٣، دعا كريستوف هوفمان/ الألماني إلى جعل فلسطين موطناً لشعب الله، وشعب الله هذا ليس الشعب اليهودي، الذي لم يعد له وجود، وإنما هو الشعب المسيحي الإنجيلي٧ .

كما ارتفع صوت الفيلسوف السياسي الإيطالي «بنيديتّو موسولينو»، مطالباً بعودة اليهود وسيلة من أجل نشر الحضارة الأوروبية في الشرق٨. وفي منتصف القرن التاسع عشر، كتب وليام بلاكستون/ رجل أعمال مسيحي-أميركي، كتاباً بعنوان «يسوع آتٍ»، دعا فيه إلى تجميع اليهود في فلسطين، وإلى منحهم الدعم المسيحي، كي تعود فلسطين وطناً لهم٩

بهذا تكون المشاريع الأوروبية غير محصورة على الدافع الديني الخاص باليهود؛ وإنما هناك توجّسات دينية أخرى، تتناقض مع اليهودية، كتلك التي تهدف إلى حشد اليهود في فلسطين من أجل تنصيرهم.

وأما بالنسبة لليهود، فلم تكن حتى ذلك الحين، قد تأججت فيهم الرغبات الدينية نحو فلسطين. وإنما انبثقت عن العقول والعبقريات الاستعمارية أفكار ورؤى، تم افتعالها لاحقًا، ثم توظيفها بمنتهى العبقرية والذكاء، لكي تؤجج في البسطاء من اليهود الرغبة والاستعداد والجهوزية للتضحية من أجل العودة إلى فلسطين. ففي الحوار الذي جرى بين «نيولنسكي»١٠ وبين السلطان عبد الحميد الثاني، عندما سأله السلطان: هل اليهود مصممون على أخذ فلسطين بأي ثمن؟ قال نيولنسكي: إذا لم يحصلوا على فلسطين فسوف يذهبون إلى الأرجنتين١١.

وهناك خبيرة عالمية في الحفريات، تقول: لا أثر لأي أبنية يهودية في القدس، ثم تؤكد أنه لا أثر لما بناه سليمان، كما أن «اسرائيل» نفسها لم تعثر على آثار عن عهد الهيكل أو زمن سليمان أو داود داخل المدينة القديمة١٢. وأما بشأن حائط البراق الذي يدعي اليهود ملكيته، فإن لجنة دولية مشهورة بالآثار أصدرت في العام (١٩٣٠) تقريرًا ينص على أن «حائط (المبكى) بالذات أثر إسلامي مقدس، وهو ملك عربي ووقف إسلامي»١٣.

«بلفور».. بين الاستيطان والوعود والضغوط

لاحقًا لما هو مذكور أعلاه، تتسارع الأحداث، ويبدأ الاستيطان اليهودي في فلسطين، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وتعلن الحركة الصهيونية عن نفسها، وتعقد مؤتمرها الأول في العام ١٨٩٧.

وعندما اشتعلت شرارة الحرب العالمية الأولى في العام ١٩١٤، كان في فلسطين (٣٦) مستمعرة يهودية، واليهود يشكلون ٥٪ من السكان، ويمتلكون ٠,٨٪ من الأرض.

في هذه الأجواء أخذت الحركة الصهيونية تنشط؛ لكي تستحوذ على ما تريده من الكعكة العثمانية، وهي فلسطين. ففي العام ١٩١٥، قدم وايزمن وهربرت صموئيل١٤ للإنجليز مقترحات لإقامة الدولة اليهودية ذات الطابع الاستعماري١٥: كان صموئيل يحلم بإرسال ثلاثة ملايين يهودي لحماية قناة السويس للإنجليز، بينما قدم حاييم وايزمن اقتراحًا، بأنه في حال أصبحت فلسطين تابعة للنفوذ البريطاني، فهو مستعد لجلب مليون يهودي خلال (٣٠-٢٠) عامًا وزرعهم كحراس على قناة السويس؛ وذلك بزيادة عدد المستعمرات اليهودية في القسم الجنوبي من فلسطين.

ليس هذا وحسب، وإنما هناك صهاينة آخرين، من داخل بريطانيا وخارجها، كانوا يلوّحون لبريطانيا، المنهكة من الحرب، بإغراءات لا تنافس من أجل إصدار هذا الوعد. فيقول أحد أحفاد «روتشيلد –الذي تسلّم الوعد في حينه- أن النص النهائي للوعد قد جاء «ثمرة المحاولة الخامسة لصياغته». كما أن هناك من يرى أن وعد بلفور هو «مأثرة» اليهودي «لويس براندیس»؛ الصديق الحميم للرئيس الأميركي «ولسون». وهناك دلالات تشير إلى أن علاقة جمعت بلفور مع مؤسس الحركة الصهيونية «هيرتزل»، كان عرّابها القس «وليم هتشلر» ممثّل الكنيسة الأنجليكانية البريطانية في فيينا١٦.

وعد بلفور: توراة الحركة الصهيونية.. وإنجيل الغرب الاستعماري

هكذا، جاء وعد بلفور في الثاني من تشرين الثاني/ نوفمبر من العام ١٩١٧، فتلقّفه اليهود ببالغ الغبطة والفرح والسرور؛ لأنه ضمانة لهم من «بريطانيا العظمى» لمساعدتهم في إنشاء دولتهم الحلم. وأخذوا يعضون عليه بالنواجذ، باعتباره (توراة) اليهود –أو الحركة الصهيونية- في إثبات حقهم بالعودة إلى فلسطين، وبالوطن القومي١٧.

وأُتبع الوعد بانتهاء الحرب العالمية الأولى والدولة العثمانية تلفظ أنفاسها، وتم تنفيذ اتفاقية سايكس-بيكو الشهيرة التي اقتسم فيها الغرب تركة الدولة العثمانية. وأُسنِدَ أمر احتلال فلسطين واستعمارها إلى بريطانيا، صاحبة الوعد المذكور. وإذا ما عدنا إلى المشاريع-الحلم التي كان يطرحها المفكرون البريطانيون، بالاستحواذ على فلسطين واستغلال موقعها الاستراتيجي، فإن وعد بلفور المدعوم أميركياً وفرنسياً، في ذلك الحين، هو بمثابة (إنجيل) بريطانيا على وجه الخصوص، والغرب على وجه العموم، وسوف يستفيد منه كل من يسعى إلى السيطرة على المنطقة واستعمارها ونهب خيراتها.

بريطانيا.. وجريمة الحكم

منذ أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها أحكمت بريطانيا قبضتها على فلسطين وشرق الأردن، وقامت الإستراتيجية البريطانية على «تجهيز» فلسطين وإعدادها؛ تمهيداً للخطّة المناسبة التي تعلن فيها الدولة «اليهودية» على أرض فلسطين.

وفي العام ١٩٢٢م انتدبت بريطانيا على فلسطين، ليصبح «حاميها حراميها»، وليتم تنفيذ ذلك الوعد. فكان أول مندوب سامٍ على فلسطين هو «هربرت صموئيل» الصهيوني المذكور أعلاه؛ الذي أسهم في صياغة الوعد، والذي قال عند مغادرته إلى فلسطين: "أنا ذاهب لتنفيذ الأوامر المتعلقة بتحقيق مشروع دولتي؛ بإنشاء وطن قومي يهودي في فلسطين١٨.

حتى أن «بلفور» نفسه كان يحضر إلى فلسطين، ويتابع أمور «اليهود» عن كثب، ففي العام ١٩٢٥ كان «بلفور» إلى جانب صموئيل في افتتاح الجامعة العبرية، وقد قوبل حضوره بحالة هيجان شعبي فلسطيني، عبّر عنه الشاعر «محمد علي الصّالح» في قصيدة بعنوان «ليلى وبلفور»، بحضور مفتي الديار الفلسطينية، في حينه، الحاج أمين الحسيني، يحث فيها على الثورة والمواجهة، بالقول: قل لهم «بلفور» يَأْتيكُمْ غَداً// هل تكاتَفْتُمْ إلى هذا الخَبَرْ.

ونظراً لأن الإستراتيجية البريطانية في إعداد فلسطين لإنشاء الدولة اليهودية، متعددة الأبعاد والعناصر والأنشطة، فسنكتفي بذكر أهم ما ورد فيها من إجراءات على الأرض من قبل المنتدِب البريطاني لصالح «الدولة الموعودة»، رافقتها أحداث جسام، منها:

على المستوى الديمغرافي: فقد شهدت حقبة الانتداب تسريب الأراضي لليهود من الفلسطينيين، بالتحايل والسرقة والترهيب، فانتقل حجم ممتلكات اليهود من (٦٢٠) ألف دونم في العام (١٩٢٠)؛ كأي ممتلكات لأقلية تعيش في فلسطين، إلى (مليوني) دونم في العام ١٩٤٨ ١٩. كما تم فتح أبواب فلسطين لمزيد من الهجرات اليهودية، حتى ارتفعت نسبة اليهود من ٥٪ بداية الانتداب، إلى ٣١٪ عند نهايته في العام ١٩٤٨ ٢٠ وبعدد (٦٥٠) ألف نسمة.

على المستوى الإداري: قامت بريطانيا بتوظيف الضباط العسكريين والإداريين البريطانيين الذين يؤيدون الصهيونية؛ من أجل تقديم الدعم لليهود في فلسطين. كما عملت على تهويد المؤسسات الحاكمة بصورة تدريجية؛ بتعيين عدد من اليهود الصهاينة، أو المسيحيين المتصهينين٢١.

على المستوى الأمني: قامت بريطانيا بطرد العرب من أرضهم، ويكون ذلك بوضعهم في ظروف سياسية واقتصادية وتعليمية وعسكرية صعبة، ثم وضع المهاجرين اليهود في أماكنهم. وعززت ذلك بالعمل على خلق اضطرابات بين العرب واليهود؛ حتى تسهل عملية الهجرة٢٢.

وعلى الجانب الآخر؛ غضت بريطانيا النظر عن الأنشطة العسكرية الصهيونية، بل سهّلتها ويسّرتها، فتم إنشاء الهاغاناه، التي تعتبر نواة جيش (الدفاع) الإسرائيلي، وغيرها من القوى الأمنية و/ أو العسكرية الصهيونية. كما استغلت الحركة الصهيونية ظروف الحرب العالمية الثانية وموافقة حكومة لندن فشكلت لواءً يهودياً شارك في الحرب وحمل العلم العبري الخاص به٢٣.

على المستوى الاقتصادي: لقد ساهمت السياسة التي اتبعتها سلطات الانتداب البريطاني في فلسطين بشكل كبير في هيمنة الحركة الصهيونية على الاقتصاد في فلسطين٢٤. كما قامت بعزل اليهود من سكان فلسطين عن الفلسطينيين، وإيجاد قيادة سياسية صهيونية؛ حتى تصبح نواة للحكومة القادمة٢٥. وبحلول سنة ١٩٤٤، أصبح الاقتصاد اليهودي في فلسطين مختلفاً اختلافاً جذرياً عن الاقتصاد العربي، وهو ليس في واقع الأمر شديد الاختلاف عن اقتصاد بريطانيا (العظمى)٢٦.

على مستوى التعليم: استفادت الحركة الصهيونية من الدعم البريطاني في مجال التعليم والمنح المقدمة لها، دون التعليم العربي، فأسست العديد من المدارس الخاصة، والدينية، والمهنية، والزراعية، كما أسست الجامعة العبرية التي كانت القاعدة الأولى في التعليم العالي الصهيوني في فلسطين٢٧.

هكذا، تكون الأطماع الصهيونية قد داهمت الشعب الفلسطيني وهو في حالة من الفقر المدقع، ولا يملك إلا ثروة ضئيلة ومحدودة من الكوادر المتعلمة، مقارنة بالغنى الاقتصادي والثروة الضخمة من الكوادر المتعلمة العليا، عند الحركة الصهيونية والجاليات اليهودية. لينتهي الأمر بالفلسطينيين إلى الاعتماد على الفطرة في إنماء الوعي (بديلاً) للتحصيل المعرفي٢٨.

رغم الحال الذي هم فيه، ثار الفلسطينيون على الانتداب-الاحتلال وقاوموه بما امتلكوا من سلاح بسيط، وقدموا قوافل الشهداء والجرحى والمعاقين. وقام الاحتلال بحل جميع المنظمات السياسية الفلسطينية، وترحيل زعمائهم، وتشكيل محاكم عسكرية لثوارهم، كانت تنفذ أحكام الإعدام بلا هوادة.

بريطانيا.. والنكبة-الجريمة

لم تغادر بريطانيا فلسطين، إلا بعد أن ضمنت نكبة شعبها؛ من خلال تسليح اليهود، بشتى أنواع الأسلحة، وتدريبهم وتأهيلهم. ويقابل ذلك تجريد العرب من أسلحتهم، وجعلهم عاجزين عن فعل أي شئ أمام القوة المفرطة التي يمتلكها اليهود. ورغم ذلك، كانت الحرب على الشعب الفلسطيني، الذي قاوم قدر استطاعته، على مدى نحو عشرين شهرًا، خلال الفترة (١٩٤٩-١٩٤٧). وانتهى الأمر بإقامة «دولة إسرائيل» على ٧٨٪ من أرض فلسطين.

يرى «أوري ديفيس» أن تلك النكبة قد أسفرت عن جريمة ضد الإنسانية، جعلت نحو مليون فلسطيني لاجئين من أبرز ملامحها٢٩:

جريمة التطهير العرقي الواسع للشعب الفلسطيني.

جريمة الترحيل الجماعي، التي نجم عنها تهجير زهاء مليون شخص -حوالى ٩٠٪- من العرب الفلسطينيين الأصليين، ممن كانوا يقيمون على الأراضي التي وقعت تحت السيطرة الإسرائيلية. وبقي نحو (١٥٠,٠٠٠) فقط داخل حدود الدولة الناشئة، تم التهجير الداخلي لهم عن مساكنهم وأراضيهم أيضًا؛ ليصبحوا «حاضرين غائبين».

تجريد المُهجَّرين من ممتلكات عقارية؛ ريفية ومدينية شاسعة، ومن الممتلكات المالية. ويقدر أن العرب الفلسطينيين كانوا يمتلكون نحو (٩٠٪) من الأراضي، التي تتوزع عليها مئات القرى والمدن (تعتبر مدناً إقليمية)، تم محو (٥٠٠) ناحية عربية؛ ريفية ومدينية وتسويتها بالأرض، ليتم إنشاء «دولة إسرائيل».

وضع تلك الثروة الضخمة، المنهوبة بالقوة، لصالح الاستيطان الكولونيالي اليهودي (لليهود فقط). والتي قدرتها الأمم المتحدة، بنحو (١٢٠) مليون جنيه فلسطيني (يساوي الجنيه الاسترليني في حينه؛ والجنيه يقابل حوالى ثلاثة دولارات). وقدرت جامعة الدول العربية ذلك بعشرة أضعاف تقدير الأمم المتحدة.

تجريد أولئك المُهجّرين من حقهم بالجنسية، خالقة بذلك مشكلة اللاجئين الفلسطينيين.

تم كل ما ورد أعلاه، وغيره، تحت مظلة استغلال «الاحتلال النازي لأوروبا وما جرى لليهود من قبل النازية»؛ مما قلل من فرص انتقاد المذابح التي تمت بحق الفلسطينيين.

نتائج أسوأ من الوعد.. وأوسع منه.. والمستقبل مخيف!

نلاحظ من نتائج حقبة الانتداب، التي انتهت بالنكبة وإنشاء «دولة بلفور» الموعودة، أنه عند تنفيذ الوعد كانت الحركة الصهيونية ومن خلفها بريطانيا، من السوء أضعاف أضعاف ما جاء في النص؛ بأن تم محو فلسطين الشعب والحضارة والوجود والهوية، ولم يتوقف الأمر عند الحرمان من المواطنة، وإنما قامت القوّة المفرطة المستخدمة بالإتيان على الحقوق المدنية والدينية المذكورة في الوعد، التي لم يتم منحها لأصحاب الأرض الشرعيين؛ فعانوْا من المذابح والتشريد والتهجير، ومن بقي منهم على أرضه، مُنع من ممارسة تلك الحقوق على مدى نحو عشرين عامًا من تاريخ إنشاء الدولة اليهودية.

لم يتوقف الأمر عند هذا الحد، وإنما أخذت الدولة الوليدة، ومنذ أيامها الأولى بالتحرش بجيرانها من دول الجوار (العربي)، وتدبير القلاقل والفتن داخل كل قطر من تلك الأقطار بطريقة تضمن حالة الاضطراب الدائم وعدم الاستقرار الداخلي، فشاركت في العدوان الثلاثي على مصر في العام ١٩٥٦، وامتدت أذرعها الأمنية حتى المغرب وعمان واليمن. ويتم ذلك كله بالتنسيق مع الولايات المتحدة وبريطانيا، ومع أذرعهما من دول المنطقة.

وفي العام ١٩٦٧ كخيار إسرائيلي، أصرّ عليه ضباط هيئة الأركان العامة للجيش، إذ تأكد لديهم ضعف العدو البالغ، فأرادوا توجيه ضربة قاتلة، واستكملت احتلال ما تبقى من فلسطين٣٠، التي لا تزال ترزح تحت أطول احتلال في التاريخ المعاصر.

وبعد هذه الحرب ونتائجها، تبدأ إسرائيل بالتمدد مكانيًا وزمانيًا، بعد أن دمرت العديد من القرى الفلسطينية، بخاصة الحدودية منها، وسحقت حارة المغاربة وحولت حائط البراق الإسلامي إلى «المبكى» اليهودي، ووحدت القدس كعاصمة لها، ثم أخذت تعيث فسادًا في المدن والقرى والبلدات والمزروعات والأشجار، ونشرت المستعمرات على طول الضفة الغربية وعرضها، حتى وصل عدد المستوطنين فيها مؤخرًا إلى نحو (٦٥٠) ألف مستوطن.

أي أن الوعد أصبح بلا حدود ولا مساحة لأرض، وأن شعوب المنطقة المحيطة بفلسطين، بالإضافة إلى الشعب الفلسطيني، أصبحت تعيش تحت رحمة عنجهية القوة التي تمتلكها دولة الوعد، وما تمتلكه من دعم -لا محدود- من أعتى قوى الأرض. ولعل ما يفسّر ذلك، مفهوم موشيه دايان لـ «أرض الميعاد»، إذ يقول: من الواجب علينا أن نمتلك جميع الأراضي المنصوص عليها في التوراة٣١. كما أن هناك حقيقة تفيد بأنه «لا يهم أين يعيش اليهودي، فإنه يحمل وطنه معه من خلال دافعه الديني غير المحدود٣٢ .

وهذا ما يجعل المستقبل مخيفًا، وأن أبواب الصراع سوف تبقى مفتوحة على كل الاحتمالات، على أرض فلسطين وجوارها، وفي أي بقعة في العالم؛ لأنه لا يمكن لأي كان أن يحدد الأراضي المنصوص عليها في التوراة، كما أن «شهوة» الاستحواذ تبقى مفتوحة، ولا تتوقف عند مكان ما أو زمان ما، طالما أن هناك من يقلّب «التوراة» ويتصفحها ويقرأها وفق أهوائه الفكرية والعقائدية والسياسية.

للقانون كلمته

وأما على المستوى القانوني المتعلق بهذا الوعد، فهناك العديد من القانونيين الذين تناولوه من وجهة نظر القانون الدولي، وسوف أشير في هذا الجانب إلى «د. خليل حسين» في مقال له في صحيفة

الخليج، بتاريخ: ٢٠١٧/١١/٠٨، وأبرز ما جاء فيه٣٣:

وعد بلفور هو اتفاق غير جائز بالمطلق، باعتباره يجسد صورة انتهاك لحقوق شعب فلسطين، وبالتالي يعتبر مخالفاً لمبادئ الأخلاق والقانونين الدولي والإنساني.

لا يعتبر التصريح معاهدة دولية ترسي حقوقاً وواجبات على من وقعها. وبريطانيا لا تملك فلسطين حتى تتمتع بمشروعية إصدار هذا التصريح. كما أن وعد بلفور خطاب أرسله بلفور إلى شخص لا يتمتع بصفة التعاقد الرسمي وهو روتشيلد.

كما يعتبر وعد بلفور باطلاً لعدم شرعية مضمونه، حيث إن موضوع الوعد هو التعاقد مع الحركة الصهيونية لطرد شعب فلسطين من أراضيه، وإعطائها إلى غرباء استجلبوا من أصقاع الدنيا كافة. وطرد شعب من أرضه ترفضه الشرائع الدولية.

إضافة إلى انتهاك آخر لقواعد ميثاق عصبة الأمم المتحدة، عبر إدماج تصريح وعد بلفور في صك الانتداب على فلسطين، وإقراره من قبل العصبة في ١٩٢٢/٧/٢٤.

... وتستمر الجريمة

أمام عنجهية القوة التي تسيطر على العالم، عبر المائة عام الأخيرة، وأمام الفظائع الموصوفة أعلاه، والتي جوهرها محو شعب وحضارة وهوية عن أرض فلسطين، وإنشاء شعب آخر، قادم من خلف البحار، مكانه، لا يمكننا أن نتوقف عند شخص بلفور ووعده، الذي كان تنفيذًا لسياسة دولته، وحسب، وإنما علينا أن نجمع المشهد من جميع أطرافه الأوروبية وغير الأوروبية -من الغرب والشرق-، لنخرج بنتيجة مذهلة، مفادها: إن المؤامرة واسعة ومتعددة الأبعاد، وأن «وعد بلفور» هو صورة أخرى لـ «نداء نابليون»، وأن المجرمين بحق الشعب الفلسطيني، والذين سيحاسبهم التاريخ -عندما يحل المنطق محل عنجهية القوة- كُثر، عندما حلّت مصالحهم محل ضمائرهم.

إنها الجريمة ذاتها، التي انطلقت شرارتها قبل مائة عام لا تزال مستمرة؛ فغالبية شعبنا في المخيمات، بعيدًا عن أرض الآباء والأجداد، و»إسرائيل» التي أنشئت على أرضها، لا تزال تترعرع وتكبر وتتضخم على حساب ما تبقى من الأرض، ولا تزال تلاحق الشعب الفلسطيني، أفرادًا وجماعات، بالسجون والحروب، والحواجز، وبشتى أنواع القمع. كما أنها تعد الخطط، وتوفر آليات التنفيذ لإغراق الجوار العربي بالفتن والحروب الداخلية، التي ستستمر لعدة عقود قادمة.

ليس هذا وحسب، وإنما لا تزال روح الجريمة، تسري في جسد الصف الاستعماري، وعلى رأسه

بريطانيا؛ بإصرارها، بعد مائة عام من وعدها، على أن ما جرى بحق الملايين من الشعب الفلسطيني من قتل وتشريد وحرمان من حق العيش كبشر تحت الشمس، هو مشروع ولا يستحق حتى كلمة «اعتذار»!

فلسطين، بيت لحم، العبيدية، ٢٠١٧/١١/٢٢

الهوامش:

١ منصور، جوني (٢٠٠٤). «مشروع لم يكتمل تاريخيًا: الدولة اليهودية من الارجنتين إلى فلسطين». مجلة قضايا إسرائيلية، المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية. العدد (١٤). ص: ٧٣-٨٤.

٢انظر الموقع الالكتروني «إسرائيل بالعربية»:

.(نابليون-بونابرت-اليهود-ورثة-فلسطين/ (http://www.israelinarabic.com/2014/7/24

٣ محمود، أمين عبد الله (١٩٨٤). مشاريع الاستيطان اليهودي منذ قيام الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى. سلسلة عالم المعرفة، عدد (٧٤). الكويت. ص: ١٣-١٤.

٤ الدجاني، يعقوب، والدجاني، لينا (٢٠٠١). فلسطين واليهود: جريمة الصهيونية والعالم. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. عمان-الأردن. ط١. ص: ١٣.

٥ شلايل، عمر (٢٠١٣). فلسطين في صراع الشرق الأوسط. دار الجندي للنشر والتوزيع. القدس. فلسطين. ط١. ص: ٩٠.

٦ محافظة، علي (٢٠٠٩): المستعمرات الألمانية في فلسْطين. الموقع الالكتروني لـ «مجلة مجمع اللغة العربية الأردني». الجامعة الأردنية. انظر الرابط (تم الوصول إليه في ٢٠١٤/٨/٢٦):

http://www.majma.org.jo/majma/index.php/2009748-/00-36-09-10-02-mag93-10-.html.

٧ محافظة (٢٠٠٩). مرجع سابق.

٨ الحوت، بيان (١٩٩١). فلسطين (القضية-الشعب-الحضارة): التاريخ السياسي من عهد الكنعانيين حتى القرن العشرين. دار الاستقلال للدراسات والنشر. بيروت، لبنان. ط١. ص: ٢٩٧-٢٩٨.

٩ حمدان، عبد المجيد (٢٠٠٧). إطلالة -١- على القضية الفلسطينية. المركز الفلسطيني لقضايا السلام والديموقراطية. رام الله، فلسطين. ص: ٢٤.

١٠ نيولينسكي هو صديق هيرتزل الذي كان وسيطًا بين هيرتزل والسلطان عبد الحميد.

١١ نصيرات، فدوى (٢٠١٤). السلطان عبد الحميد الثاني ودوره في تسهيل السيطرة الصهيونية على فلسطين (١٩٧٦-١٩٠٩). مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت، لبنان. ط١. ص: ١٤٩.

١٢ الدجاني والدجاني (٢٠٠١)، مرجع سابق. ص: ٣٤-٣٥.

١٣ نفس المرجع السابق،

١٤ من أشهر الصهاينة الذين لعبوا دورًا في إصدار وعد بلفور.

١٥ جبارة، تيسير (١٩٨٦). دراسات في تاريخ فلسطين الحديث. مؤسسة البيادر الصحافية. القدس، فلسطين. ط٢. ص: ٤٦-٤٧.

١٦ مضية، سعيد (٢٠١٧). بلفور وتداعياته الكارثية.. من هم الهمج: نحن أم هم؟. منشورات وزارة الثقافة الفلسطينية. الطبعة الأولى. ص: ٢٢-٢٥.

١٧ الخالدي، حسين فخري (٢٠١٤). ومضى عهد المجاملات... مذكرات –بيروت ١٩٤٩-. دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن. المجلد الأول. ط١. ص: ٨٣.

١٨ الفرا، عبد الناصر. البُعد السياسي لفلسطين من عام ١٩١٤-١٩٤٨. جامعة القدس المفتوحة – غزة – فلسطين انظر: http://www.qou.edu/arabic/researchProgram/researchersPages/abdulNasserFarra/PalestinePoliticalDimension.pdf

١٩ الصلاحات، سامي (٢٠١١). الأوقاف الإسلامية في فلسطين ودورها في مواجهة الاحتلال الإسرائيلي. مركز الزيتونة للدراسات والنشر. بيروت، لبنان. ص: ٤٣.

٢٠ السهلي، نبيل (٢٠١٤). بريطانيا وفلسطين.. بين وعديْن. الجزيرة.نت. انظر الرابط (أمكن الوصول إليه بتاريخ: ٢٠١٧/١١/٢١):

http://www.aljazeera.net/knowledgegate/opinions/2014/2/11/بريطانيا-وفلسطين-بين-وعدين

٢١ مقدادي، إسلام (٢٠٠٩). العلاقات الصهيونية البريطانية في فلسطين، ١٩٣٦-١٩٤٨. رسالة ماجستير، غير منشورة. الجامعة الإسلامية. غزة، فلسطين. ص: ٦.

٢٢ الفرا، مرجع سابق.

٢٣ مقدادي (٢٠٠٩)، مرجع سابق. ص: ٢٦٨.

٢٤ مقدادي (٢٠٠٩)، مرجع سابق. ص: ٢٦٨.

٢٥ الفرا، مرجع سابق.

٢٦ الخالدي، وليد (١٩٨٧). قبل الشتات: التاريخ المصور للشعب الفلسطيني (١٨٧٦-١٩٤٨). مؤسسة الدراسات الفلسطينية. بيروت، لبنان. ط٤ (رام الله، ٢٠٠٩). ص: ٣٠٦.

٢٧ مقدادي (٢٠٠٩)، مرجع سابق. ص: ٢٦٩.

٢٨ حمدان (٢٠٠٧)، مرجع سابق. ص: ٨٣.

٢٩ العصا، عزيز (٢٠١٥). في كتابه «إسرائيل الأبارتهايدية «وجذورها في الصهيونية السياسية»: «أوري ديفيس».. يقولُ ما لَمْ يَقُلْهُ غَيْرُه. نشر في صحيفة القدس المقدسية، بتاريخ: ٢٠١٥/١٢/١٠م، ص: ١٨

٣٠ مضية، سعيد (٢٠١٧). بلفور وتداعياته الكارثية.. من هم الهمج: نحن أم هم؟. منشورات وزارة الثقافة الفلسطينية. الطبعة الأولى. ص: ١٤١.

٣١ عبد الله، عودة (٢٠١٤)،. فلسطين بين الوعد الإلهي والاغتصاب البشري (نظرة تاريخية قرآنية). مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، العدد (٣٣)، الجزء (١). ص: ٢٦٩-٢٩٨.

٣٢ حمدان (٢٠٠٧)، مرجع سابق. ص: ١٣.

٣٣ انظر: صحيفة الخليج، بتاريخ ٢٠١٧/١١/٠٨. الموقع الالكتروني:

http://www.alkhaleej.ae/studiesandopinions/page/7d8ba8078-c214-a3b-b99e-cf7a4e3f85e6

أوراق عربية

هكذا أقرأ مئوية ثورة أكتوبر
وأقدم برنامجاً للتغيير الديمقراطي في بلداننا

كريم مروة*

أشارك في هذه الندوة في مئوية ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى بصفتي اشتراكياً منذ ما يقرب من سبعين عاماً. وبانتمائي إلى الاشتراكية من الموقع الذي كنت أعطيته لنفسي في شبابي الباكر كقومي عربي ديمقراطي النزعة، إنما كنت أدخل نفسي في المشروع الذي أعلنه ماركس، مشروع تغيير العالم باسم الاشتراكية. وبهذا المعنى فإنني إذ أشارك اليوم في هذه المناسبة التاريخية فلكي أؤكد استمرار انتمائي إلى قيم الاشتراكية ومبادئها الأساسية باسم ماركس وإنجلز ولينين، وأعتز بالإنجازات التي حققتها الاشتراكية باسم ثورة أكتوبر في المرحلة الأولى منها. لكنني في الآن ذاته أعلن بوضوح أنني ومنذ وقت مبكر، شخصياً وباسم الحزب الشيوعي اللبناني الذي انتميت إليه، بدأت وبدأنا نعلن اعتراضنا على ما ساد في التجربة الاشتراكية من خلل أساء إليها وإلى قيمها وإلى أبطالها الأوائل. وأعلنت في أكثر من مناسبة تقديري الكبير للقائدة الشيوعية التاريخية الشهيدة روزا لوكسمبورغ، تقديري لسيرتها البطولية وتقديري لجرأتها في نقد لينين حول الديمقراطية. وقد دفعت حياتها ثمناً لجرأتها على يد الفاشيين. وللقائدة روزا لوكسمبورغ شركاء، كل من موقعه، في تقديم آرائهم الجريئة في الانتماء الحقيقي إلى الاشتراكية بأهم صفاتها وأهم قيمها الحرية والعدالة الاجتماعية والديمقراطية والتقدم والطابع الإنساني الذي أشار إليه ماركس باعتبار أن الإنسان هو القيمة الأساسية في الوجود.

ومن المؤكد، استناداً إلى ما تعلمته من أفكار ماركس وإنجلز ولينين وبليخانوف وروزا لوكسمبورغ وغرامشي وجورج لوكاش وآخرين من كبار رواد الاشتراكية، فإن انهيار التجربة الاشتراكية بسبب الخلل البنيوي الذي ساد فيها على امتداد عقود طويلة لا يعني بالمطلق أن للتاريخ نهاية. فالتاريخ هو تواصل

*مفكر وكاتب لبناني

وتجاوز ومحطات فيها تقدم وفيها تراجع. لذلك، وأنا أشارك في الاحتفال بمئوية ثورة أكتوبر وبتقديري لدورها التاريخي وللإنجازات التي تحققت باسمها، فإنني أعلن أننا كاشتراكيين كنا وما زلنا وسنبقى مدعوين للاستفادة من الدروس التي أعطتنا إياها التجربة على امتداد ثلاثة أرباع القرن. وبالاستناد إلى هذه الدروس وإلى المراجعة النقدية الضرورية للتجربة واكتشاف عناصر الخلل التي قادتها إلى الانهيار نحن مدعوون إلى إعادة صياغة

المشروع الاشتراكي في شروط العصر، وأن نأخذ في الاعتبار الاختلاف في هذا المشروع بين بلد وآخر مع تعظيم العناصر المشتركة بين مختلف المشاريع الخاصة بكل بلد لتأسيس أممية من نوع جديد مختلفة اختلافاً جوهرياً في الشكل وفي المضمون عن الأمميات السابقة التي حملت اسم الاشتراكية. وقد كتبت الكثير في عدد من مؤلفاتي حول التجربة وحول إنجازاتها وحول عناصر الخلل فيها، وقدمت أفكاري حول ما أعتبره شروطاً جديدة تتعلّق بالعصر الذي نحن فيه ومختلفة في أمور عديدة عما كانت عليه الاشتراكية بما في ذلك بعض العناصر الأساسية فيها. وهو ما سأحاول تبيانه بعد قليل.

ومن أوائل ما سأشير إليه في مداخلتي ثلاثة أمور. الأمر الأول هو التذكير بعناصر الخلل التي اكتشفتها من خلال قراءتي للتجربة في محاضرة ألقيتها في عام ١٩٩٣. وعدد عناصر الخلل هذه خمسة عشر خللاً بنيوياً. الأمر الثاني هو أنني استفدت من قراءتي لأفكار بليخانوف في وصيته التي نشرها في عام ١٩١٨ عام وفاته. إذ هو أعلن بوضوح استناداً إلى شروط العصر تقديره بأن الطبقة العاملة لم يعد دورها كما كان قد تصوره لها ماركس. إذ أشار بليخانوف إلى الدور البالغ الأهمية للتكنولوجيا وللأنتلجنسيا في صياغة المشروع الاشتراكي واستمرار الثورة باسمه. الأمر الثالث يتصل بقراءتي لأفكار لينين في السياسة الاقتصادية الجديدة (النيب) التي أحدث فيها لينين تغييرات جوهرية في أفكاره وسياساته باسم الإشتراكية من موقع السلطة. وأهم ما استخلصه من التجربة في بداياتها أنه لا بد من إعطاء دور للرأسمال لإعادة بناء روسيا التي دمرتها الحرب والحرب الأهلية. واعتبر ذلك خياراً لا بديل منه. وعاد إلى ماركس الذي كان قد اعتبر أن الانتقال من الرأسمالية إلى الإشتراكية إنما يتمّ من أرقى مرحلة في تطور الرأسمال وأرقى مرحلة في تطور القوى المنتجة وأرقى مرحلة في نضال الطبقة العاملة باسم الإشتراكية. وقال لينين للشيوعيين بأنه لا خيار أمام سلطة العمال والفلاحين إلا دعوة الرأسمال لبناء روسيا بشروطه وليس بشروط السلطة، وأن على الشيوعيين بذل أقصى جهد لعدم السماح للرأسمال بإسقاط سلطة العمال والفلاحين. ودعاهم إلى استقبال الفشل إذا ما حصل في الصراع مع الرأسمال استقبال ذلك بدم بارد.

وكنت قد أعلنت سابقاً وأعلن اليوم بأن الستالينية التي سادت بعد وفاة لينين هي التي عطلت ما كان قد بدأه لينين في السياسة الاقتصادية الجديدة. وما أكثر ما اتصل بالستالينية من أخطاء معظمها كان بمستوى الجريمة.

في ضوء ما تقدم أود أن أتوقف بإيجاز عند بعض الأمور التي أرى أنها هي التي تعطي المعنى الأساسي لاحتفالنا بمئوية ثورة أكتوبر. وأول ما أريد أن أقوله من على هذا المنبر من دون مبالغة بأن ثورة أكتوبر عندما قامت في الشروط التاريخية التي لن أدخل في تفاصيلها، وهي شروط بالغة التعقيد والتناقض، كانت بذاتها الحدث الأكبر في القرن العشرين. وتركت بصماتها على القرن بالجانب العظيم المرتبط بالقيم الإشتراكية وبالإنجازات التي تحققت باسمها وبالأسماء الكبيرة التي أعطت للقرن صفته من جهة، والجوانب السلبية التي اعتبرتها في قراءتي للتجربة عناصر الخلل البنيوية التي قادتها إلى الانهيار بعد ثلاثة وسبعين عاماً من قيام ثورة أكتوبر من جهة ثانية.

أعلن ذلك لكي أتحرر من الدخول في التفاصيل المتصلة بما اعتبرته منذ وقت مبكر بحدود معينة وبالتدريج تناقضاً كان يكبر بين القيم الأساسية في الاشتراكية، قيم الحرية والحقوق الأساسية للإنسان قيم التقدم والعدالة الاجتماعية، وبين الممارسة في الفكر وفي السياسة وفي المؤسسات وفي العلاقات بين الناس وبين الدول التي كانت بمجملها نقيضاً فظاً من وجهة نظري للقيم الآنف ذكرها.

لكن هذين الإقرارين من قبلي في هذه المناسبة بالذات لا يعنيان بالنسبة إليّ بكاء على الأطلال. فكما أشرت في مطلع مداخلتي بأنه لا نهاية للتاريخ أود أن أؤكد بأننا إذ نحتفل بهذه المناسبة فإن المهمة الأساسية المطروحة أمامنا هي كيف نستعيد القيم الاشتراكية التي وضعها وأسس لها ماركس وإنجلز ورفاقهما في شروط العصر الجديد. وهي شروط تختلف اختلافاً جذرياً عن الشروط التي أعلن فيها مؤسسو الماركسية إشتراكيتهم على أساسها. وأذكر هنا بأن ماركس قد دعا في أكثر من مناسبة إلى عدم تحويل الأفكار إلى عقائد جامدة. واعتبر بأن للأفكار تاريخها. وأهمية التذكير بما أشرت إليه عند ماركس هي للقيام بما هو مطلوب منا في إعادة صياغة أفكارنا استناداً إلى التجربة وارتباطاً بشروط العصر. وهي صياغة تتطلب الأناة والتفكير العميق وقراءة الواقع على صعيد كل بلد وعلى الصعيد العالمي من أجل استخلاص ما هو ضروري لإعادة حركة التاريخ في الاتجاه الذي بدأه ماركس تحت شعار تغيير العالم باسم الإشتراكية.

واسمحوا لي هنا أن أقول بعض ما لا يحب أن يسمعه شيوعيون معاصرون. لكنني سأقول كلمتي وأتابع عملي الفكري والسياسي من الموقع الذي أنا فيه مستقلاً عن أي انتماء، يساري أو غير يساري، ومن دون انتماء إلى التاريخ الذي مضى والذي لا أتنكر له، لكنني أتجاوزه. اسمحوا لي أن أقول بأن انهيار التجربة الاشتراكية، بعد تلك العقود الطويلة وبما ترتب على ذلك الانهيار بسبب عناصر الخلل البنوية فيها، بأن الاستمرار في الحديث عن الشيوعية وعن الانتماء إليها لم يعد ملائماً للعصر. لكن ذلك لا يعني بالنسبة إلي على الإطلاق التنكر للقيم الأساسية في الشيوعية. بل إن المهمة الأساسية المطروحة أمامنا هي استعادة هذه القيم في صيغ معاصرة وبأفكار جديدة وبمهمات واقعية. فمن دون ذلك

نكون أمام احتمال تكرار التجربة. والتكرار كما أشار إلى ذلك ماركس سيكون بصيغة مهزلة أو كارثة. أقول ذلك لأنني آخذ في الإعتبار أمرين. الأمر الأول هو أن كلمة شيوعية صارت مرتبطة بفشل التجربة. الامر الثاني هو أنني أعتقد أن أحداً لا يستطيع في الظروف الراهنة أن يحدد لي ولسواي ما هو شكل النظام الذي يحمل اسم الشيوعية في عصرنا الراهن.

إن ما أعتبره ضرورة تاريخية الآن في ضوء ما نشهده من متغيرات لا حصر لها، باسم العولمة الرأسمالية البالغة في توحشها وباسم من يدّعون أنه خلاف ونقيض لها، وفي ظل الحروب الأهلية في بلداننا وما ولدته ويمكن أن تولده من ظاهرات غريبة عجيبة كظاهرة داعش التكفيرية المتوحشة، إن ما أعتبره ضرورة تاريخية في هذه الشروط التي أشرت إليها في عالمنا المعاصر هو العمل الدؤوب لتأسيس كتلة تاريخية جديدة متعددة ومتنوعة تضع أمامها مهمتين مباشرتين طويلتيّ المدى والنفس مرحلة إثر مرحلة. وما يعنيني هنا بالذات هو ما يتصل ببلداننا العربية حاضراً ومستقبلاً. المهمة الأولى هي مناهضة العولمة الرأسمالية بعناصر التوحش المتزايدة فيها على الصعيد العالمي وعلى صعيد كل بلد بما في ذلك بلداننا. وهي مهمة ينبغي أن نتعامل معها بدقة. وأشير هنا إلى ضرورة أن نتخلى عن فكرة سادت في تجربتنا الإشتراكية وهي فكرة العداء المطلق للرأسمال. صحيح أن خصمنا هو الرأسمال. لكن من دون الرأسمال لا نستطيع أن نحقق التقدم. غير أن ذلك يتطلب منا أن نعمل بكل طاقاتنا لكي نفرض بالصراع الديمقراطي على الرأسمال القيام بواجبه في عملية التقدم ونفرض عليه في الآن ذاته التخلي عن كثير مما يتناقض مع مهمته التاريخية تلك باسم المصالح الخاصة وفي مقدمتها تحقيق الأرباح بأي ثمن. وانطلاقاً من هذه النقطة أطرح المهمة الثانية. وهي مهمة أساسية تتلخص في ضرورة العمل بواقعية ومن دون أية شعبوية ومن دون أية شعارات لصياغة برنامج عمل حقيقي للتغيير باسم الديمقراطية. وهو تغيير تلتقي حول الأهداف فيه القوى المتعددة والمتنوعة في تلك الكتلة التاريخية التي أشرت واستندت إليها. وأهم وأول ما يتضمنه هذا البرنامج للتغيير الديمقراطي هو العمل لإقامة أنظمة ديمقراطية تعددية في كل المعاني، وهو ما يعنيني في بلداننا على وجه التحديد. والإشارة هنا إلى صفة التعددية في النظام الديمقراطي هي جمع وتوحيد كل مكوّنات بلداننا على اختلافها من دون أي تمييز بين أكثري وأقلي، بين ديني وعلماني، وسوى ذلك لكي يصبح الإنسان هو الأساس متساوياً مع أخيه الإنسان في الحقوق والواجبات. المهمة الثانية المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالمهمة الأولى هي إقامة دولة مدنية حديثة دولة حق وقانون وحقوق إنسان ومواطنة، دولة تشكل بوظائفها الأساس في ممارسة النظام الديمقراطي التعددي وظائفه. والمقصود هنا بوظائف الدولة المدنية القائمة على أساس الفصل بين الدين والدولة هو اهتمامها بكل شؤون الحياة بتفاصيلها.

لكن لهاتين المهمتين التاريخيتين باسم التغيير الديمقراطي شروطاً ضرورية لا بد من توافرها. ملخص

هذه الشروط من دون الدخول في التفاصيل هو العمل لخلق وعي في المجتمع بضرورة هذا التغيير. وهي عملية تعود إلى من يعتبرون أنفسهم بقدر أو بآخر طليعيين من أية مواقع ينتمون إليها. وأخص بالذكر منهم من يعتبرون أنفسهم أمناء لقيم الاشتراكية. وعندما تكتمل هذه العملية نصبح بالتدريج أمام مجتمع مهيءٍ لتحقيق المهمتين الآنفتي الذكر. واسمحوا لي بأن أعطي للمثقفين النقديين على وجه الخصوص الدور المهم في هذه المرحلة التاريخية. وعندما يصبح المجتمع مؤهلاً لكي يلعب دوره من خلال مؤسساته المتعددة تكون قد بدأت تنضج الشروط للشراكة الحقيقية بين المجتمع بصفاته الجديدة والدولة بصفاتها الجديدة في إحداث التغيير المنشود.

وأود هنا أن أذكّر بالحركات الثورية التي كانت تونس الطليعية فيها. فهي كانت حركات، في أساس قيامها ولو بشكل غير مكتمل الوعي والشروط، البداية في تحقيق مهمة التغيير. وعلينا أن نأخذ في الإعتبار أن الرد الهمجي على تلك الثورات الذي لم ينتهي حتى الآن إنما يؤكد أهمية تلك الثورات. ويؤكد في الآن ذاته ضرورة استخلاص الدروس منها ومن الرد عليها. وأضيف إلى ذلك بأنه آن الأوان، في المهمة التاريخية التي أشرت إليها، لكي نزيل بالتدريج وبالعمل المتواصل وبالنضال كل الشروط التي ساهمت في إقامة أنظمة الاستبداد في بلداننا وعطلت ما قامت من أجله ثورات القرن العشرين. وأؤكد في الآن ذاته أنه آن الأوان لكي ندخل من دون تردد في عملية التجديد في الدين الذي من دونه ستظل متوفرة شروط قيام ظاهرات من نوع القاعدة وداعش وسواهما. وأذكّر المؤمنين من على هذا المنبر بحديث نبوي شريف استقيته من كتاب «أين الخطأ» للعلامة الفقيه الشيخ عبد الله العلايلي «يرسل الله للمسلمين على رأس كل مائة عام من يجدد لهم دينهم».

وإذ أتوقف عند مسألة التجديد في الدين، ليس من موقعي العلماني وحسب بل من موقعي كمواطن، فلأنني أعتبر أن مهمة التغيير في بلداننا كما أشرت إليها إنما تعني جميع مواطني بلداننا من دون تفريق وتمييز من أي نوع بين مكوّناتها الدينية والإثنية والقومية والثقافية وسوى ذلك. هذا يعني بالذات أن على الجميع، بما في ذلك المؤمنون بأديانهم المختلفة متحررين مما ساد وما يزال يسود من بدع وخرافات لا علاقة لها بالدين، أن يلتقوا في تلك الكتلة التاريخية الضرورية لإحداث ذلك التغيير لأنهم جميعهم أصحاب مصلحة في تحقيقه.

تلك هي مساهمتي في هذه المناسبة التاريخية.

أيام في رام الله

محمود الورداني*

(١)

عندما تلقيتُ دعوة من وزارة الثقافة الفلسطينية للمشاركة في الملتقى الأول للرواية بين ٧ و ١١ مايو الحالي، ترددتُ كثيرا، فأنا من ذلك الجيل الذي أمضى عمره كاملا في مقاومة التطبيع مع العدو الإسرائيلي، وكنت من أوائل المنضمين ل « لجنة الدفاع عن الثقافة القومية»، التي بادرت بتأسيسها الراحلة الكبيرة لطيفة الزيات، فور توقيع السادات على اتفاقية كامب ديفيد عام ١٩٧٨، وكان هدفها الأساسي مقاومة التطبيع.

أظن أن تلك اللجنة التي كانت تعمل في ظروف بالغة التعقيد، وتضم طيفا واسعا من التيارات والاتجاهات السياسية التي لم يكن يجمع بينها إلا مقاومة التطبيع ومواجهة الغزو الثقافي للعدو بعد إبرام نظام السادات للمعاهدة، أظن أنها كانت من بين أكثر الأدوات السياسية التي شاركتُ فيها نجاحا ونشاطا وعملا دؤوبا استمر عدة سنوات، وكانت نتيجة عملها باهرة حقا، فقد نجحت في فرض مقاومة التطبيع على نحو يكاد يكون ساحقا، وأمسى التطبيع عارا لا يرضى به كاتب أو مثقف، عن قناعة سياسية راسخة.

وفي الوقت نفسه تفهم أصدقاؤنا من الكتاب الفلسطينيين موقفنا بل وساندونا بشأنه. ثم جرى ما يعرفه الجميع من تطورات انتهت بتوقيع اتفاق أوسلو، وعودة منظمة التحرير إلى غزة وأريحا. وشأن كثيرين، رفضت أوسلو، وما زلتُ أرفضها، وظل موقفي على حاله من اعتبار السفر إلى غزة وأريحا تطبيعا مع العدو الإسرائيلي، إلى أن وصلتني دعوة من وزارة الثقافة الفلسطينية لحضور ملتقى الرواية العربية برام الله.

---

* كاتب وروائي من مصر

هذه المرة وافقتُ بلا تردد، ورأيتُ ان رفض السفر يعني المشاركة في الحصار المفروض على أهلنا في فلسطين، واستشرتُ بعض أصدقائي ووافقوا جميعا، فيما عدا إحدى الصديقات التي أحترم موقفها بالرغم من اختلافنا. وانتهيتُ إلى الاقتناع بأنني ذاهب إلى فلسطين تحت الاحتلال، ولست ذاهبا إلى إسرائيل، وأن كسر الحصار الذي يفرضه الاحتلال ووجودي بين زملائي من الكتاب الفلسطينيين هو هدفي من السفر.

لن أطيل كثيرا هنا، وما أضافته تجربة السفر لي على كل المستويات أكدت- لي على الأقل- سلامة موقفي.. على أي حال كان الأمر يستحق كل هذا العناء لرجل في السابعة والستين من عمره.

(٢)

في مطار عمان، اضطررت للبقاء نحو ساعة منتظرا إفراج السلطات الأردنية عن الروائي الأريتيري حاجي جابر الذي كان مدعوا للملتقى ذاته، واعتذر لي بشدة عن تأخيره الخارج عن إرادته، وما أن وصلنا إلى الفندق حتى استغرق في النوم، ثم اختفى طوال اليوم التالي.

أمضيت ليلتين في عمان قبل السفر إلى رام الله. والحقيقة أنني أحد المفتونين بتلك المدينة الصغيرة المقامة على التلال الصخرية، وسبق لي زيارتها عدة مرات، ويزداد افتتاني بها في كل زيارة.

وصلت ليلا، ولم يتح لي الوقت إلا السلام الخاطف على صديقي الروائي المصري المقيم في الكويت ابراهيم فرغلي، الذي كان بالمصادفة ينزل في الفندق نفسه، ومدعو للملتقى ذاته. وتمشيتُ قليلا حول الفندق الذي أقيم فيه، واضطررت للعودة في نهاية الأمر وأنا خائف من الأرق، وأمامي يوم غامض. في الصباح تناولت الإفطار، وخرجنا، إبراهيم فرغلي وأنا نتصعلك هنا وهناك، وتحدثنا في كل شيء خصوصا إننا لم نكن قد التقينا منذ عدة سنوات، وتربطنا علاقة متينة.

قبل السادسة من صباح اليوم التالي كنت قد استيقظت، قلقا بالطبع لكنني لم أكن متوترا. السفر عبر جسر الملك حسين على الحدود، وهناك باص يقلك إلى الجسر، كما قيل لي، وكانت السلطة الفلسطينية قد استخرجت تصريحا لدخولي» أراضيها» من سلطات الاحتلال، وعلمتُ إن جواز سفري لن يستخدم. في كل تفصيلة يتدخل الاحتلال. تقدّم السلطة كشوفا بالأسماء، ولا يوافق الاحتلال إلا على نسبة بسيطة من المطلوب دخولهم بلا أي منطق، ومن أصل ثلاثين كاتبا لم يوافق الاحتلال إلا على دخول ثلثهم. بعضهم سبق دخوله من قبل، لكن الاحتلال منعهم هذه المرة. والبعض الآخر جاءت الموافقة عليه متأخرة في اليوم الأخير للملتقى.

في الاستقبال فوجئت أن هناك زملاء آخرين من الأردن ومصر أمضوا ليلتهم معنا في الفندق، وتحرك الباص، والتقط عددا آخر من الكتاب في فنادق أخرى. وصلنا قرب السادسة إلى جسر الملك حسين. كان علينا أن نتوقف في مكاتب الجانب الأردني لنختم أوراقنا، ثم نصعد إلى باص آخر يتجه

إلى فلسطين، وبدلا من دقائق قليلة يستغرقها عبور الجسر في الظروف العادية، أمضينا نحو ساعتين، فيما بدا كأنه تدريب يقوم به الاحتلال لتهيئنا لدخول الأرض التي يحتلونها، وكان مرافقونا من موظفي السلطة قد شددوا علينا ألا نستجيب للاستفزازات المحتملة، وإذا سُئلنا عن وجهتنا، علينا أن نجيب إننا ذاهبون إلى رام الله لحضور مؤتمر الرواية.

عبرنا الجسر في نهاية الأمر، وعندما هبطت من الباص انتابتني مشاعر لا يمكن وصفها: نحن في فلسطين الآن، وعليّ أن أصدق هذا. كانت هناك رجفة داخلية لا أستطيع أن أفسرها. لست عاطفيا إلى هذا الحد وأكره الميلودراما، ومع هذا هناك شيء ما يعتصر الواحد.

المكان الذي هبطنا فيه هو مكاتب جوازات الاحتلال، علينا أن نعبره، كما نبّه علينا موظفو وزارة الثقافة الذين اختفوا الآن، ما دمنا هنا، وأن نتجمع في باص آخر أمام البوابة الخلفية وإلا ضعنا، فلا أحد يمكنه الوصول إليك. المكان الذي هبطنا فيه يضم عددا من الردهات والصالات، كما أنه مكيف وحديث وأبوابه وفواصله وأسواره الحديدية محكمة وبحالة جيدة. بعد أن تسلم حقيبتك، سوف تمر على مجندة تطلّع اطلاعا أوليا على أوراقك وهي جالسة في كُشك صغير. كان أول ما لفت انتباهي» عضّة حب» بنفسجية على رقبتها، ودُهشت، هل يتبادل المحتلون القبلات الحارة إلى هذا الحد؟. هي تتعامل باستهانة واضحة ولا تكلف نفسها عناء إلقاء نظرة عليك. ليست هي وحدها، كما تبينت لاحقا، فكل المحتلين يحتفظون بمسافة بينهم وبين كل العرب، لا يعبأون بهم ويهملونهم ويستمتعون بأن الجميع مضطر للامتثال والطاعة حتي يُسمح له بدخول أرضه المحتلة، والمكان الذي ولجنا إليه كان مزدحما بفلاحين فلسطينيين ، عليهم العبور ودخول قراهم، والمحتلون لا يعيرون أحدا أي اهتمام.

لا أظنها مصادفة، اختيار هؤلاء المجندين والمجندات بأجسام رياضية وقامات مشدودة، وملابس فخمة محبوكة، والبعض علّق الأسلحة على الخصور، والحركة ظاهرة الخيلاء والاستعراض واضح والنظارات الشمسية الأنيقة تغطي الوجوه وتزيد من غموض المحتلين.

أقف في الطابور، بينما بقية الزملاء في طوابير أخرى، وأنا قد تعبتُ من طول الوقوف، ولا مقاعد للجلوس، والمكان يعج بالعشرات، والمحتلون على مكاتبهم يفحصون بكسل وعدم اهتمام ربما كان متعمدا أوراق الواقفين ، ويترك بعضهم أماكنهم ويغيبون في الداخل ويتركوننا واقفين. لم يتوقف اندهاشي الممتزج بغضبي المكبوت، ورحتُ أكرر لنفسي أن فلسطين محتلة، وهذا هو الاحتلال، وإلا فماذا يفعل المحتلون في بلد يحتلونها؟

بلغ مني الإعياء مبلغه، فأنا في السابعة والستين، والحقيقة أنني فوجئت بالعبء النفسي وليس

الجسدي فقط، مما يجعلني موشك على التداعي بعد مرور ما يقرب من ثلاث ساعات داخل الصالة الضخمة المزدحمة الخانقة. ولسبب ما قلتُ لنفسي إن عليّ أن أتظاهر بالثبات وأشدّ جسمي وأبحث عن وضع أكثر احتمالا لساقيّ، وأرسم على وجهي ملامح الذي لا يعبأ بهذه السحن الممتعضة وهذا الصلف والفظاظة في كل مكان.

وصلتُ أخيرا إلى النافذة، وتناول الأوراق مني رجل أسود نحيل ويضع الطاقية اليهودية على رأسه، وهو بدوره لم ينظر إليّ، وتكاسل قليلا، وقام من مقعده، وتبادل الحديث مع زميله الجالس بجواره، وهو أسود مثله، لم يسألني وتجاهلني تماما لحُسن الحظ، وأعاد لي الأوراق، بعد فحصها بلا مبالاة وحاولت أن أُظهر له أن الأمر لا يعنيني، وتلكأتُ قليلا قبل أن أستدير، وقد نال مني التعب، ثم عثرت على حقيبتي بصعوبة وخرجت أخيرا. تفحصت الباصات حتى وجدت باصا به زملائي.

كان أغلب الزملاء موجودين، لكننا اضطررنا للانتظار نحو ساعة أخرى ، لأن هناك من لم يأت بعد، وكان آخر من جاء هو الروائي الأريتيري حاجي جابر، وهو واحد من أخف الناس دما ولا تملك إلا أن تحبه. جاء ضاحكا وحكى لنا إن الموظف الإسرائيلي شكّ فيه، ولم يصدقه حين أخبره أنه روائي وذاهب إلى رام الله لحضور ملتقى روائي، وتركه أمام النافذة، وغادر المكان، وغاب ما يزيد عن ساعة، ثم عاد ليخبره أنه دخل على جوجل وكتب اسمه وتأكد من صحة ما يقوله، وأثناء تصفحه وجد إحدى الروايات فأمضى وقتا في قراءتها لمزيد من التأكد.. كان حاجي يحكي لنا وقد انخرط في ضحك متواصل. في كل الأحوال لا يملك الواحد إلا أن يحب حاجي.

عندما تحرك الباص كان ما لفت انتباهي هو المستوطنات التي تحتل أعالي التلال في حراسة الدبابات، واللافتات الإرشادية المكتوبة بالعربية والعبرية. لم أستطع الاستمرار في متابعة الحوارات الدائرة، وأخذت أردد لنفسي: ها أنا في فلسطين بالفعل، هذه التلال والجبال وأشجار الزيتون والخضرة المنتشرة ومضارب البدو الرحل في فلسطين. ساحرة هذه البلاد ولها رائحة مميزة.

وصلنا أخيرا إلى أول الأراضي التابعة للسلطة قبل رام الله، ونزلنا في استراحة صغيرة لنشرب القهوة التي قدمها لنا شباب مبتسمون ودودون، كما قدموا لنا تمرا وماءً ورحبوا بنا، وعاودنا سيرنا، وفي الطريق تعرفّ الكاتب محمود الريماوي على قريته التي ولد وعاش فيها قبل التهجير القسري إلى الأردن..

وأخيرا وبعد عشر ساعات كاملة وصلنا إلى الفندق، وكنت قد فقدت قدرتي على النهوض من مقعدي، حاولت التماسك أمام مستقبلينا، وصعدت إلى غرفتي، ثم ألقيت بنفسي على الفراش مقتولا من التعب وقد تيبست وتصلبت عضلات جسمي، فاضطررتُ للجلوس على المقعد، ورحت أسير ببطء لتليين أعضائي، ولم أتمكن من النوم.

(٣)

في صباح اليوم التالي، مرّ عليّ الرجل البشوش الدمث يوسف الشايب، حسب اتفاق سابق، واصطحبني أنا والكاتب العراقي زهير الجزائري إلى مقهى وسط رام الله، حيث دعتنا زوجة يوسف، الصديقة بديعة زيدان، وكنا قد تعارفنا من قبل أثناء حضورنا معا مؤتمر الرواية في بيروت، دعتنا على الإفطار في أحد المطاعم وتناولت فلافل شهية إلى أقصى حد. توجهنا بعد هذا إلى شقة صغيرة في إحدى البنايات لنتحدث - زهير وأنا - في برنامج صباحي في إحدى قنوات التليفزيون الفلسطيني.

في تلك الأثناء، كان الأسرى الفلسطينيون في سجون الاحتلال قد دخلوا في إضراب مفتوح عن الطعام لتحسين شروط حياتهم داخل السجن، وسوف أعرف فيما بعد أن المرور على سجون الاحتلال وقضاء بضع سنوات أمر شائع ولا يكاد يفلت منه أحد الفلسطينيين. وكانت الصبية الجميلة ذات العيون الواسعة والملامح المريحة، والتي أجرت اللقاء في التليفزيون قد سألتنا سؤالا يتعلق بالإضراب، وبعد أن انتهى اللقاء علمتُ أن شقيقها مسجون. وهو ما تكرر كثيرا خلال الأيام التي أمضيتها هناك. وانتقلنا إلى بناية أخرى حيث حضرنا لقاءً تليفزيونيا آخر، قبل أن نتوجه إلى المسرح البلدي حيث تعقد جلسات الملتقى.

(٤)

أظن أن المجال ليس مناسبا للتناول التفصيلي لملتقى الرواية، وبالنسبة لي تحديدا فإن رام الله خطفتني، ووجودي على أرض فلسطينية وبين فلسطينيين هو ما اجتاحني. علمت – كما لمست بنفسي- أن الاحتلال يسيطر على كل شيء، حرفيا كل شيء من المرافق إلى الكهرباء إلى الدخول والخروج إلى الاقتصاد (ولنتذكر أن الاحتلال سبق له عام ٢٠٠٢ أن اجتاح رام الله ودمر مبنى المقاطعة الذي كان أبو عمار يقيم فيه وحاصره وأطلق القذائف وقتل وأسر العشرات، ويمكن الرجوع لواحدة من أهم الشهادات التي قرأتها وأكثرها دقة في كتاب الصديق يحيى يخلف يوميات الاجتياح والصمود، خصوصا وأنها يوميات شاهد عيان).

ومع كل هذا فإن ما يفعله الفلسطينيون ضرب من المعجزات، وأن يكونوا قادرين على كسر الحصار، ويقيموا ملتقى عربيا للرواية أو معرضا للكتاب أو يصدروا كتبا ومجلات.. كل هذا ضرب من المعجزات، فهم يفعلون ما يفعلونه تحت ظل الحراب الإسرائيلية وتهديدها الوشيك والماثل على الدوام.

أما الملتقى فكان حسن التنظيم ومحاوره مهمة وحضوره، سواء من الفلسطينيين أو الضيوف،

حريصون على النقاش والمشاركة، وإيهاب بسيسو وزير الثقافة شاب مثقف ولم يتخلف عن الحضور للمناقشة في كل جلسات الملتقى، فضلا عن وجوده بين الضيوف في الفندق الذي نزلنا فيه، حيث تستمر المناقشات واللقاءات لوقت متأخر، ويعاون الوزير طاقم من الشباب الكفؤ المبادر.

ومع كل هذا فإن رام الله أمر يستحق أن أخصص له كل هذه السطور التي أكتبها هنا، فهي ليست مجرد مدينة مرتفعة عن سطح البحر وتشرف على الجبال والتلال ورائحتها تعصف بالواحد، هي مدينة تلقي بنفسك بين أحضانها وتستسلم لوداعتها وتقع في غرامها. هل تعرفون الحب من أول نظرة.. تلك هي رام الله، تحبها من أول نظرة.

أود فقط أن أتوقف عند ثلاث محطات سريعة. الأولى هي الزيارة التي نظمها لنا الملتقى لزيارة متحف وضريح أبو عمار، ولكم سعدت عندما علمت أن الذي صمم المبنى مهندس مصري غاب اسمه عني للأسف. يكفي أن أقول فقط أنه متحف يليق بصاحبه وشعبه ودوره ورحلته حتى استشهاده، متحف يليق بفلسطين بكل ما مثلّته وتمثله فلسطين.

المحطة الثانية هي الزيارة التي دعاني إليها الصديق الكبير يحيى يخلف. ويحيى ليس مجرد أحد الأصدقاء، بل هناك وشائج عديدة تربط بيننا، وكلانا حريص على اللقاء في كل زيارة له للقاهرة. باختصار أنا أحب يحيى وأحب ابنه المخرج طارق المقيم بالقاهرة وتعرفت عليه. أما الزيارة التي اصطحبني إليها فهي زيارة تخطف الروح، لم أكن وحدي كان معي الصديقان الروائيان مها حسن والحبيب السالمي، لضريح محمود درويش. الضريح في أعلى قمم رام الله، المدينة المرتفعة أصلا، أي أن درويش في المكان الذي يستحقه، ليس هذا فقط بل إن أبو الهيثم يحيى يخلف أهدى كل واحد منا فنجان قهوة عليه توقيع محمود درويش ثم اصطحبنا في نزهة بسيارته في رام الله.

المحطة الثالثة كانت في أحد ميادين رام الله، وفي خيمة أقيمت لدعم صمود الأسرى الفلسطينيين في إضرابهم عن الطعام وهم يخوضون معركة الأمعاء الخاوية. خرج جميع المشاركين في الملتقى يتقدمهم وزير الثقافة، وسرنا على الأقدام حتى الخيمة، وجلسنا نستمع إلى الكلمات التي تحيي صمود أسرانا، كما جاءت السيدة فدوى البرغوثي زوجة الأسير مروان البرغوثي قائد الإضراب وصافحتنا بثبات وشجاعة تليقان بمروان وبكل الأسرى.

(٥)

مازالت الزيارة الخاطفة تحمل لي مفاجأة أخيرة لم أكن مستعدا لها، وفاقت احتمالي.. باختصار لقد تسللت إلى القدس.. نعم تسللت إلى القدس. أبادر إلى القول أولا أنني من مواليد القاهرة وعشتُ عمري كله فيها، وغني عن البيان أن منطقة شارع المعز وما حولها تضم ما لا يمكن حصره من آثار

القرون الوسطى الإسلامية، كما أن منطقة مصر القديمة وتحديدا مار جرجس تضم بدورها مالا يمكن حصره من الآثار القبطية.

ربما يكون هذا ضروريا لتأكيد أن ما فعلته القدس وما أثارته فيّ لا يرجع مطلقا للولع بالقديم والمقدس.. القدس تتجاوز كل هذا..

الحكاية بدأت عندما علمتُ أن بعض الزملاء ممن يحملون جوازات سفر أوروبية تمكنوا من اختطاف بضع ساعات وزاروا القدس المتاخمة لرام الله، فترجيتُ شابة من سكان القدس (لم أستأذنها حتى أورد اسمها) أن تصحبني إلى المدينة القديمة، وتحملت الشابة هذه المسؤولية، وأحمل لها في عنقي دينا وشكرا ومحبة ولا أستطيع أن أوفيها حقها .

صحبني في تلك المغامرة إبراهيم فرغلي وزهير الجزائري. وفي التاسعة صباحا ركبنا سيارة أجرة قطعت نحو كيلومترين في رام الله حتى توقفت أمام بوابة حديدية، واتفقت معنا على أن تسبقنا ونراقبها نحن ونفعل مثلها. البوابة تشكل حاجزا ويقف الناس في طابور طويل، وإلى اليسار يجلس فحل ضخم، وعبر لوح من زجاج يشاهد تصريحك ثم يسمح لك بالدخول. التصريح الذي معنا هو نفسه الذي دخلنا به من المعابر، وأكاد أجزم أن منظرنا كمسنين، على الأقل أنا والجزائري، كما أن ابراهيم فرغلي ليس شابا صغيرا أيضا، أكاد أجزم أن هذا هو السبب الوحيد لعدم اهتمام الفحل إياه وعدم تدقيقه. بالطبع كانت فرحتنا بعد أن نجحنا في العبور لا يمكن وصفها. أما صديقتنا الجميلة فكانت تراقبنا من الجانب الآخر حتى وصلنا إليها، وعلى الفور ركبنا باصاً عاماً سار بنا مسافة قصيرة، ومن النافذة كنت أشاهد مباني قليلة ذات مظهر كولونيالي يبدو أنها مبان رسمية، إلى أن هبطنا في نهاية الأمر أمام سور المدينة القديمة وتحديدا أمام باب العمود.

هناك سلم واسع قديم بدرجات حجرية يفضي إلى باب العمود، ولحُسن حظنا أن صديقتنا التقت بالمصادفة برجل طويل ونحيل وأسمر. كان الرجل وسيما وملامحه آسرة. عرّفته بنا، وقالت لنا أنه يعمل دليلا سياحيا في القدس. وعلى الفور تطوّع، بل رحّب بشدة وكان سعيدا باصطحابنا في جولتنا، وبدا وكأنه يقوم بمهمة وطنية، وكان يهرع أمامنا، كلما لاح كمين إسرائيلي، والكمائن في القدس لا حصر لها، رجال ونساء مسلحون وبعضهم يمتطي الجياد ينتشرون بصلف وفظاظة. ولأنه يعلم أننا تسللنا، أسرّ لنا بأن نتركه يسبقنا بخطوات ويتصرف هو مع جنود الاحتلال قبل أن يستوقفونا. عرفنا فيما بعد أنه من أصول إفريقية، ففي الزمن القديم كان المسلمون الذين يحجّون إلى مكة، يمرون أثناء عودتهم بالقدس لزيارة المسجد الأقصى، وبعض هؤلاء كانوا يستقرون في المدينة القديمة وهو ينحدر منهم.

هذا الرجل أمضى سبع سنوات في سجون الاحتلال، وأثناء سيرنا كان يتوقف ليعرّفنا بأقاربه الأفارقة، ومن بينهم من أمضى الكثير من السنوات في سجون الاحتلال كما أخبرنا.

لن أتحدث عما هو معروف عن القدس وعمارتها وحواريها وكنائسها ومساجدها ومتاح في عشرات المصادر، سوف أتحدث فقط عما شعرتُ به أنا القادم من مدينة عريقة وحاضرة كبرى من حواضر الدنيا، لذلك فإن ما حدث لي أمر آخر تماما عن الولع المعتاد.

ولأن علامة الإذن التيسير كما يقول الصوفية، فإن الله يسّر لنا هذه الشابة كما يسرّ لنا هذا الدليل الذي أحبنا وقدّر لنا أننا جئنا لنشارك أهلنا. وعلى مدى ما يقرب من ثلاث ساعات مضى بنا في رحلة آسرة، بحيث شاهدنا كل ما اعتبره مهما: كنائس ومزارات لكل الطوائف المسيحية، دخلنا كنائس عديدة من بينها كنائس أرثوذكسية، صعدنا سلالم وعبرنا أزقة وممرات ضيقة، والرجل لا يكف عن الشرح والتوضيح، وفي الوقت نفسه كان يقظا في مواجهة الكمائن. قادنا أيضا إلى قبة الصخرة ودخلناها وتحسست أنا بيدي الصخرة، ولا يمكن لي أن أعبر عن نقوش القبة فهي مذهلة وفاتنة، ودليلنا شرحه أكثر من واف. ومن مكان مرتفع أشار لنا على حائط المبكى وقد تكأكأ اليهود حوله.

لم نتوقف لحظة واحدة على مدى ثلاث ساعات. وبالنسبة لي كانت كل حواسي مشرعة لاستقبال ما يجري، وكنت أريد أن أحتفظ بكل ما أراه وأشعر به وأشمه إلى الأبد. كل هؤلاء الناس المتلاصقين والقادمين من كل أنحاء العالم، كل هؤلاء المسالمين الحريصين على أن يتعاملوا معا بكل هذه الحساسية واللطف والذوق، كل هذا كان يعصف بي، وأنا أصعد سلالم شديدة الضيق، وأعبر أزقة وأطل على مزارات.

القدس تجربة روحية وليست مجرد مبان عتيقة، وبشر اختاروا أن يكونوا معا على هذا النحو من المودة، للقدس رائحة أستطيع أن أستعيدها الآن وأنا أكتب. أما الكمائن الراكبة والمترجلة بالأسلحة المشرعة والخيلاء والصلف، وحتى بمجموعة متلاصقة من المباني التي ضمها الاحتلال بالقوة إليه ورفع عليها علمه، كما أخبرنا دليلنا، لم تستطع أن تفسد هذه التجربة الروحية التي مررت بها.

وبعد هذه الرحلة الطويلة عدنا مرة أخرى إلى نقطة انطلاقنا عند باب العمود، وبعد لأي بل ورجاء من جانبنا سمح لنا دليلنا بأن نكافئه فقد كان رفضه حاسما وقويا، لكننا أرغمناه في الحقيقة على قبول القليل مما يستحقه.

(٦)

أما صديقتنا فقد كانت تدخر لنا أقوى مفاجآتها، وبعد أن تحدثت في هاتفها الجوال لترتّب عودة أطفالها من المدارس، بدا أنها قررت أمراً ما. وما لبثت أن قالت لنا إنها سوف تصطحبنا لنتناول

الغداء على شاطئ البحر في يافا.كان هذا يفوق كل ماكنت أحلم به، وعبرنا الشارع المواجه وتوجهنا صوب ما بدا أنه مركز لتجمع كل أنواع السيارات، ثم غادرتنا لدقائق وعادت لتشير لنا ، فتوجهنا إليها حيث كانت واقفة بجوار سيارة ما، ركبنا معها، ورحبّ بنا السائق وهو من فلسطينيي الداخل، وكانت صديقتنا قد أفهمته إننا جئنا من رام الله حيث شاركنا في الملتقى إياه، وعرفنا أن سيارة الأجرة التي يقودها ليس مسموحا لها أن تعمل خارج القدس، لكنه سوف يذهب بنا من أجل خاطرنا فقط ولأننا جئنا من آخر الدنيا وما إلى ذلك. وهكذا فإن هناك مغامرة أخرى تنتظرنا.

قبل أن نغادر المدينة القديمة، لمحت من النافذة عشرات وعشرات يتزاحمون في ما يشبه الميدان وكلهم يرتدون الملابس السوداء وضفائرهم تتدلى. كانوا كثيرين جدا ومن مختلف الأعمار، من بينهم أطفال وصبية وشباب وكهول. لابد أن هنا وفي قلب القدس قام الاحتلال بإنشاء معاهد تعليمية أصولية اكتظت بهؤلاء الذين ارتدوا زيهم الديني وأطلقوا ضفائرهم. كان منظرهم غريبا ومقبضا على نحو ما. ولأمر ما تذكرت واحدا من أجمل الأعمال الروائية التي قرأتها بلا أي مبالغة، وهي رواية» العاشق» لكاتب إسرائيلي إسمه يهوشواع وترجمها إلى العربية محمد حمزة غنايم وصدرت في دار نشر في الخليل فيما أتذكر، وحصلت عليها من أحد معارض الكتاب في القاهرة. أتذكر أن الرواية التي تدور أحداثها عشية حرب ١٩٦٧ كان بها مشاهد عديدة يظهر فيها الأصوليون المسكونين بالعنف المكتوم، كريهون ويبدون كأشباح مقبضة، لكن "العاشق" تبقى في الذاكرة بوصفها عملا لا ينحاز للرؤية الصهيونية، ويقدم كاتبها رؤية إنسانية للفلسطينيين والعرب، والأهم من كل هذا إنها رواية ممتعة ومكتوبة بحرفية عالية إلى أقصى حد.

ونحن في السيارة أخبرتهم أن صديقي نجيب جويلي سمّى ابنته، الشابة والأم الآن «يافا «على إسم المدينة التي نتوجه إليها. وعلى مدى نصف ساعة، وهي المدة التي تستغرقها الرحلة من القدس إلى يافا، كنت تقريبا عاجزا عن التصديق أننا في الطريق إلى تلك المدينة التي احتلها الإسرائيليون وجردّوها من حقيقة أنها مدينة عربية. وشاركت صديقتنا سائق السيارة في إرشادنا والكلام معنا حول ما كنا نراه عبر النافذة مثل السور الذي يمكن مشاهته بعيدا وبناه الاحتلال أخيرا، والطرقات السريعة الممتدة هنا وهناك. والحقيقة أن ثبات السائق وتماسكه لفت انتباهي، ودهشت لأن أرقام سيارته، كما قال لنا، تكشفه ويمكن استيقافه ونتعرض كلنا للمشاكل في مواجهة احتلال اشتهر بغبائه وجلافته.

على أي حال، شممنا رائحة اليود، قبل أن تدلف السيارة إلى المدينة. ليست هناك حواجز أو مظاهر عسكرية بادية للأعين. سرنا في عدة شوارع في مدينة بدت هادئة قليلة السكان. ترجلنا من السيارة ورحنا نتمشى قليلا على شاطئ البحر. كل هذا استولى عليه الإسرائيليون.. فقدنا الكثير والكثير.

فقدنا الشاطئ والبحر والشوارع والحدائق. كانت مشاعري غريبة يمتزج فيها الفقدان والإعجاب وما يشبه الخوف والألم.

عدنا لنركب السيارة مرة أخرى حتى وصلنا إلى مطعم اختارته صديقتنا، وترجلنا جميعا ومعنا السائق وصعدنا إلى هضبة تشرف على البحر. كان من السهل أن تعرف أن عمال المطعم عرب، كما أن صاحبتنا طلبت الطعام باللغة العربية، وإن كان حولنا على المناضد المجاورة بعض الأسر الإسرائيلية. الحقيقة أن السمك كان شهيا جدا، وخصوصا سمك السلطان ابراهيم، والسَلَطات المتنوعة.. كانت وجبة شهية للغاية، فانقضضنا على الطعام بعد يوم شاق، وجاءت لحظات جرى لي فيها فقدان كامل للوعي، ونسيت أنني في وضع لا أحسد عليه، وخيّل لي أنني في مدينة عربية.

بعد الغداء تمشينا مرة أخرى في يافا، ثم ركبنا السيارة عائدين إلى القدس في آخر النهار، وكان الليل يتقدم ببطء. هبطنا جميعا، بعد أن أصرّت صديقتنا على الاطمئنان على دخولنا رام الله، وكانت البوابة أثناء العودة مفتوحة وبلا جنود، ويبدو أن الاحتلال يمنع دخول القدس، لكنه لا يمنع دخول رام الله. ودّعنا صديقتنا وسرنا قليلا حتى وجدنا باصاً عمومياً. وعندما تحرك الباص سألنا السائق عن أقرب مكان للفندق، فكان رده أن علينا أن ننزل في مكان ما حدده لنا، ثم نستقل سيارة أخرى، وحاول أحد الركاب أن يرشدنا إلى طريق آخر قريب من الفندق بحيث لا نحتاج لركوب سيارة أخرى، لكن السائق أصرّ.

واصل الباص سيره بينما كنا نتبادل الحديث أنا وابراهيم فرغلي. وبعد فترة توقف الباص قال لنا السائق إن علينا أن نهبط. رحنا نتلفّت ثلاثتنا باحثين عن سيارة أخرى في الليل والعتمة حتى توقفت أمامنا سيارة، وأخرج سائقها رأسه من النافذة يطلب منا الركوب. كان معه طفل صغير، أفسح لي مكانا بجواره، بينما ركب فرغلي والجزائري في الخلف. رحبّ بنا الرجل وسأل إذا كنا مصريين كما فهم من لهجتنا. رحنا نتكلم معا، واكتشفنا أن هذا الرجل الذي استضافنا هو نفسه الذي صادفناه منذ قليل في الباص، وحاول أن يدلنا على طريق أقرب للفندق، فقد نزل قبلنا، وأسرع خلفنا بسيارته الخاصة لتوصيلنا. وعندما علم بالغرض من مجيئنا رام الله شكرنا بود ومحبة. أوصلنا الرجل حتى الباب الداخلي، وهبط من سيارته مصّرا على مصافحتنا.

كم كان ما جرى لنا جميلا، ويصلح لختام سطوري عن أيامي في رام الله.

وضحات وعتمات بين الأدب والداعشية

نبيل سليمان*

القصل هو الذبح من الوريد إلى الوريد، أي هو قطع الرأس بالسكين أو السيف أو الساطور أو المقصلة كما أضافت الثورة الفرنسية. والقصل/ من أسف، مكين في تاريخ البشرية، ومنه تاريخنا. أما في الحاضر، فربما انفردنا بالقصل، بفضل داعش وأخواتها. وهكذا تواصلت العتمات من تليدنا في ماضٍ مجيد إلى طريفنا في حاضر تقصر عن وصفه الصفات. وقد أسرعت الرواية إلى هذه العتمات، فتناقلت الأخبار صدور رواية (أيام داعش) لمصطفى محمود عواض، ورواية (راقصة داعش) لأسماء وهبي، ورواية (حبيبي داعشي) لهاجر عبد الصمد و.. ومن ذلك رواية (ليل العالم) لكاتب هذه السطور، والتي جعلت فضاءها مدينة الرقة، وأركزت زمانها في سنوات الزلزلة السورية المتفجرة منذ عام ٢٠١١، ولذلك كان لداعش من الرواية نصيب كبير حتى عام ٢٠١٥.

لكن العتمات ليست كل شيء. ففي التاريخ، مقابل العتمات ثمة وضحات، وإن بدت الأولى أكبر. أما في يومنا، وإلى غدٍ لعله قريب، فما من بصيص في نهاية النفق، وعسى أن يكون قولي هذا من الضلال المبين.

مدينة الشعراء أم مدينة المهاجرين:

من بين العتمات الوفيرة الجديدة الفتاكة، تبدو داعش هي الأولى. وإذا كانت الأضواء قد تركزت على عاصمتها (الرقة) أو على الموصل، فمدينة منبج السورية كانت عاصمة أخرى، منذ سيطرت داعش عليها في ٢٠١٤/١/٢٣ إلى أن طُردت منها في ٢٠١٦/٨/١٢.

اشتهرت مدينة منبج بأنها مدينة الشعراء، فهي مدينة البحتري وأبي فراس الحمداني والمتنبي

* كاتب وباحث من سوريا

ودوقلة المنبجي و... وعمر أبو ريشه، وما أكثر من كان (يقرزم) الشعر في منبج قبل أن يطبق عليها الليل الداعشي، فتصير مدينة المهاجرين، لكثرة من زحف إليها من المهاجرين الداعشيين من شتى البلدان، وبخاصة من تونس وأوروبا، حتى نافست الرقة بأعدادهم وبرطانات لغاتهم. وقد يسّر ذلك قرب منبج من الحدود السورية التركية (٣٠كلم).

سمّى اليونانيون هذه المدينة هيرابوليس (المدينة المقدسة)، وكانت أتاغيتس أعظم آلهتها هي وزوجها الإله حدد. وقد استعانت اليونان برهبان منبج / هيرابوليس في إحياء الاحتفالات الدينية. وكانت في العصر الهلنستي خط الدفاع الأول للرومان في مواجهة الفرس. وفي واحدة من حلقات صراعهما أرغم الإمبراطور هرقل الفرس على إعادة الصليب الذي كانوا قد استولوا عليه في القدس عام ٦١٠ م. وظل عندهم عشرين سنة، وكان الرومان يعتقدون أن هذا الصليب هو ما صُلب عليه المسيح. وفي المصنفات التاريخية العربية، ذكر ياقوت الحموي أن أول من بنى منبج هو كسرى عندما استولى على بلاد الشام، وسماها (من به) أي (أنا أجود)، فعربت إلى منبج. لكن الخوري برصوم أيوب ذهب إلى أن الاسم مشتق من NABAG أي نبع، طلع... وذلك في كتابه (الأصول السيريانية في أسماء المدن والقرى السورية وشرح معانيها). ومن المحدثين أرجع المؤرخ الحلبي الغزي الاسم في كتابه (نهر الذهب) إلى وجود عين ماء كبيرة كانت تعرف بـ (الرام).

إسلامياً، أرسل أبو عبيدة الجراح إلى منبج عياض بن غنم، ثم لحق به، فكان فتحها وتحريرها من البيزنطيين سنة ١٦ للهجرة في عهد عمر بن الخطاب. وقد جعلها هارون الرشيد مركز المناطق الحدودية، وخط التماس الأول، وكان يأتي إليها يومئذٍ (مجاهدون) من شتى البلدان. وتعرضت منبج إلى الزلازل، وآخرها كان عام ١٣٤٥ م. وفيه كتب زين الدين ابن الوردي قصيدة ختمها بقوله:

منبج أهلها حكوا دود قزٍ

عندهم تجعل البيوت قبورا

ربِّ نعّمهم فقد ألفوا من

شجر التوت جنة وحريرا

ومن زلازلها غير الطبيعية، والتي أورثتها الدمار والقتل ما كان على يد الخوارزمية، وعلى يد تيمورلنك عام ١٤٠١م.

مدينة البحتري:

ما مررت مرةً بمنبج إلا لبثت أتنسّم عطر من قال «صنت نفسي عما يدنّس نفسي». إنه أبو عبادة الوليد الشهير بالبحتري. والبحتري لغةً: قصير القامة.

إنه ثالث الثلاثة: (أبو تمام والمتنبي)، أولاء الذين سئل المعري عن أشعرهم: فقال: المتنبي وأبو تمام حكيمان، وإنما الشاعر البحتري.

في منبج ولد البحتري سنة ٨٢١ م. وفي سنة ٨٩٧ م. توفي ودفن في مدينة (الباب) قرب منبج التي نشأ فيها فتى فقيراً، يمدح باعة البصل والباذنجان، على ما يذكر ابن خلكان. وقد أسرع البحتري إلى حلب على بعد أقل من ٩٠ كلم، وأقام في الشهباء فترةً عشق أثناءها المغنية الحلبية علوة بنت زرعة، وتلامع اسمها في شعره. لكن موعد الرجل مع قدره لم يكن في حلب. فقد كانت منبج وباديتها مدرسة البحتري حتى التقى بأبي تمام.

ولد البحتري لأب طائي وأم شيبانية. وأهل منبج كما يؤكد الإصطخري في (مسالك الممالك) كلهم عرب. وقد كانت قبائل طي تضرب في بادية منبج على شاطئ نهر الفرات. أما اليوم، فيراد لها أن تكون حلقة في الفيديرالية الكردية، وإن يكن الأكراد واحداً من مكوناتها الفسيفسائية، أو من عناصر سبيكتها التي يغلب فيها المكون العربي بنسبة كبرى.

كان لقاء البحتري بالأستاذ الرئيس - كما سيلقب أبو تمام - هو موعده مع القدر. فقد أخذ الأستاذ (الحوراني) القادم من بلدة (جاسم) قرب درعا اليوم، بيد تلميذه. ويروي يحيى بن البحتري أن أول شعر لأبيه كان حين خرج من منبج في سفر، فلما عاد، رأى لحية الغلام (شقران) قد نبتت، وكان يهواه. وفي سيرة البحتري كثير مما يؤخذ عليه، كتعدد غلمانه، أو طول لحيته التي هجاها ابن الرومي، أو أنه يجري مع الرياح، أو أنه أحرق خمسماية ديوان لشعراء من معاصريه، كيلا تشتهر أشعارهم. ويقول صاحب (زهر الآداب) إن البحتري كان من أبغض الناس إنشاداً: يتشدق ويتزاور في مشيه، مرة جاثياً ومرة القهقرى، ويهز برأسه مرة ومنكبه أخرى، ويشير بكمه ويقول: أحسنت والله، ثم يقبل على المستمعين فيقول: ما لكم لا تقولون أحسنت؟ هذا والله لا يحسن أحد أن يقول مثله». ولكن مهما يكن من كل ذلك ومن غيره، يظل البحتري هذا الذي خاطبه أستاذه أبو تمام: «أنت أمير الشعر بعدي». ويظل وحده من لُقّب بـ (صناجة العرب). وصاحب سلاسل الذهب.

مدينة أبي فراس الحمداني والمتنبي:

في سيرة أبي فراس الحمداني الذي عاش ستاً وثلاثين سنة فقط (٩٦٨-٩٣٢ م) (٣٢٠ - ٣٥٧ هـ) أنه ولد في منبج، ولكن قيل أيضاً إنه ولد في الموصل. وعلى أي حال، فقد ولّاه سيف الدولة الحمداني على منبج. ولما خرج ابن أخت ملك الروم إلى نواحي منبج في ألف فارس، صادف أبا فراس يصطاد بصحبة سبعين فارساً. وفي القتال أصيب أبو فراس بسهم فأسروه سنة ٩٥٩. وبعد لأي هرب أو افتدي، لكن الروم حاصروا منبج بعد ثلاث سنوات حتى سقطت قلعتها التي لم يبق منها اليوم غير اسمها، وأسروا أبا فراس، وطال الأسر به ثلاث أو أربع سنوات، كتب خلالها (روملياته) التي جمعها الثعالبي، ومنها ما يتذكر فيها أمه في منبج: «لولا العجوز بمنبج/ ما خفتُ أسباب المنيهْ/ ولكان لي عما سألت/ من فدا نفسٌ أبيهْ/ أمست بمنبج حرةٌ/ بالحزن من بعدي حريّهْ/ والصبر يأتي كل ذي/ رزءٍ على قدِّ الرزيّهْ/ لازال يطرق منبجاً/ في كل غاديةٍ تحيهْ/ فيها التقى والدين مجـ / موعان في نفسٍ زكيهْ».

بعد منبج تولى أبو فراس حمص. ولما توفي سيف الدولة، وصار حاجبه التركي قرغويه وصياً على الوريث ابن أخته أبي المعالي، سيّر الوصيّ جيشاً إلى حمص لإخضاع أبي فراس. وفي (صدد) وقعت المعركة التي انتهت بقطع قرغويه لرأس أبي فراس، وترك جثته حتى واراها بدوي عابر، بينما حمل قرغويه الرأس إلى الوريث.

أما المتنبي الذي لم يكن على وفاق مع أبي فراس، والذي قُتِلَ أيضاً بعده بشهور، فكان قد توجه مع أبيه إلى بلاد الشام حوالي سنة ٩٥٠ ميلادية، فعرف الرقة، ثم منبج، حيث مدح واليها عبد الملك بن صالح، ومن ذلك قوله: «قيْلَ بمنبج مثواه ونائله/ في الأفق يسأل عمن غيره سألا». وبعدما طوّف المتنبي في طرابلس فاللاذقية فحلب فأنطاكية فحمص - حيث سُجن - عاد إلى منبج فدمشق، قبل أن يحطَّ رحاله في حلب، حيث قال في خيول جيش سيف الدولة: «فكأن أرجلها بتربة منبج / يطرحن أيديها بحصن الران» والمسافة بين منبج وحصن الران تناهز خمسة كيلو مترات.

عمر أبو ريشة، ثم من؟

يقول عمر أبو ريشة إنه ولد في فلسطين (عكا) سنة ١٩١١، بينما يذكر من أرّخ له أنه ولد في منبج سنة ١٩٠٨ أو ١٩١٠، فكأن اضطراب الحديث عن دوقلة المنبجي يتجدد مع عمر أبو ريشة الذي خرجت أسرته إلى موطن عشيرته الأصلي في منبج، وحيث جرى تسجيل

مكان ولادته وتاريخها ١٩٠٨. وقد كان هذا الذي درس في إنكلترا الكيمياء العضوية، وعمل سفيراً، وكتب مع الشعر المسرحية الشعرية، آخر أعلام منبج، وإن يكن من كتب الشعر منها كثيرون.

في عام ١٩٩٧ أقيمت في منبج الدورة الأولى من المهرجان الشعري الذي حمل اسم البحتري. ومن الأسماء التي تلامعت محمود الدالي الذي شارك عام ٢٠٠٨ في برنامج أمير الشعراء، ومما قال في مدينته: «ما بال منبج قد حلت ضفيرتها/ وهزّها من رقيق الصوت موال». وقد عرفت أثناء إقامتي في حلب ١٩٧٢-١٩٧٨ منهم واحداً، كان لا يغيب عن محاضرة أو ندوة، ولابد أن يدلي فيها دلواً. إنه محمد منلا غزيل الذي لقبه أستاذه إسماعيل حقي (والد المخرج هيثم حقي) بالبحتري الصغير. وعرف هذا البحتري أيضاً بشاعر الدعوة الإسلامية. وعلى الرغم من أنه اعتقل وعذب عام ١٩٨٠، فقد جرى تكريمه في المركز الثقافي في منبج عام ٢٠٠٧، وسميت به قاعة المكتبة والمطالعة. وقد ذكر أنه لما توفّي العلامة الحكيم - كما لقبته بعض المنابر الإسلامية عام ٢٠١٥، منعت داعش تشييعه جماهيرياً، كما ذُكر أنه دفن في مقبرة الشيخ عقيل المنبجي الذي هدمت داعش ضريحه والمسجد الذي حمل اسمه وضمّ الضريح.

في مهرجان الشاعر عمر ابو ريشة الذي أقيم في منبج في ٢٠١١/٧/١٣ قال الشاعر محمد بشير دحدوح:

يا منبج الشعر وافيناك موعدنا

لهاةُ أقداحنا ظمأى فروّينا

يا منبج الشعر يا ريحانة سكرتْ

من أين خمرتك السمحاء دلّينا

نلملم البرق من جفنيك منخطفاً

ونجتبيه جنوناً في خوابينا

وفي إشارة إلى عمر أبو ريشة وإلى البحتري وأبي فراس الحمداني (الحارث) يقول:

ففي رباك الشذى مازال منتشياً

يستافه عمرٌ رنداً ويُسفينا

والبحتري على ديباج علوته

وحارث يعتلي مجداً ويعلينا

كما يقول الشاعر عبد الغفور بكري داوود في مدينته:

يا منبج الخضراء جئتك زائراً

من بعد عمر طال فيه غيابي

حلب ومنبج في الشآم على المدى

موصولتان بظاهر الأنساب

وللشاعر الفلسطيني سعود الأسدي قصيدة مطلعها (هتفتُ بالشام ما أحلاك يا شامُ) ومنها ما يذكر فيه البحتري (الوليد):

ومنبج ووليدُ الشعر أرسله

كالغيم يهمي له في الحسن إرهامُ

حتى غدا كل قوس فوقه قُزحاً

مضمخاً تستقي ريّاه أنسامُ

مدينة الهارب:

من تونس قدم إلى دولة الخلافة الداعشية شاب اسمه محمد الفاهم. وسرعان ما تبددت أحلامه، مثل آخرين، فتسلل هارباً عبر منبج، وسرد على الصحافي والكاتب التونسي هادي يحمد تجربته، فكتبها الأخير فيما هو سردية بامتياز، تناجز الرواية، وعنوانها: (كنت في الرقة: هارب من الدولة الإسلامية - ٢٠١٧).

من الرقة جرى نقل محمد الفاهم إلى إدارة المعسكرات (اختصاص مفخخات) في منبج، وقد تزامن النقل مع عزمه وثلّة على الهرب، فقد كانت منبج بالنسبة إلى هؤلاء نهاية مرحلة الدولة الإسلامية. وكان شباب آخرون قد سبقوا إلى الهرب بعدما اكتشفوا أنهم ضحية وهم اسمه الدولة الإسلامية.

في منبج أقام شهرين محمد الفاهم وشريكاه التونسيان في خطة الهرب - أحدهما معه زوجته وثلاثة أولاد - في شقة وسط المدينة. ونقرأ قوله: «هذه الشقة ليست لي. إنها لساكنيها الذين

هربوا منها والذين سيعودون إليها يوماً». وكان طيران التحالف حيناً، والروسي حيناً، يقصف منبج، بينما تتقدم نحوها قوات سورية الديمقراطية (قسد) الكردية التي كانت قد سيطرت على سد تشرين القريب، على نهر الفرات، وهو السد الذي سمته داعش (سد الفاروق).

في يوم الهروب الموعود، مضى محمد الفاهم ومن معه إلى منزل المهرّب، لكن سيارته العائدة إلى إدارة المعسكرات انزلقت واصطدمت بعمود، بسبب الجليد. ومن الأموال المخصصة للمهرّب اقتطع أجرة الميكانيكي الذي أصلح السيارة، ليغادر الركب منبج مساءً إلى مدينة الباب الحدودية القريبة. لكن السيارة تعطلت مرة أخرى، وهكذا اضطروا إلى تأجيل السفر إلى الغد، وأبلغ الفاهم بذلك القيادي في جبهة النصرة الذي ينسّق الهرب من داعش، وهو من سيوصلهم إلى إحدى المجموعات الإسلامية المعارضة.

كانت منبج منطقة حدودية هامة، كممرّ للمجاهدين / المهاجرين القادمين من تركيا. ويروي الفاهم أنك كنت تسمع في منبج مختلف اللهجات العربية: التونسية والجزائرية والمصرية والمغربية والشامية، وكذلك مختلف اللغات: الفرنسية والإنجليزية والألمانية والروسية والصينية.. ومن ذكريات محمد الفاهم في منبج مطعم البيك، أحد مطاعم سلسلة مشهورة في الشرق الأوسط، وقد تأسس أول فرع لها في جدة في سبعينات القرن الماضي.

بعد تعطّل السيارة كان على الفاهم ومن معه تدبير المال لمتابعة الهروب. وكان بيع سلاحهم هو الحل، مع ما يعنيه ذلك من الخطر، إذ إن دكاكين بيع السلاح في منبج كانت قد صارت في الشهور الأخيرة تحت رقابة (ديوان الحسبة) و (أمنيّ الدولة). وكان الفاهم قد فوجئ منذ وصوله إلى أرض الخلافة الداعشية بالدكاكين التي تبيع السلاح، فيما عرف من المدن التي تسيطر عليها الدولة. وقد علم من بعض التجار أن هذه التجارة انتشرت في الشمال السوري منذ بداية العمل المسلح مطلع ٢٠١٢.

كان سلاح محمد الفاهم (الكلاش) هو الأغلى ثمناً، ويُعرف بين مقاتلي الدولة بالكلاش ذي النجمة المختومة على حافته، وقد حصل عليه من مخزن للسلاح في مدينة القائم العراقية الحدودية. ويروي الفاهم أن ديوان الحسبة والأمنيين كانوا يحققون مع من يعلمون أنه باع سلاحه، فإذا ثبت أنه يحاول الانشقاق والهروب، أُخضع إلى دورة استتابة، فإذا لم تنفع، فالسجن، وقد يكون نصيبه (القصل) إذا ما اكتشف أنه يتبنى أفكار من يدعونهم غلاة وخوارج.

***

في سردية أو رواية أو الكتاب الأدبي لهادي يحمد، الكثير والموجع من حياة محمد الفاهم منذ ولادته في مدينة بورتموند الألمانية إلى فتوته وشبابه في تونس، وما انتهى إليه من الانخراط في السلفية الجهادية التي وصلت به إلى تركيا فسورية. وعبر ذلك تلتمع منبج كأنما ضيعت ما كانت (مدينة الشعراء). وستضيّع بعد شهور من هروب محمد الفاهم ما صارت (مدينة المهاجرين ومدينة الهروب) بعد هزيمة داعش، وقدوم الأميركان والروس والأكراد - وعلى مقربة داخل الحدود السورية: الأتراك - فهل هذا هو تبدد منبج بانتظار قيامة أخرى، شأن سورية كلها؟

الكذب كخطأ شائع

عبد الفتاح القلقيلي*

كنتُ في السنوات الأخيرة مشغولا بموسوعة للمصطلحات، وكانت تذاع على محطة اجيال الاذاعية. وفي نهاية السنة الماضية (٢٠١٦) صدر كتاب عن سلسلة «عالم المعرفة» الكويتية بعنوان «لماذا يكذب القادة؟- حقيقة الكذب في السياسة الدولية» للكاتب الأميركي «المشاغب» جون جي ميرشيمر، وبترجمة الدكتور غانم حمد النجار استاذ العلوم السياسية في جامعة الكويت. اما المؤلف فهواستاذ العلوم السياسية في جامعة شيكاغو الأميركية، وله عدة كتب منها «مأساة السياسة في الدولة العظمى» و «اللوبي الاسرائيلي وسياسة أميركا الخارجية». الكتاب الاخير اثار جدلا واسعا، وربما كان هذا الكتاب هو الذي دفع اللوبي الاسرائيلي لإصدار كتاب مضاد بعنوان «اللوبي العربي». وبعد ان قرات»لماذا يكذب القادة» حضر في ذهني سؤال: «لماذا يكذب الناس؟»، فرجعت لأوراقي في المصطلحات، فوجدتُ انني اتيت على مصطلح «الكذب» وفرّقتُ بين الكذب والخطأ. وكان كما يلي:

"الخطأ هو ما خالف الواقع وعكسه الصواب ويقع في مجال الرأي، اما الكذب فهو ما خالف اعتقاد الراوي وعكسه الصدق، ويقعان في مجال الإخبار. ويمكن ان نعبر عن الصواب والصدق بـ«الصحيح».

وللكذب انواع متعددة: الكذب، والبهتان، والافتراء، والإفك، والجَحد، والخلف، والزور، والمحال.

الكذب: هو عدم مطابقة الخبر للواقع، أو لاعتقاد المخبر (كما اسلفنا)، اما الافتراء فأخَّص منه، لانه الكذب في حق الغير بما لا يرتضيه، بخلاف الكذب فإنه قد يكون في حق المتكلم نفسه. ولذا يقال كاذب لمن قال: (فعلت كذا ولم أفعل كذا) مع عدم صدقه في ذلك، ولا يقال عنه مفتر . ومن مدح أحدا بما ليس فيه، هو كاذب ولايقال مفتر، لان في ذلك ما يرتضيه الممدوح. وقد يحسن الكذب على بعض الوجوه، كالكذب في الحرب، وإصلاح ذات البين، بعكس الافتراء.

---

* كاتب وباحث من فلسطين

وأما البهتان: فهو الإفتراء الذي يواجه به المفترى عليه. قال تعالى: «وقولهم على مريم بهتانا عظيما»

اما الإفك فهو الافتراء فاحش القبح، مثل قذف المحصنة وغير ذلك مما يظهر قبحه. قال تعالى «ويل لكل أفاك أثيم». وقال تعالى «أنى يؤفكون» أي يصرفون عن الحق. وتسمى الرياح المؤتفكات لانها تقلب الارض فتصرفها عما عهدت عليه، وسميت ديار قوم لوط المؤتفكات لانها قُلبت بهم.

اما الجحد فإنكار الشئ الظاهر، أو إنكارك الشئ مع علمك به، اما اذا لم يكن لك علم به يكون مجرد انكار.

وأما التكذيب فهو التصميم على أن الخبر كذب بالقطع، ونقيضه التصديق. ولا تطلق صفة المكذّب إلا على من كذب بالحق لانها صفة ذم الا إذا قُيّدت فقيل مكذب بالباطل، كما أن الكافر صفة ذم الا اذا قيل كافر بالطاغوت.

الفرق بين الخلف والكذب: الكذب يكون فيما مضى، كأن تقول فعلت كذا، وانت لم تفعله! اما الخلف فيكون في ما يُستقبل، كأن تقول سأفعل كذا ولا تفعله.

اما الزور فهو الكذب الذي قد سُوّي وحُسّن في الظاهر ليُحسب أنه صدق، ومنه شاهد الزور. وكذلك تقول زوّرتُ الشئ إذا سويته وحسنته.

أما المحال، فهو ما احيل من الخبر عن حقه حتى لا يصح إعتقاده، ويُعلم بطلانُه بسهولة، مثل قولك سأقوم أمس، وشربت غدا.

من المعروف ان الكذب شيء خاطيء من الناحية الأخلاقية والناحية الدينية ايضاً، ولكن للإسف فهو خطأ شائع ، واصبح غريزة طبيعية بالنسبة للبشر، وللكذب والخداع دائما عواقب وخيمة .. فلماذا يكذب الناس ؟

فيما يلي بعض الأسباب التي تدفع بعض الناس للكذب ..

١- السبب الأعم للكذب هو الخوف. عندما يكون الشخص على علم بإنه سيتعرض للعقاب على فعل قام به، فإنه يلجأ للكذب، وعندما يعلم انه سيحرم من المكافأة (مادية كانت او معنوية) فانه يلجأ للكذب. وهذا رد فعل إنعكاسي طبيعي حتى ينأى بنفسه عن العقاب، او يجعل نفسه تستحق المكافأة. ويظهر هذا النوع من الكذب عادة عند الأطفال من أجل الخروج من المأزق.

٢- هناك سبب شائع آخر للكذب، وهو لتحسين الصورة أو حفظ ماء الوجه ، حيث يصور الشخص نفسه على أنه ناجح، جيد، مهذب، أي يمتلك كل الصفات الإيجابية، وأحيانا يبالغ الشخص في ذلك لإقناع من حوله وتضليلهم.

٣- أحياناً يكذب الشخص على سبيل المزاح والتندّر.

٤- يكذب بعض الأشخاص ليبدون محبوبين في المجتمع وبين الناس، وللحفاظ على العلاقات الجيدة ، وتجنب الخلافات، ويحدث هذا الكذب غالباً في مجال العمل، ولحماية خصوصياتهم ، أو الحفاظ على الذات والثقة بالنفس.

٥- الكذب لإغفال الآخرين عن الحقيقة. وهذا النوع من الكذب صار شائعاً جدا في مجال الاعمال والاعلام والسياسة ، كأن يكذب البائع على الزبائن بشأن جودة مبيعاته ليشتري الناس منه. وهذا النوع من الكذب هو الشائع بين الساسة عموما وخصوصا عند المسؤولين. أصبح السياسي الناجح هو من يتقن فن الكذب بمختلف أشكاله وأنماطه، ولدرجة أن «السوق السياسي «هو سوق الكذابين بامتياز»، وصارت السياسات كانها»عملة» حيث «الرديء منها يطرد الجيد من سوق التداول».

إن الكذب السياسي هو اخطر أنواع الكذب لأنه يعمد إلى تضليل الأمة بأكملها ولا يقتصر على أفراد أو جماعات معينة فكيده عظيم.والأخطر من ذلك أن يستمر الكذاب في موقعه وكذبه ويجد تبريرا له، فالسياسي الذي يتقن فن الكذب هو من يملك الجاذبية والقدرة على الإقناع في صفوف الجماهير ،لسبب بسيط هو انه يبيع الوهم لكل نفس ذائقة الإحباط والمعاناة، فهو الترياق لتضميد الجراح وان كان بشكل مؤقت،انه منطق يشتغل وفق قاعدة «التقسيط في الصدق والكذب بالجملة» لدرجة التخمة. وفي كتاب «لماذا يكذب القادة» يشير الى السير هنري وتون، الدبلوماسي البريطاني الشهير في القرن السابع عشر الذي اطلق تعليقا مشهورا بأن «السفير هو رجل امين، أرسل الى الخارج ليكذب من اجل مصلحة دولته»، وما زال هذا الوصف للسفير حتى يوم صدور هذا العدد لهذه المجلة.

وكما اورثت بريطانيا أميركا السيطرة على العالم بشكل مباشر او غير مباشر، اورثتها ايضا «مبدأ» الكذب عند ساستها، ولذلك كان الكذب وتزييف الحقائق سمة رئيسية للسياسة الأميركية باستثناءات نادرة، فقد احترف سياسيوها الكذب في المجال الاجتماعي كما فعل الرئيس كلينتون بموضوع مونيكا لوينسكي. واعتاد القادة الأميركيون على الاستناد الى معلومات (مع علمهم) انها خاطئة، سواء في السياسة الداخلية كما فعل نيكسون في فضيحة «ووتر غيت»، او كما فعل ليندون جونسون إبان حرب فياتنام، وفضيحة تدمير واحتلال العراق كما بدأ بوش الاب وأكمل بوش الابن. وبما ان الكيان الصهيوني هو ابن السياسة البريطانية، والاخ الاصغر للسياسة الأميركية فقد كان (ومازال) الكذب هو الصفة الرئيسة لقادته. ومعظمهم مدانون، او يحاكمون بجرائم اخلاقية، وسيحاكمون قريبا بجرائم حرب.

في السياسة الدولية يقل كذب القادة على بعضهم لان الطرفين يعرفان الحقيقة، ولو فعلوا لما تحمل شعبهم اية عواقب. ولكن الكذب على الشعوب في السياسة الخارجية تكون نتائجه كارثية. فجورج بوش كان يعلم تماما ان العراق لا يملك اي اسلحة نووية، وان تهديدات صدام لم تكن حقيقية ابدا وكان صدام يعلم تماما ان أميركا لا تصدقه ولا تخشاه، ولكن كليهما (صدام وبوش)كانا يخدعان شعبيهما، وذلك لاقناع شعبيهما بعبقرية صدام وديموقراطية بوش، ولابقاء الشعبين، بل الشعوب عامة اسيرة الخوف والترقب، ويبحثون عن الأمان في احضان قادتهم.

وقد جاء في كتاب «لماذا يكذب القادة» المذكور اعلاه انه «نُسب لوزير خارجية هاري ترومان عبارته الشهيرة عن خطر الشيوعية، التي قال إنها لا بد من أن تُقدم بمصطلحات «أكثر وضوحا من الحقيقة".

وقد وضع ليندون جونسون هذه العبارة موضع التطبيق، فضلل الكونغرس بشأن هجوم مفترض على المدمرة الأميركية في خليج تونكين حتى يتمكن من تأمين التفويض لحرب فيتنام.

وبالرغم من أن الأسباب قد تكون وطنية، فإن فرانكلين روزفلت، على سبيل المثال، كذب على الشعب الأميركي بشأن مهاجمة قوارب يوboats(-U) الألمانية المدمرة جرير (USS Greer) في عام ١٩٤٠، لبناء قضية الحرب ضد هتلر، لأنها كانت ستؤدي بسهولة إلى كارثة، كما هو الحال مع أكاذيب إدارة بوش بشأن أسلحة الدمار الشامل العراقية.»

ولكن، وباعتراف الجمهوريين انفسهم، فان ترامب هو الرئيس الأميركي الأكثر كذبا.

وفي تقرير لصحيفة «نيويورك تايمز» نقل عن مؤرخين وسياسيين من كلا الحزبين الديمقراطي والجمهوري اعتقادهم أن الرئيس دونالد ترامب أحدث نقلة نوعية في فن الكذب الذي يتقنه السياسيون، وهو ما أسمته الكاتبة هانا أرندت بـ«الصراع بين الحقيقة والسياسة».

وأوضحت الصحيفة أن ترامب يمارس الكذب والتزييف بصفة يومية، من ترويجه لكذبه الفاضح حول عدد من حضروا أداءه اليمين الدستورية، ووصولاً إلى ادعائه بتلقيه اتصالين هاتفيين من الرئيس المكسيكي ومدير الكشافة – وهو ما لم يحدث. لا يتوقف ترامب عن ترويج الأكاذيب والمعلومات المضللة، ولا يصدقه الا اولئك الذين يجدون ان كذب ترامب يتواءم ومصالحهم غير الشرعية.

اما في العالم الثالث، وفي الشرق الاوسط خاصة، فحدّث ولا حرج عن كذب السياسيين على شعوبهم، وإجبار مثقفيهم وإعلامهم المقروء والمسموع والمرئي على تبني أكاذيبهم وترويجها. وقد قال احد الظرفاء :وكأن ترامب هو شخصية مستنسخة من قادة العالم الثالث حيث يجري على لسان اهل تلك المناطق المقولة التالية: «في كل المناطق الكذب ملح رجال السلطة والعيب في الصادق». اما في الخليج فيقولون: «الكذب للأمير، والدجل للوزير، والصدق للفقير، وغير هيك ما بصير».

أوراق ثقافية

بورخيس وكويلهو مثالا!

استلهام ألف ليلة وليلة في القصة والرواية العالمية

حسين عيد

تلعب كتب (التراث) وخاصة كتاب «ليالي ألف ليلة وليلة» دورا بالغ الأهمية فيما (يستلهمه) (الأدباء) منها في مجالات القصة والشعر والرواية بشكل عام، ويزداد هذا الدور بروزا بالنسبة (للقصة) و(الرواية) العالمية بشكل خاص.

يتناول هذا البحث ذلك الاستلهام (المباشر) من (حكاية) صغيرة ظهرت بين ثنايا الليلة ٣٥١ من «ليالي ألف ليلة وليلة»، وذلك على امتداد صفحتي (٣٠٩ و٣١٠) التي صدرت طبعتها الثانية ضمن سلسلة «الذخائر» عن الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة عام ١٩٩٧ العدد ١٣، حيث استلهم منها الكاتب الأرجنتيني الكبير خورخي لويس بورخيس قصة «حكاية الحالمين» التي ترجمها إبراهيم الخطيب ضمن كتاب «المرايا والمتاهات»، الذي صدر عن دار توبقال للنشر بالدار البيضاء بالمغرب عام ١٩٨٧، وكذلك استلهم منها الكاتب البرازيلي الشهير باولو كويلهو رواية «الخيميائي وحجر الفلاسفة» التي صدرت لها أكثر من ترجمة في أنحاء الوطن العربي الكبير، منها ترجمة بهاء طاهر التي جعل عنوانها «السيميائي: ساحر الصحراء» وصدرت عن دار الهلال، وترجمة فارس غصّوب عن الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع بليبيا عام ١٩٩٥.

(١)

وردت (حكاية) «ألف ليلة وليلة» تحت عنوان «وممّا يحكى ..»، وكانت كما يلي: «إن رجلا من بغداد كان صاحب نعمة وافرة ومال كثير فنفد ماله وتغيّر حاله وصار لا يملك شيئا ولا ينال قوته إلاّ بجهد جهيد فنام ذات ليلة وهو مغمور مقهور فرأى في منامه قائلا يقول له انّ رزقك بمصر فاتبعه وتوجّه إليه فسافر إلى مصر فلما وصل إليها أدركه المساء فنام في مسجد وكان إلى جوار المسجد

بيت فقدّر الله تعالى أن جماعة من اللصوص دخلوا المسجد ووصلوا منه إلى ذلك البيت فانتبه أهل البيت على حركة اللصوص وقاموا بالصياح فأغاثهم الوالي بأتباعه فهربت اللصوص ودخل الوالي الى المسجد فوجد الرجل البغدادي نائما في المسجد فقبض عليه وضربه بالمقارع ضربا مؤلما حتى أشرف على الهلاك وسجنه فمكث ثلاثة أيام في السجن ثم أحضره الوالي وقال له من أي البلاد أنت قال من بغداد قال له وما حاجتك التي هي سبب في مجيئك إلى مصر قال أني رأيت في منامي قائلا يقول لي رزقك بمصر فتوجه إليه فلما جئت إلى مصر وجدت الرزق الذي أخبرتني به تلك المقارع التي نلتها منك فضحك الوالي حتى بدت نواجذه وقال له يا قليل العقل أنا رأيت ثلاث مرات في منامي قائلا يقول لي أن بيتا في بغداد بخط كذا ووصفه كذا بحوشه جنينة تحتها فسقية بها مال جرم عظيم فتوجه إليه وخذه فلم أتوجه وأنت من قلة عقلك سافرت من بلدة إلى بلدة من أجل رؤيا رأيتها وهي أضغاث أحلام وأعطاه دراهم وقال له أستعن بها على عودك إلى بلدك فأخذها وعاد إلى بغداد وكان البيت الذي وصفه الوالي ببغداد هو بيت ذلك الرجل فلما وصل إلى منزله حفر تحت الفسقية فرأى مالا كثيرا ووسّع الله عليه رزقه وهذا اتفاق عجيب» .

توجد، في هذه الحكاية، شخصيتان (متقابلتان): مواطن من بغداد بالعراق، ووالي حاكم من مصر. كان البغدادي ثريا فصار لا يملك شيئا (دون أن يوضّح لنا النص مبررات هذا التحوّل)، حتى أصبح عليه أن يبذل أقصى جهده للحصول على قوت يومه، بينما كان الوالي يرتع في ذروة منصبه وقد دانت له الدنيا. العنصر (المشترك) بينهما، هو أن كلا منهما رأى (حلما) يحثّه على القيام (برحلة) إلي بلد الآخر (البغدادي إلى مصر، والوالي المصري إلى بغداد)، لأن هناك (كنزا) ينتظره!

فكيف كانت استجابة كلّ منهما؟!

لم يكن البغدادي يملك شيئا، وكان يبذل الجهد الجهيد للحصول على رزقه، فأخذ الحلم مأخذ الجد، واندفع وراءه مرتحلا إلى مصر، بينما سخر الوالي من الحلم وتجاهله، لأنه كان يرتكز على المنصب والثروة والجاه!

لعبت (المفارقة) دورا رئيسيا في لقائهما، الذي تمّ في السجن، والذي بقي فيه لمدة ثلاثة أيام كاملة، كانت هي المدخل إلى لقاء الوالي، الذي حاول أن يفهم السبب في ارتحال رجل من بغداد، كي يقبض عليه في مصر في موضع ملتبس، فحكى للوالي أمر (حلمه). وفي (اللحظة)، التي ظنّ فيها أن سعيه وراء حلمه قد خاب، وأن كنزه الموعود كان وهما، إذا بهذه اللحظة ذاتها تنقلب إلى لحظة (تنوير)، حين سخر الوالي من فعله، لأنه سبق أن حلم هو أيضا بكنز ينتظره تحت فسقية بيت في بغداد، ولم يحلم بذلك مرتين فقط مثله بل ثلاث مرات. عندئذ انجلى الأمر، وأدرك البغدادي ما كان خافيا عليه من أمر حلمه، وتفهّم

مبرر رحلته، وعنصر (الحتمية) الذي تطلب (ضرورة) سفره، فلن يكون الحصول على سرّ (الكنز) سهلا ميسرا، بل هو متاح فقط لمن (فهم) نتيجة تجربة مريرة أن مآل الثروة الى زوال، وأن على الفرد أن يبذل قصارى جهده للحصول على قوت يومه. عندئذ يكون قد أصبح (مهيئا) لتلقي (الحلم)، أو النبوءة، ليتخذ قراره بالقيام بالرحلة تلبية لنداء الحلم. ولا يتوقف الأمر عند هذا الحدّ فقط، بل عليه أن يعاني ويبذل أقصى جهد في رحلته، متحملا كلّ مصاعبها بصدر رحب، حتى تنفتح أمامه الأبواب الموصدة في النهاية، وينكشف المستور، ليكمل الدورة ويؤوب إلى بيته ليحصل على الكنز الثمين!

تمّ في الحكاية السابقة، رسم شخصيتين شديدتي (الوضوح) هما البغدادي والوالي، ليس لأيّ منهما ملامح خاصة، وان جرى التركيز فيها على (التقابل) بين رد فعلهما، لأنّه (جوهر) الحكاية. كما كان فيها جنوح إلى (التبسيط)، دون الاعتماد على الرسم بالتفاصيل الصغيرة.

(٢)

استفاد الكاتب الأرجنتيني الكبير خورخي لويس بورخيس (١٨٩٩ – ١٩٨٦) من الحكاية السابقة، التي وردت في الليلة ٣٥١ من كتاب الليالي، في استلهام قصة قصيرة بعنوان «حكاية الحالمين»

هنا، غيّر بورخيس موطن الرجل فجعله يعيش في القاهرة بدلا من بغداد. وفي الوقت الذي حافظ على ملمح ثرائه الفاحش، إلاّ انه فسّر أسباب تبديد ثروته، بأنه كان «مبسوط اليد متحررا»، وان أبقى على بيت أبيه، ربّما كنوع من الوفاء لذكرى الأب، أو حفاظا على الحدّ الأدنى من المظهر، أو الإبقاء على مكان صالح للحياة، أو – وهو الأهم – استكمالا لنقص في حكاية ألف ليلة حين لم (تمهّد) منذ البداية بتملك البيت، الذي سيكون موطن الكنز في النهاية، وهو ما يعتبر أحد عناصر القصّ الحديث. وبينما حافظ بورخيس على التحوّل، الذي طرأ على بطل قصته لتبديد ثروته واضطراره إلى العمل لتدبير قوت يومه، فانه لم يجنح إلى المبالغة في بذل الجهد، كما فعلت الليالي، بل خفف الوطء عليه بالوصول مباشرة إلى نتيجة «فأرهق»، ليفتح الباب إلى النوم «تحت تينة بحديقته»، وصولا إلى الحلم الذي ورد في الليالي، حين «رأي في منامه قائلا يقول له أن رزقك بمصر فاتبعه وتوجّه إليه»، نجد أن بورخيس قد عرضه بشكل آخر، وهو أنه «رأى في المنام رجلا مبتلا يخرج من فمه قطعة نقود من ذهب، ويقول له: «ثروتك في أصفهان بفارس، فاذهب وابحث عنها».

وفي حين ربطت (الليالي) الحلم بالرزق فقط، حاثّة الباحث عن الرزق على المضي وراءه، نلاحظ أن بورخيس تحرّى وهو يعرض رؤيته، أن يوحي الحلم بوجود (ثروة) تخصّه في أصفهان بفارس، وليس مجرّد توافر رزق فقط. وبينما قدمت الليالي الحلم بشكل (خبري) غير مباشر، فانّ بورخيس (جسّد) رجل الحلم موشّيا ايّاه بملمحين (رمزيين) : الأول حين جعله «مبتلا»، وهو ما سيتفسّر في

النهاية بوجود الكنز (الذهب) تحت فسقية ماء، والثاني وهو «يخرج من فمه قطعة من ذهب»، موحيا بوجود كنز من ذهب، ليكون ذلك (حافزا) له على الحركة، (مهيئا) النفس لاحتمال سفر طويل، «فاستيقظ الرجل عند الفجر الموالي، وشرع في السفر الطويل» .

هنا، يتبين بجلاء أن بورخيس قد استفاد من حكاية الليالي، لكنه لم يقدمها كما هي، بل قدّم لونا آخر من فنون السرد، هو فن (القصة القصيرة)، الذي يعتبر لونا أدبيّا (مكتوبا)، له تقنياته الخاصة، بدءا من وضع عنوان للقصة، اعتمد في اختياره على (جوهر) الواقعة، وهو «حكاية الحالمين»، مع الاستعانة (بالتفاصيل) الصغيرة في رسم الشخصيات، وإرساء ملامح الزمان والمكان. كلّ ذلك في بناء فني محسوب، يمهد فيه باستمرار لما سيلي من أحداث، وتسدّ فيه ثغرات الحكاية الأصلية، وتحكمه حبكة فنية تعتمد على علاقات سببية، تدفع بتيار السرد إلى خاتمة منطقية في نهاية المطاف!

وفي الوقت الذي توجز فيه الليالي الرحلة بشكل مبهم «فسافر إلى مصر»، نجد أن بورخيس خاض في تفاصيلها: «فواجه أخطار الصحاري، والسفن، والقراصنة، وعبدة الأوثان، والأنهار، والسباع، والرجال». هنا، نلاحظ توافر علاقة سببية بين ما يحدث: كان الحلم من القوة (سببا) دفع الرجل إلى الاستيقاظ مبكرا مع الفجر، عاقدا العزم على السفر (نتيجة). وهكذا بدأ رحلته (فعل)، فواجه أخطارا عديدة متنوعة، لكنه تغلب عليها جميعا بإصراره وقوة إيمانه بحلمه (رد فعل)!

المدهش في معالجة بورخيس أنه عكس حركة الرحلة، فبدلا من أن تبدأ من بغداد وتنتهي في القاهرة، جعلها تبدأ من القاهرة لكنها لا تنتهي في بغداد، بل في أصفهان بفارس. ولاشك أن أصداء إمبراطورية فارس القديمة وأساطيرها تلعب دورا موحيا بالثروة ربّما أكثر من القاهرة!

وقد اشتركت حكاية الليالي وقصة بورخيس في زمن الوصول، عندما أدركه الليل ونام في مسجد إلى جوار دار، لم تحدد الليالي موقعه، بينما جعله بورخيس عند سور أصفهان. وفي الوقت الذي عرضت فيه الليالي مباشرة (للتزامن) العجيب بين هجوم لصوص على بيت مجاور للمسجد ويقظة سكانه واستغاثتهم بالوالي وفرار اللصوص واعتقال البغدادي المتواجد في المسجد وسجنه حتى قابله الوالي، نجد أن بورخيس قد أرجع ذلك التزامن إلى (المشيئة) الإلهية مرّة ثانية «فشاءت حكمة الله» أن يكون البغدادي في هذا التوقيت بالذات في المسجد (سبب)، حين «تعبر المسجد عصابة لصوص وتدخل الدار» (فعل)، و«استيقظ القوم النائمون بفعل جلبة اللصوص، واستغاثوا، وصرخ الجيران أيضا إلى أن أتجه ضابط عسس تلك المنطقة هو ورجاله إلى المكان ففرّ اللصوص بجلودهم عبر السطح. أمر الضابط بتفتيش المسجد، فعثر فيه على الرجل القادم من القاهرة، وأشبع ضربا بهراوات الخيرزان حتى كاد أن يهلك. بعد يومين استعاد الرجل وعيه بالسجن، فاستدعاه الضابط» (نتيجة)!

نحن، هنا، مرة أخرى أمام بناء قصصي منطقي يتحرى السبب والنتيجة، والفعل ورد الفعل، ويهتم بالتفاصيل الصغيرة، وهو يرسم شخصيات القصة ويتتبع أحداثها ناشدا حبكة كلية للنص، ففي حين استغاث الأهالي في الليالي بالوالي، الذي يكون عادة معزولا في قصره، تحرّي بورخيس الدقة حين استبدله بضابط العسس الذي يتواجد بحكم طبيعة عمله في المدينة. وبينما جعلت الليالي هرب اللصوص معمما دون تفسير، بيّن بورخيس وسيلة هرب اللصوص عن طريق سطح الدار. وبينما أمضى الرجل في الليالي ثلاثة أيام في السجن، جعلها بورخيس يومين وأرجعها إلى إغماءة ألمّت به، فلم يحقق معه الضابط إلاّ بعد أن أفاق. وبينما انتقلت الليالي مباشرة من استفسار الوالي عن بلد الرجل لينتقل إلى السبب في مجيئه إلى مصر، نجد أن بورخيس جعل الضابط يسأل الرجل، كمن يدير (تحقيقا) فعليا «من أنت ومن أيّ أرض جئت؟» أعلن الآخر «إنني من مدينة القاهرة الشهيرة، واسمي محمد المغربي»

يكون فصل الختام هو (تواجه) الحالمين، حين اختار القاهري «الصراحة وقال له: «أمرني رجل في المنام أن آتي إلى أصفهان، لأنّ بها ثروتي. أنا الآن في أصفهان وأرى أن الثروة التي وعدني بها قد تكون الضرب الذي أشبعتني إيّاه».

مرّة أخري يحدث)توافق(بين حكاية الليالي وقصة بورخيس، حين اعتمد كلاهما على منح الموقف مسحة تهكم (معادلة الضرب بالكنز)، وهو ما يتيح للطرف الثاني أن ينفجر في الضحك ليقدم ما لديه متفاخرا بما فعل «لم يتمالك الضابط نفسه إزاء هذا الكلام من الضحك حتى برزت أضراس رشده، ثم ختم قائلا :»أيها الرجل الأخرق السريع التصديق، لقد حلمت ثلاث مرات بدار في مدينة القاهرة في قاعها حديقة، وفي الحديقة ساعة شمسية، ووراء الساعة الشمسية تينة، ووراء التينة عين ماء، وتحت عين الماء كنز. بيد أني لم أصدّق هذه الأكذوبة. أما أنت يا نسل نكاح البغلة والشيطان لا ريب، فخرجت تائها من مدينة إلى مدينة، لا يدفعك إلاّ إيمانك بحلمك. لا أريد أن أراك بعد الآن في أصفهان، خذ هذه النقود وامض ...»

هنا ،لابد أن نتوقف أمام ملمحين في معالجة بورخيس لمشهد الختام، هما مابدا من حسن توظيف لإيقاع الصور المتتابع، الذي تتميز به الحكاية الشعبية، ظهر كما يلي: بدار في مدينة القاهرة / في قاعها حديقة / وفي الحديقة ساعة شمسية / ووراء الساعة الشمسية تينة / ووراء التينة عين ماء / وتحت عين الماء كنز. أمّا الملمح الثاني فكان كشف الضابط للدافع الأساسي لتحرّك الرجل القاهري وارتحاله وهو (الإيمان) بالحلم، حتى بدت الحقيقة دانية بالنسبة للضابط لكنه لم يستطع أن يمسك بها، لأنه لم يكن مهيئا أساسا للإقبال عليها والإمساك بها!

(٣)

لعلّ الروائي باولو كويلهو، الذي وُلد في ريودي جانيرو بالبرازيل عام ١٩٤٧، قد استلهم حكاية ألف ليلة وليلة، وجعل منها (مرتكزا) لبناء رواية «الخيميائي وحجر الفلاسفة» (١٩٨٨). لكن كويلهو جعل بناء روايته أقرب ما يكون الى الشكل (الديني) خاصة عند المتصوفة، الذي يتكون من أربع مراحل: مرحلة التهيّؤ، مرحلة الرؤيا، مرحلة الارتحال، ومرحلة الوصول!

مرحلة التهيّؤ:

اختلفت معالجة باولو كويلهو بالنسبة للشخصية (المحورية) في هذه الرواية، من زاويتين: حين جعلها لصبى يافع، يدعى «سانتياجو»، بدلا من كونها لرجل ناضج سواء في الحكاية الأصلية لليالي أو قصة «بورخيس». وثانيا من ناحية (الديانة) ففي حين كانت في حكاية الليالي لرجل (مسلم)، وتحدد باسم محمد المغربي في قصة «بورخيس»، جعلها كويلهو في رواية «الخيميائي» لصبي (مسيحي) هو «سنتياجو» وبالتالي اختلفت مرحلة التهيؤ بالنسبة إليه، فلم يكن من الضروري أن يمرّ الفتي بنفس تجربة فقد الثروة السابقة حتى يتعلّم منها ويصبح مهيئا لتلقي الرؤيا، لأنه كان يمتلك قناعة (داخلية) أشبه ما تكون (باستعداد) خاص، فقد كان «منذ نعومة أظفاره، يحلم بمعرفة العالم»، و«إنّ إمكانية تحقيق حلم ما، هي بالضبط ما يجعل الحياة ممتعة»؛ وهو ما دعاه إلى أن يواجه أباه بأنه لا يريد أن يصبح (كاهنا)، لأنه يريد السفر، فأخبره أبوه «عندنا الرعاة وحدهم يستطيعون أن يتعرفوا على بلدان كثيرة. أجابه ببساطة: إذن، سأصبح راعيا، فأعطاه أبوه بعض قطع ذهبية كان يمتلكها، ليشترى بها قطيعا يتجوّل به في العالم»

مرحلة الرؤيا:

هكذا انطلق الصبي «سانتياجو» في ترحاله، بعد أن يسّر له عمله الجديد كراعي غنم سبيل السفر، ليدخل بعد فترة في مرحلة الحلم أو الرؤيا. كان الفتى قد (حلم) مرتين، وهو يقضى الليل مع قطيعه قرب شجرة جميز عملاقة داخل أطلال (كنيسة) مهجورة بأسبانيا (هنا، كان مبتدأ الرحلة في كنيسة، بينما كانت نهايتها هناك في مسجد)، أن ولداً يلعب مع الخراف أمسك يده واقتاده حتى أهرام مصر، قائلا «إذا جئت هنا ستجد كنزا مخبأ»، وفى اللحظة التي أوشك فيها أن يدلّه على المكان الصحيح، استيقظ في المرتين!

لجأ الفتى إلى غجرية، كي تفسّر له الحلم، لكنها اشترطت أن تحصل على عشر الكنز إذا وجده، لأنه سيجعل منه رجلا ثريا، فانصرف الفتى. وحين كاد أن ييأس من تفسير حلمه، ظهر له (ملك سالم) العجوز، الذي ساعده على أن يتبين الطريق؛«لأنه توجد حقيقة كبرى في هذا العالم: كائناً من تكون، ومهما فعلت، عندما تريد بالفعل شيئاً ما، فذلك يعنى أن هذه الرغبة قد وُلدت في روح الكون، وان تلك هي مهمتك على الأرض». و«عندما تريد شيئاً، يتواطأ الكون بكامله كي يسمح لك بتحقيق

رغبتك «، و»تحقيق أسطورة الناس هو واجبهم الأوحد الوحيد».

كان الملك العجوز يظهر لأولئك الذين يكونون على وشك التخلّي عن أن يعيشوا أسطورتهم الخاصة؛ حتى يقنعهم بالتمسّك بها.

مرحلة الارتحال:

لم يكن الحلم وحده كافيا كي يحفز الفتى على القيام بالرحلة، ومن هنا بدت (ضرورة) لقائه مع الملك العجوز في طارينا بإسبانيا؛ كي يبدأ مرحلة الارتحال، فعبر البحر إلى ميناء طنجة، إلى واقع جديد مغاير، حيث (الحضارة الإسلامية)، وحيث يتحدّث الناس لغة أخرى هي (العربية). في ذلك الميناء، سرق فتى أمواله بحجة مساعدته وسرعان ما اختفى، فاضطر أن يعمل لدى بائع بلّوريات، كان حلمه الوحيد هو الحج الى مكة. وبعد أن أمضى سانتياغو شهرا في العمل، اقترح على البائع وضع خزانة عرض للبضاعة خارج الحانوت؛ لتجذب انتباه المارة، وبتنفيذ الاقتراح زادت المبيعات فعلاً!

هنا، نموذجان (متقابلان) تماماً، نتاجا حضارتين مختلفتين، بينهما فارق جوهري. فتى (مسيحي) يسعى إلى تحقيق حلم حياته (أسطورته) الخاصة وعجوز (مسلم) قانع بمجرد حلم يقظة (الحج إلى مكة)، لكنه لا يبذل أيّ جهد لتنفيذه!

ومضى أحد عشر شهراً وتسعة أيام والفتى يعمل لدى بائع البلّوريات، وحين شعر أن الوقت قد حان ثانية للرحيل، انطلق في طريق تحقيق أسطورته الشخصية بالسفر إلى الأهرام، بينما العجوز (قانع) بحياته لا يسعى إلى تغييرها!

هنا ،لابد أن نلاحظ أن بناء الرواية، وإن ارتكز على (جوهر) حكاية الليالي من زاوية الحلم والرحلة، فإنه سمح برسم عدد كبير من الشخصيات وتقديم كثير من الوقائع والأحداث المتشابكة، والفيصل في الفن هو أن يأتي كل ذلك متّسقا داخل نسيج واحد، ولذلك نرى كويلهو بعد أن قدّم شخصياته السابقة، ها هو يقدم نموذجين موازيين للفتى، وذلك حين قابل الفتى في خان بطنجة، رجلاً إنجليزياً كان (حلم) حياته، أن يتعرف على اللغة التي يتكلم بها الكون، فدرس الأديان وانتهى إلى الخيمياء، ذلك العلم الذي كان يسعى إلى البحث عن إكسير الحياة الطويلة وتحويل المعادن إلى ذهب. لكنه توقف عند نقطة لم يستطع أن يتجاوزها، ولم يكن يعرف إن كان الخيميائيون قد اكتشفوا سر «العمل الكبير» أو بتعبير آخر حجر الفلاسفة، الذي أنفق كثيراً من ثروته، التي آلت إليه من أبيه، في البحث عنه (انظر إلى هذا النموذج ،الذي ينفق ثروته اختيارا من أجل المعرفة، بدلا من تبديدها في حكاية الليالي وقصة بورخيس)، وحين عرف أنّ هناك خيميائياً يعيش في واحة الفيوم بمصر، اكتشف حجر الفلاسفة وإكسير الحياة، ارتحل لمقابلته.

كان تعارفهما مقدمة لسفرهما معا في قافلة انطلقت بعد ظهر ذلك اليوم، فكان ذلك (تزامنا) قدريا

عبّر عنه الإنجليزي بقوله «لو كنت أستطيع لكتبت موسوعة ضخمة من كلمتي(حظ) و(مصادفة)، فبهاتين الكلمتين تكتب اللغة الكونية» .

شخصية (موازية) أخرى قابلها الفتى مع القافلة المتجهة إلى الفيوم، هو الجمَّال، وتوطدت العلاقة بينهما، فحكى له الفتى مغامراته يوم كان راعياً، وحكى له الجمَّال خلاصة تجربة حياته، حين كان مزارعاً مستقراً في أرضه بجوار النيل، وحين جاءت الغلّه أكثر من المعتاد، قام بتأدية فريضة الحج. «وفجأة، فاض النهر خارجاً من مجراه، فدمّر كل شئ، لم يكن من علاج لحالتنا. ولم يعد لدينا شئ نحصّله من الأرض، واضطررت إلى إيجاد وسيلة أخرى للعيش. وها أنذا الآن جمّال. لكنني استطعت أن أصغي إلى كلام الله: يجب ألا يخاف أحد من المجهول: لأنّ كلّ إنسان بإمكانه الحصول على ما يبتغي، وعلى ما هو ضروري. كل ما نخشاه هو أن نفقد ما نملك، سواء تعلق الأمر بحياتنا أم بزراعتنا. لكن هذا الخوف يتوقف عندما ندرك أن تاريخنا، وتاريخ العالم، قد كتبا باليد نفسها».

هنا، نموذج آخر، (امتداد) أو تنويعة أخرى للرجل الذي فقد ثروته في حكاية الليالي وقصة بورخيس، لكنه مقدمة من وجهة نظر (ايمانية) مستوعبة درس أنه يجب ألاّ نغترّ بما (نملك)، لأن المستقبل المجهول قد يحمل في طياته (زوال) هذا الملك. وفي نفس الوقت لا يجب أن نخاف هذا (المجهول) سواء تعلق الأمر بحياتنا أو بما نملك، لأنّ (الواحد) القدير، سبحانه، يرزقنا ويصرف شؤوننا!

وحين وصلت القافلة الى الواحة، وقع الفتى في حب فتاة من النظرة الأولى، فأعلن عن رغبته في الزواج منها. وتكررت لقاءاتهما، حكى لها عن ماضيه، فحدثته عن (حلمها) بأن تحمل لها الصحراء يوماً أجمل هدية في وجودها، وها قد تحقق حلمها. ثم حثته على أن يتابع طريقه باتجاه ما جاء يبحث عنه، ثم استطردت «هكذا سيكون حبنا. «مكتوب» قالت أيضاً: «إذا كنت جزءا من أسطورتك فسوف تعود يوماً من الأيام».

مرحلة الوصول:

هكذا، أكمل الفتى (رحلته)، حتى وصل إلى الأهرام، فجثا على قمة كثيب قرب الأهرام، وبكى شكرا لله، على ما (وهبه)، حتى آمن بأسطورته الشخصية، وقام برحلته وأتمّها. وبدأ يحفر بحثا عن (الكنز)، وأثناء حفره حاصرته مجموعة من لاجئي الحرب، وقبضوا عليه وفتشوه ، وسلبوا ما معه وعذبوه. وتحت ضغط التعذيب، اعترف لقائد الجماعة بسبب قيامه بالحفر، وحكى له عن(حلم) الكنز الذي رآه مرتين، وحفزه على القيام برحلته، حتى وصل الى قرب الأهرام، وبدأ الحفر بحثا عنه، فأطلق الرجل سراحه (ساخرا)، بأنه رأى أيضا (حلما) مرتين حول كنز مخبأ تحت شجرة جميز ضخمة في كنيسة قديمة بإسبانيا، لكنه ليس غبيا مثله ليعبر الصحراء لمجرّد رؤيته حلما مرتين (الجديد، هنا، أن السخرية كانت من الحلم أساسا، وليس من كلمات صاحب الحلم كما جرى الأمر في حكاية الليالي وقصة بورخيس). عندئذ، فطن

الفتى إلى (السرّ)، ورجع إلى إسبانيا، فوجد (الكنز) بانتظاره، في نفس النقطة التي بدأ منها رحلته!

(٤)

ظلّ ديني:

لعلّ بورخيس وعى أن هناك عنصرا (دينيا) يهيمن داخليا على نص الحكاية الواردة بالليلة ٣٥١ من الليالي، وربّما ساعده على التوصّل إلى هذا الإدراك ثلاثة مقاطع دينية وردت في نصّ الحكاية الأصلي، يشير اثنان منها إلى (التدخل) الإلهي بشكل مباشر، ويقدم الثالث (تجليا) للقدرة الإلهية: ورد الأول عند وصول البغدادي إلى القاهرة وركونه إلى الراحة في مسجد، عندئذ تدخلت القدرة الإلهية «فقدّر الله تعالى»، أي جعله موجودا في ذلك الموضع، ليكون هذا المسجد مدخلا للصوص إلى سرقة البيت المجاور للمسجد، حتى يحدث (الالتباس) ويقبض عليه. والمرة الثانية، بعد أن أدرك البغدادي مبرر رحلته وعرف موقع الكنز من الوالي، فرجع وعثر على الكنز، فرأى مالا كثيرا، «ووسع الله عليه».

هنا، تذكير مرّة أخرى (بالقدرة) الإلهية على المنح والمنع، وبأنّ ما وجده كان هبة من الله، إذ شاء سبحانه أن يرزقه رزقا كثيرا وأن يغنيه. وكان المقطع الثالث هو جملة الختام في الحكاية «وهذا اتفاق عجيب»، فهذا (التزامن) بين الواقعتين، الذي يوصل إلى لقاء الحالمين، هو تجلّ آخر للقدرة الإلهية، حتى يفهم البغدادي السرّ، الذي خصّه به الله (وحده) من دون كلّ البشر، جزاء وفاقا لتلبية الدعوة والقيام بالرحلة بكل ما ترتب عليها من مخاطر وتضحيات!

ربما كان ذلك هو ما دعا «بورخيس» إلى إبراز العنصر الديني ثلاث مرات: الأولى في مفتتح القصة، الذي جاء فيه «يروي المؤرخ العربي الاسحاقي هذه الواقعة: يحكي رجال ثقات (والله وحده العليم القدير الرحمن لا تأخذه سنة ولا نوم)»، والمرة الثانية عند انتهاء رحلة الرجل في أصفهان، حين داهمه النوم عند أسوارها «فاضطجع للنوم في باحة مسجد، وكانت إلى جوار المسجد دار، فشاءت حكمة الله أن تعبر المسجد عصابة»، ليحدث ذلك (التزامن) الإلهي بين واقعتين تارة بشكل (فعلي) حين يهرب اللصوص ويجد العسس الرجل وحده في المسجد فيضربونه ويقبضون عليه، وتارة أخرى بشكل (معنوي) عندما يتبادل الرجل والضابط سرد حلميهما بحيث ينجلي السرّ ويحدث (الكشف) للقادم من مصر. وكانت المرّة الثالثة في الختام، بعد أن عاد الرجل إلى بيته القديم، ومن تحت عين ماء حديقته (التي هي عين حلم الضابط) أخرج الكنز الدفين. «هكذا باركه الله وأجزاه وأثنى عليه. إن الله كريم لا تدركه الأبصار».

وبالرغم من أن عنصر (الاختيار) الشخصي، يلعب دورا بارزا في تحديد (مصير) الشخصية بعد رؤية (الحلم)، فهناك من اختار أن يلبي النداء وقام مباشرة بالرحلة فنال حسن الجزاء، وهناك من تقاعس وركن إلى الراحة، فلم ينل شيئا سوى اغتراره بحسن إدراكه الموهوم. إلاّ أنّه، هنا، في هذا الموضع تحديدا،

قد يتبدى تفسير (ديني) للقصة، حيث يمرّ ذلك الشخص الذي يقوم بعملية الاختيار بأربع مراحل أساسية، كما المتصوّفة، هي: مرحلة التهيّؤ: التي يتحوّل فيها من الغنى الفاحش إلى حضيض الفقر المدقع، وبدلا من الرفاهية الزائدة يصبح مجبرا على بذل الجهد الجهيد للحصول على قوت يومه، وكأنها مرحلة تطهّر من حمأة المال، واكتشاف أن المال يحكمه نفس القانون الذي يحكم كل ما في الحياة، وهو أن كلّ شيء إلى زوال، فيبدأ في (التخلّي) عمّا يملك راضي النفس. المرحلة الثانية: هي مرحلة الحلم (الرؤيا)، بعد أن أصبح مهيئا للتخلي عن ثراء العالم القديم والإقبال على دخول عالم الكفاح الجديد، وهي مرحلة فاصلة بين عالمين: عالم الملكية والمادية القديم وعالم التحرر والانطلاق إلى عالم جديد مجهول. المرحلة الثالثة: هي مرحلة ارتحال، يتم فيها الاستجابة للدعوة، والتبكير لتلبية النداء فورا، متكبّدا المشاق ومتحمّلا الأهوال في سبيل تحقيق الحلم. المرحلة الرابعة: هي مرحلة الوصول، وفيها يتم ذلك (التزامن) الإلهي: ليحدث التباس (فعلي) بينه وبين اللصوص حتى يقبض عليه ليقابل الحالم الآخر، ليقع تزامن (معنوي) يحدث فيه التباس آخر، ففي اللحظة التي يكاد الرجل (يشكّ) فيها في حلمه حين يعتقد أن كنزه هو العلقة التي نالها، تكون نفس هذه اللحظة هي لحظة (الكشف) أو الاستنارة حين يظهر سر الكنز وتتجلي تفاصيله!

لنتوقف هنا قليلا، لأنّ «سنتياجو»، بطل رواية «الخيميائي»، مرّ بنفس مراحل رحلة المتصوّفة (الدينية) الأربع، وهي: مرحلة التهيؤ، مرحلة الرؤيا، مرحلة الارتحال، ومرحلة الوصول أو الكشف، حيث توزعت الرواية بأكملها على تلك المراحل. فاذا عاودنا النظر الى رحلة بطل الرواية على هذا الضوء، سنجد أنّ الأب كان يرغب في أن يصبح «سنتياجو»، الفتى (المسيحي)، (راهبا)، كي يكرّس حياته لرفعة شأن الدين المسيحي. لكن الفتى كان يحلم منذ نعومة أظفاره أن (يرى) العالم، وساعده أبوه على أن يصبح راعيا كي يحقق حلمه. ثم جاءه الحلم، أو رؤيا الكنز، وعندما تكرر رأى ضرورة أن يحقق (أسطورته) الخاصة سعيا وراء (الحلم)، فقام برحلة طويلة في معترك الواقع (الخارجي)، بحثا عن كنز (مادي)، غاص أثناءها إلى أعماق الديانة (الإسلامية)، من خلال رحلة أخري (موازية) لرحلته الأصلية، تجلى فيها ظلّ (ديني) قوي، وامتد بطول الرحلة، انتهى بيقين (الإيمان) بالله عبر استيعابه للديانة الإسلامية، واستيعابه لمعنى (المكتوب). وعند أهرامات الجيزة تكشف له ما كان خافيا عليه من أمر (الكنز)، فآذنت رحلته على نهايتها، وآب بنصر مبين!

هنا، تكون رحلة الفتى (المسيحي)، قد اكتملت أبعادها، بعد أن تفهّم أبعاد الديانة (الإسلامية)، متجاوزا الانغلاق على دين بعينه، لأنّ الله واحد يرعى جميع البشر في مختلف الديانات في مختلف أرجاء الكون، بل تكاد تنطبق عليه تماما كلمة «مكتوب» الاسلامية، حين كان مقدرا له أن يقوم بتلك الرحلة تحقيقا لأسطورته الخاصة، يغنم خلالها معرفة أعمق بالاسلام، ليكون (الكنز) الموجود في (كنيسة) خير مكافأة له على سعيه المنفتح الدؤوب!

التجربة الذاتية وتجلياتها في الرواية العربية:

أطروحة عن هوية التجربة (المتن المغربي مثالا)

أحمد المديني

١ـ أحتاج إلى بعض الإيضاحات وضبط المنهج على عتبة هذا الموضوع، بغية فهم عنوانه، أولا، والإنتقال إلى فحواه بمسائله وإشكالياته، ثانيا، وصولا أخيرا، عندي، إلى امتداداته فما بعده. نعتبر دائما أن طرح موضوع ما، بتسمية معينة، يقع في صلب معالجته، ويفسح مجال المساءلة لكسر أي بَدَهية محتملة من شأنها أن تقتل السؤال في مهده، كأن التجربة مُعطىً ومفهومٌ محسوم سلفا. نبتغي هذا مجتمِعا بصيغة تقديم أطروحة ضمنية في هذا الموضوع.

٢ ـ فمن ناحية العنوان تنفتح مفردة (تجربة)على معنى ما يعيشه شخص ويكابدُه ويتقلب فيه من أحداث ويراكمه في حياته، ويحتاج أن ينتهيَ إلى خلاصة مَعيشٍ إذ تستقل بمخصوصها تتوفر على ما يقرنها بغيرها ويربطها بكلٍّ أكبرَ تتميز عنه بقدر ما ترفده وتغنيه. وعلى هذا الأساس لا يتسمّى أي مَعيش وفعلٍ شخصيٍّ تجربةً إلا باكتسابه لدلالة وتمثيله لقيمة ما.

٣ـ لا يخفف من ضرورة هذا التمييز والتدقيق وضعُ الصفة(الذاتية) للموصوف(التجربة)،إذ هنا أيضا لا بد من تعريف للذات وتخصيصها، أم نكتفي بالقول إن كل أنا مفردة هي ذات. طبعا هذا أبعد ما يكون عن الصواب، ولن يتأتى لنا هنا استقصاء التعريف فلسفيا، شائك وإشكالي، وكذلك في صيغتها من جهتي الدرس اللساني ونحو السرد، حسبنا اقتضابا أن نلفت إلى شرحه لغويا، أي بما يتعيّن به شخص فيكون هو لا غيرُه على مستوى السِّجل المدني، وربما ندفعه إلى الأمام قليلا لنربطه بوضع الهوية، فنصنّفه عندئذ، جنسا وأصلا وثقافة وانتماء وتقلبا في مجرى الحياة، حصيلة تملأ حال الذات في آن بالمعنى، معنى ما.

٤ـ لا بأس مع ذلك من التدقيق في لفظة ذات، تأخذ أكثر من معنى حسب ما يتصل بها، وهي في الغالب معنيةٌ بصاحب الشيء أو الصفة. نقتصر نحن بين كل ما يذهب إليه الشرح اللغوي، كما في

القواميس، على ورودها في صيغة إسم الذات، بدلالتها على شيء محسوس مثل حجر ونهر وجبل، يقابله إسم المعنى مثل جمال، قوة. ونحويا، على من فعل الفعل(sujet بالفرنسية،subject بالإنجليزية. وتحمل الكلمة معنى هو الأقرب لما نتجه لفهمه حين تنطوي على الإضمار، في قولنا(ذات الصدور) أي أسرار النفوس والضمائر والخبايا. مثواها صدور الذوات وهي الشخوص أو الشخصيات المتكلمة والفاعلة في القصة كل واحد بما ينفعل به ويعي ويفعل، من وحي ذاتيته، يفترض أنها خصوصية، لفرد واحد لا جماعة.

٥ـ ولا بد أن يحضر إلى الذهن في هذا الصدد ما تحيل عليه الكلمة في الأدب، في القصص باعتبارها تمثل الأنا التي مثلتها الرومانسيةُ ووسمتها بصفاتٍ أقواها النزعةُ الفردية، والأسى، والتباريحُ، ونشدانُ الحرية والبحثُ عن عالم بلا قيود. هذا منظورٌ شاع في أدبيات التيار الرومنطيقي في مرحلة تاريخية أعقبته تيارات أخرى، ليس ما يعنينا وإن كانت روحه وملامحه وظلاله مبثوثة، جاءت مبثوثةٌ في قسم لا بأس به من النتاج العربي روائيا.

٦ـ ثمة احتراز منهجيٌّ أخير من الأهمية بمكان لكي يتضح جلاء نوع مقاربتنا للموضوع لا سيما وهو مرتبط بالفن السردي. نقصد أن هذا الموضوع يأخذ معالجة مختلفة وشكلية جدا في علم السرديات، تحديدا في السرديات التلفظية خلافا للتقليدية. هذا المبحث الذي انبنى أصلا على لسانيات التلفظ(بنفنست١٩٦٦) حيث يُدرس القول في مقامات مختلفة تبرز فيها عديدٌ من صور الذات المدركة والرّائية والمحاجّة، وبينت أبحاثه ومن تبعه أن:» الذاتية تسِم بميسمها كل الوحدات المعجمية التي نستخدمها بصفة قارة أو عرضية(...) ولم تعد دراسة التلفظ مفصولة عن المتلفظ وما عادت الذات المتكلمةُ كائنةً خارج ملفوظها ، وبهذا المعنى فالذاتية هي بصمات أو آثار الذات المتكلمة في ما تنتجه من خطاب أي هي مواطن إندراج مختلف مكونات الإطار التلفظي في نسيج الملفوظ وينصب البحث على خطاب الشخصيات وخطاب الراوي»(١). جدير بالذكر أن نظرية رباتل هي المعتمدة في هذه المقاربة(٢).

٧ ـ وعليه فإن قولنا التجربة والذات، بهذين المكونين الإثنين، ومحددات تعريفهما، وكل ما يمكن ربطه بهما أو تأويله بالقياس إليهما، سيأخذان حتما وبالتبعية معنى وتكييفا مختلفين حينما يندرجان في خط، بالأحرى في سياق، هذا السياق هو الذي يحقق لهما الوجود الثاني، بعد الأول السابق، المُنجَز، تجربة تمت، وذات تكونت، وإلى الأخير نحتكم نحن، وقبل ذلك نبني به موضوعنا. يتعلق الأمر بشخصية علامة عن كائن(وضمير نحوي) وحياة هي علامة أخرى(إحالة)عاشها والتجربة موضوع ووسيط. بذا نجمع البنية والفكرة والمعنى(٣).

٨ ـ والسياق المعلن هو(الرواية العربية)؛ نصٌّ أدبيٌّ، هو في الآن عينه موضوعٌ، بينما التجلِّي يمثل الموضوعَ الذي سنبنيه أو ينبغي بناؤه من خلاله، فتأخذ التجربةُ والذاتُ في هذا السياق وضعا مختلفا، نراهما تتمثلان في صورة الإنعكاس، ويصبح لهما بأداته وعبرَه شكلَ التجلي، التجلي بوسائط اللغة والإدراك والقالب الفني التي ستصب فيه، هو هنا وبكل وضوح(الرواية) بوصفها جنسا أدبيا ذا محددات فنية وتقتضي تشييدا وتأويلا معينين لها.

٩ـ وإذن، ما ينبغي معالجته، وفي ضوء الإيضاحات السابقة، هو تجليات(التجربة) و(الذات) في الرواية العربية، فيكون من باب تحصيل الحاصل من خلال هذا الطرح أن التجربةَ الذاتيةَ، مُكوِّنٌ من مكونات هذا الجنس في أدبنا، وأنه بلغ درجةً من الحضور والتمثيل أن صار يُعدّ من تجلياتها الكبرى، ويقبل أن نقرأ ونحلل المدونة الروائية العربية بمقتضاه. منطقُ بداهةٍ مفترضة، وإلا إلى أي شيء يذهب هذا العنوان بالضبط ونحن نعلم أن جميع الروايات في كل الآداب، فيها هذا القدر أو ذاك من حياة كاتبها في مراحل مختلفة من عمره يستحضر بعضها حسب مواقف ومنظورات في روايته، وبعلاقة مع هذه الشخصية وتلك، بطرق ملتوية سواء لدى الفعل، أو حين يبثّ رأيا أو يعبر عن شعور، في الأحوال كلها حضورُ الكاتب لا جدال فيه، مع وجود التباعد الضروري يصنعه إما وضع المؤلف السارد، أو هوية الجنس الأدبي قائمةً على صنع عالم واقعي محتمل، أي غير العالم الواقعي العينيِّ، زيادةً على العنصر الضروري، هو هيكليٌّ ومكمّلٌ في آن، نعني مبدأ التخييل، بدونه ليس ثمةَ رواية، والحال أننا نتحدث عن التجربة الذاتية(الحقيقية الواقعية) فأي مفارقة هي؟!

١٠ـ موضوع تفكيرنا تحوم حوله شرنقة أسئلة بخيوط وخطوط يتشابك فيها تاريخُ الأدب بنظرياته، بمفاهيم الجنس الأدبي، بين مراحل النشأة والتبلور والتطور للنصوص المنضوية فيه، الرواية بطبيعة الحال في قلبه، بوصفها تمثل النثر الذي هو تعبير مُحْدَثٌ في الأدب ـ قياسا بالشعر بأي نوع جاء، قصيدا بأغراض أوملحمة، التعبير العريق في كل الآداب ـ على وجهه برزت الملامح الأقوى لابتكار أشكال القول الفنية والنوعية في الأدب الحديث بانسجام مع حاجات الإنسان ومجالات نشاطه، ومعترك عيشه وصراعه، وتبدلات الأزمنة.

١١ ـ لذا ليس حذلقةً ما نذهب إليه في هذا التفصيل والتساؤل، ولا سعيا لاصطناع إشكالية في طرق موضع الذات في الكتابة الروائية، في ما هو عند كثير، أعني ممن درسوا الرواية العربية، ولدى كتابها يعد المهمين أولا، بل نراه عتبةً لا غنى عنها لمن يدرسه، لأن تجليات الكتابة السردية في أدبنا أظهرت في بعض نصوصها الأولى نموذجا مماثلا حققت فيه الحياةُ الشخصيةُ وسيرةُ الذات حضورا غالبا كثيفا، مرة، ومستوحى متذبذبا مرة أخرى، وفي الحالتين يظهر لنا أن هناك بحثا لصيغة وصياغة للرواية إنطلاقا من هذا الحضور.

١٢ـ بناءً عليه أعتبر السيرة الذاتية هي التمثيل الأهمَّ الأبلغَ والأقدر في الرواية العربية، والرواية عموما، على نقل تجربة الفرد وسرد حياته، برهنت على ذلك بما تمتلكه من حيازات شكلية جعلت منها شكلا ونوعا سرديا منبثقا من شجرة السرد الكبرى، ومستقلا، وبما قدمته لنا من نماذج شتى دالةٌ في تمثيليتها، تفرعت بدورها إلى أنواع صغرى، لتعود كي تصبّ في النهاية في المجرى الكبير للرواية، كأنما كان عليها أن تُكمل دورةً كاملةً لاختبار قدراتها، ومنها إلى جعلنا نتساءل أيهما أسبق مادة للسرد ونهجا له، الذات أم موضوع العالم داخله؟ أم هما معا، وفي هذه الحالة ستنتفي القسمةُ، ويصبح طرحُ العنوان أعلاه متجاوزا، إذ لا يُوجد فعلا في نظرية الأدب، وفي المقاربات النقدية أدبٌ خلو من ذات مؤلفه ولن يكون أدبا البتّة، ولا حسمٌ قطعيٌّ داخله بين ذات وموضوع، اللهم في نبرة الخطاب ودرجة تمثيل الأنا وأنساقها إما نحوا سرديا أو خطابا، فيتم إما اعتماد تصنيف قسري، أو توزيع خطابي، فإن انتقلنا إلى التحليل السيميائي لن نجد إلا العلامات، والتقسيم الأجناسي يختفي بدوره، ليبقى، إن بقي، رسمٌ شكلاني صرف للأدب.

* * *

١٣ـ هذا ما يدعوني إلى اختيار السيرة الذاتية كنوع سردي بامتياز لمقاربة الموضوع، متخذا المتنَ الأدبيَّ في المغرب مثالاً، أجد فيها مضمارا معتبرا لتجليات الذات، وفي ارتباط وثيق مع خطوات التأسيس والتعلم للرواية، فكأن روادَ هذه الكتابة في أدبنا لم يجدوا غير سِيَرهم وحيواتهم ضمن محيطهم لينقلوا الحكاية من نثرها التقليدي المسكوك إلى أسلوب آخر إقتبسوه من قراءات وافدة ونفخوا فيه من مواهب كامنة وجدت في مشروع الرواية عبر السيرة متنفسا لمشاعر ومشاغل زمن مضطرب، ومجال مران للكتابة بأسلوب يأتي.

١٤ـ في هذه الحالة، شأن آداب أخرى، الغربية خاصة، يُنظر إلى استثمار الذات موضوعا للكتابة بمثابة مرحلة أولى في تأسيس الرواية الحديثة، يُمثل له عادة باعترافات جان جاك روسو(١٧٨٢) خلافا ل» الكلمات» لجان بول سارتر(١٩٦٤) تجسد النوع تعبيرا مميزا وفاكهة ناضجة في بستان السرد الحديث. وبينهما يمتد نسيج طويل ومتين من المحكيات صنعت عبر أطوار تبلور مقومات ومظاهر المدنية الحديثة ومجتمع إنسانها الجديد الرواية.

١٥ ـ بنسبة معينة جاءت محاولات سرد تجربة الذات في أدب المغرب الحديث، الذي نؤرخ له بعقد الأربعينات، على درب كتابة الفطرة والإستكشاف أكثرَ من أي شيء آخر، أحسب أصحابَها كانوا يراودون كامنا في أنفسهم، وقولا يلتمسون لغته وأسلوبه وهم يتعلمون ويكتبون. هي مراودةٌ تخص تجربةً شخصيةً، كاتبُها يعرفها، هي أقرب إليه، وأفضل من أن يقتحم العالم الواسع للرواية

يضطره لاستقدام شخوص ورسم أوضاع وحكي أحداث، وهو في مجتمع محافظ ليس معتادا على تعبير كهذا، أولا، والقص فيه بضاعةٌ للتسلية لا للجد. لذلك جاء نص» الزاوية»(٤) للتهامي الوزاني(١٩٠٣ـ ١٩٧٢) وسطا بين الثبات والتبدل، يتحدث عن صاحبه في قلب محيطه وناسه، بكيفية وصفية وتقريرية ووجدانية وصوفيةٍ في نهاية المطاف، باعتبار المنزع الروحي الصوفيِّ وحالاتِه هما بؤرتُه ومجلاه الأساس. لقد كتب الوزاني، وهو فقيهٌ، إبن أسرة تطوانية من أعيان المدينة وعلماء الدين فيها، مميزة بمحتدها وورعها؛ كتب هذه السيرة ليسجل تاريخَ العائلة والمحيطَ المحليَّ، في ظروفه الداخلية والخارجية، عربية وأجنبية، ويرسم فسيفساءَ تشكيل مجتمعه من وجوه شتى، بنواحيه التعليمية، الدينية، الطقوسية، السياسية، بادئا من أسرته ومتجها إلى أطرافها فأبعد منها، مبرزا مظاهر التوتر بين القديم والحديث الدخيل، يترك لخلجات النفس وهواجسها الحديث، وهو يتقلب في صراعٍ كشابٍ بين قيم الأسرة والمجتمع وتوقه إلى عوالم أخرى يراها جذابة، بنزعة مريد صوفي. وقد أجملَ هو نفسُه هدفَه صراحةً من تأليفه السِّيَري قائلا:» أريد أن أتحدث عن صفحة من أجمل صفحات حياتي، تلك هي حياة الرهبانية والإنقطاع للعلم التفرغ لما يُطهّر النفس ويهذبها، فلا بد من ربط هذه الفترة الزمانية بعصر سبقها كنت فيه صوفيا بطريق الوراثة والنشأة». ويقودنا الجزء الثاني من» الزاوية» بعنوان: « سليل الثقلين»(٥) إلى المرحلة اللاحقة من حياة التهامي الوزاني سرد فيها كيف انتهى به الحال إلى أن يصبح عضوا في إحدى الزوايا الصوفية، معتنقا الطريقة الحرّاقية، ملتزما بها فكرا وسلوكا وهنداما، وبذا انتصرت التقاليد واستقرت بنية المحافظة(٦) فيما كانت الكتابة، مفارقة، تنحو إلى التنويع والتجدد لغة وشكلا، هي سمة مرحلة تاريخية.

١٦ ـ النص المثال الثاني للسيرة الذاتية ودائما في خط تبلور الجنس الروائي في الأدب المغربي قدمه عبد المجيد بن جلون(١٩١٩ ـ ١٩٨١)في» في الطفولة»(نشرت للمرة الأولى متسلسلة في مجلة رسالة المغرب، الرباط ١٩٤٩، ونشرت في كتاب مستقل سنة ١٩٥٧). هذا النص نعترف به تاريخيا أول عمل أوتوبيوغرافي صريح، وناضج، أي منسجم مع قواعد هذا النوع السردي كما تواترت واستُخلصت من نماذج موثوقة، تحكي قصة فرد وترسم نهج فردانية يتعاقد كاتبها مع القارئ على هذا الأساس، صوته غالبا يرسله بضمير المتكلم. وبذا يمكن اعتماده بدون تردد لقراءة مفهوم التجربة الذاتية كيف صاغها وشخّصها عملٌ معلومٌ بكيان، ناطقٌ بذات في إطار زمنها ومحيطها، وباتصال مباشر بأحداث تاريخها وتفاعل مع عصرها. نصٌّ اعتبره تاريخ الأدب الذي دوننا مؤسسا للرواية المغربية(٧).

١٧ـ الحق أن عبد المجيد بن جلون قدم لنا تجربةً فريدةً تتعدى حدودَ الأدب المغربيِّ، في مضامينه وأشكاله الفنية، يحكي فيها قصةَ طفولة تراوحت بين المغرب والغرب، بعد الحرب العالمية الأولى،

عندما انتقلت أسرته من مدينة الدار البيضاء المغربية إلى مانشستر الإنجليزية، وكان هذا دأب أُسَر تنتمي إلى فاس لغرض التجارة والكسب، ويتعرف الطفل على عالم جديد يصف ما حوله وهو بمعية أسرته، ويضع قارئه بين مشاهد وجودين ومعالم ثقافتين، على غرار نصوص مشرقية معلومة، لكنها تبدو هنا طريفةً وبكراً مرسومةً بعين طفل ولا تدّعي تعالُما أو تنزع نحو الإشتباك والمفاضلة الغالبتين على ما نعرفه عن سِير وروايات إنتقل أبطالُها إلى بيئة الغرب واحتكوا بأخلاقه وثقافته. ترسم الوجوه والصورة والعلاقات متقابلةً ومتفاعلةً في طريقة سلوك وأسلوب ونمط، تسيرُ وتلتقي في مجرى حياة الطفل، لتتحول أناه المعنيةُ بالسرد إلى بوصلة للجماعة ومعيشه وأسرته وانتقالاته إلى لوحة بانورامية. هكذا فإن» في الطفولة» إلى جانب وظيفتها الحكائية الأولى، سردٌ لسيرة مؤلفها، ظهرت أقرب ما يكون إلى نوع رواية التكوين أو التعلم، ذات المنشأ الألماني(ق١٨) يمكن التمثيل لها برواية(التربية العاطفية) لفلوبير، فطفل بن جلون يمر بمراحل التكوين ويواجه عوالم شتى، ويحتاج أن يختار الخ؛ أتت بمثال سيرة تمخر فيها التجربة الذاتية عباب سِيَر غيرية وأحداث تاريخية ومجتمعات بدلالات مميزة ومختلفة، ماضي/ حاضر/ محافظ/ مجدد/ تقليد/ تحديث/ مغرب/ غرب/،هكذا فإنه لا وجود في هذا النص لتجربة ذاتية صرف، ولا لسيرة ذاتية خالصة، نعم الفرد عمادٌ فيها لكن ليس قيمة الفردانية التي تسعى من خلالها الذات لإثبات وجودها وتأهيل شخصيتها في وجه أو ضد الجميع، فهذه قيمة تنتفي في المجتمع المغربي العربي، المبني على التكافل والأبوية العليا، زد على هذا المناخ الوطني لهذا الجيل، والطفل الذي كان نما وترعرع فيه، بين أحضان الحركة الوطنية بالداخل، والعربية بالمشرق، بالقاهرة حيث لقّن جزءا من دراسته إبّان المد التحرري ضد الاستعمار واختلط بأوساطها، وعاد إلى المغرب بوعي متقدم به كتب هذه السيرة، أخلصتْ للصبا وزمنها كأنها فيه، ولما بعدها بأحداثها وتغيراتها في خط كرونولوجي واصل إلى زمن آخر.

١٨ـ لم تمتلك الرواية المغربية زادا كبيرا تتغذى به ليشتدّ عودُها غير أو أكثر مما لدى مؤلفيها من رصيد حياتي، ذلك أن الرواية تحتاج إلى ماض مكتمل، وزمنية إجتماعية وتاريخية متراكمة حفلت بالأحداث، وتجاورت فيها المصائر وتصارعت المصالح وتواجهت القيم، ما احتاج عندنا إلى استهلال بناء مشروع الدولة الوطنية عقب المرحلة الإستعمارية، مع ما إستتبعه من تبلور فئات إجتماعية جديدة وتضارب مصالح وبرامج سياسية واقتصادية ولدت بالتدريج واقعا، أحداثا وأناسا، هم من سيشكلون أرضية ومجال ومادة السرد التخييلي. لذلك ما فتئنا نقول بأن الكتابة السردية في أدب المغاربة، والعرب عامة فتيةٌ، قياسا بعمرها وما يحتاج إليه هذا الجنس الأدبي من مخزون إجتماعي وتاريخي وتبلور شروط ترابط جدلي بين هذين المكونين يُفضي إلى تركيب إنساني.

١٩ـ ولذلك نعتبر أيضا أن رصيدَ الذات عتبةٌ للرواية، وجزءٌ من مسار تكوينها دون أن تحقق بالضرورة النسقَ الروائيَّ، بحكم أن السيرة الذاتية فن وتجربة الذات مادتها، كما طُرقت في الأعمال السردية الأولى للمغاربة، وغيرهم أيضا(أفكر في أيام وأدب طه حسين) لا تقوم على المبدأ الناظم للرواية ومهمازها، أي على التخييل. وبهذا المعنى تستمر في الرواية المغربية بين عقدي الستينات والسبعينات، من خلال عملين أساسين هما» سبعة أبواب»(١٩٦٥) لعبد الكريم غلاب(١٩٢٧ ـ) و» الطيبون» لمبارك ربيع(١٩٧٢). يسرد غلاب قصة اعتقاله في سني الاستعمارـ (هي تجربة حقيقية عاشها لمدة ستة أشهر زمن قيادة الملك محمد الخامس مع الوطنيين حركة المقاومة، وكتب عنها مذكرات في جريدة «العلم» في مطلع الستينات قبل الكتاب، حملت عنوان «مذكرات سجين»)ـ كيف أمضى في السجن فترة، ومعاناته، يصف أجواء المعتقل وظروفه، ويشحن سرده بخطاب التنديد بالمستعمر وتمجيد العمل الوطني، بروح معنوية عالية تظهر الجلَد والثبات على الموقف، فَذا أساسا مبتغى المؤلف من الكتاب، إنسجاما مع عقيدته الوطنية الإستقلالية، ولإثبات هويته الوطنية جهيرةً وصدّاحة، وخلا إهابها القصصي يتضاءل الجانب الأدبي فيها لا نولي نحن المغاربة لهذا التأليف أهمية كبيرة في مجرى تأسيس روايتنا، قياسا ب» دفنا الماضي» للكاتب نفسه(١٩٦٨)، نُجمع نحن الدارسين المغاربة، على اعتبارها مؤسسة حقا(٨). هنا أيضا ندفع بأطروحة التجربة الجماعية محفلا جامعا ومصهرا للتجربة الذاتية، حيث الفرد (غلاب، الوطني)عضو في الجماعة(الحركة الوطنية) وناطق باسمها، كذلك عاش وما يزال، مكرَّسا عنده في سيرة كتبها لاحقا «سفر التكوين»(١٩٩٦) أقرب إلى رواية التعلم، بحديثه عن علاقة السياسي بالثقافي ودورهما في إعداد الشخصية الوطنية، وعن مفهومي العروبة والقومية، إذ مضمونها هو الغالب ورؤيتها هي مصدر وإشعاع العمل» الأدبي».

٢٠ـ تنحو «الطيبون»(١٩٧٢)لمبارك ربيع(١٩٣٦ـ) يُعدّ من رواد الرواية والقصة القصيرة بالمغرب، المنحى السِّيَري العام، تمتح كلها من معين التجربة الذاتية للمؤلف، وتجعل منها مادةَ سرده ونسيجَ تكوينه، في أفق كتابة الرواية، بما أنه يجنّسها كذلك. بذا تعلن من غلافها انفصالها عن نسق النوع الأتوبيوغرافي، يزكّي الإنفصال غياب قواعد الميثاق المعلومة للنوع(ف لوجون، منظرا ومحددا لها(٩)، انفصالٌ شكليٌّ يتم فيه إستبدال ضمير المتكلم بضمير الغائب، والإسم الصريح للكاتب، صاحب السيرة باسم ثانٍ، لنقل مستعار(قاسم الشاوي) فيما المحكي كله أو جله من قبيل ما وقع، يتصل بمحطات أساس من حياة المؤلف، خصوصا ظروف دراسته وأساتذته من خلال (الشيخ النوري) إسم بديل لأستاذه في مدرسة المعلمين عبد السلام ياسين، وعلاقات نسائية ورجالية في محيط التعليم بالذات، كل منها تأشيرٌ لقيم أخلاقية، سامية ودونية، تسعى لرسم صورة مجتمعية شمولية وتربوية وانتقادية مستمدة من واقع مليء بالتناقضات، وفي مخاض مرحلة الاستقلال الأولى للبلاد،

وتمثل منظومة القيم السائدة(رؤية العالم) التي ينطلق منها، يبثها ربيع في» الطيبون»، إنما دائما من منظوره، ليس مكتملا، لأن بطله، أناه الناطقة من لسان ضمير الغائب، في بحث عن نفسه، بما أنه في طور التكوين واختبار قدراته وتبلور وعيه الخاص ضمن محيط عام. مرة أخرى لا يكون ربط الصفة الذاتية بالتجربة، بالحياة المعيش للبطل(قاسم الشاوي) قناعا للمؤلف إلا تجوّزا، وإلا فحياته محسوبة بخطوة ونبض الجماعة، وبروح هذه يتنفس، ربما في صراع القيم يريد أن يشق طريقه، أن يبني ذاته المفردة، وحين ستُبنى ستكتب سيرتها إما صريحة، أي غير متذبذبة شكلا وخطابا، أو روائيا، وهو ما نهجه مبارك لاحقا.

٢١ـ إتبع عبد الله العروي(١٩٣٣ ـ) المسارَ ذاته في وقت متزامن تقريبا عند نشره» الغربة» (١٩٧١) جنسه(قصة). تلافى تسميتها رواية، إذ سبق أن أنحى باللائمة في كتابه الشهير: « الإيديولوجيا العربية المعاصرة»(١٩٦٧)على العرب استعارتهم لأشكال وقوالب فنية أنتجتها بنيات غربية مختلفة، ليقع بدوره في مفارقة اقتناء الشكل الغربي ذاتِه، بدرجة من التحوير، أعطت نصا هجينا، في منزلة بين الرواية بحكم بنائها وتصريف بعض طرائق تشكيلها، مستعارة من نماذج متقدمة من الرواية الفرنسية، من قبيل تعدد زوايا النظر والأصوات الساردة، تداخل الحاضر بالماضي، وتقميط النثر الروائيِّ لغةً شعريةً وتحليقه في المجاز؛ وبين السيرة الذاتية لسردها مقطعا من مسار كاتبها في حياة ممتدة، جاعلا منها المعادلَ الفنيَّ الموضوعيَّ للأفكار المعبر عنها في الإيديولوجيا، سجّلَ فيها خطابا نختصر مكوناته في رفض الاستعمار، إدانةِ واقع التخلف ومحاكمته، واستعادةِ الماضي من باب نقده، مع وجود نزعة (نوستالجية) بمسحة صوفية، تحاول أن تعبر التمزق بين حضارتين بطريقة تتراوح بين السجال وحدّ الحجاج بحثا عن اتفاق(تركيب) بين ذاتين يجمعهما جسدُ العروي الطالب في باريس، وآخرُه العائدُ إلى الوطن من خلال هذا النص يحاول إعادة بناء الذات من خلال الموضوع، أو بناءَ وتشخيصَ الموضوع بين ثنايا ومكابدات هذه الذات. هكذا إذ تطلعنا قصة العروي على غربة مؤلفها، فإنها تؤكد أن تجربته ذاتية موضوعية وإشكالية.

٢٢ـ يمتد نهج تشغيل تجربة الذات في السرد التخييلي بأدب المغاربة أو ما يقاربه على نهج كتابة السيرة الذاتية، في خط تطوير تصاعدي، لتنتقل من العفوية والفطرة، بالأحرى التردد وقلق البوح وعثرات التعلم، فتتحول إلى نوع قابل لاحتواء محكيٍّ حياة تُنقل بوسائط وصور تنتسب إلى عُدة الأدب، وزيادةً عن مضمونها ومعناها تأتي قارئَها في غلالة أدبية مشرقة. هذا ما نلمسه بوضوح لدى عبد القادر الشاوي في كتابه» كان وأخواتها»(١٩٨٥):» أسخر قلمي[فيه) للتعبير عن تجربتي الشخصية وتجربة المجموعة التي أعيش بين أفرادها»(١٠) ويغنينا مؤلفه بتعريفه وشرح مراميه في أقواله التالية:» كتبت[ه] وأنا في السجن(...) استجابة عفوية لظروف المحنة الشخصية والجماعية

التي امتحنتنا في ذواتنا وقناعاتنا الفكرية وبصورة خاصة في تطلعاتنا للقيام بالثورة وأحلامنا في أن تكون شعبية واشتراكية تقضي على الظلم والفساد والاستغلال وسوى ذلك»(١١)؛» ويحدد قصدَه من الكتابة مباشرة في:» الحديث المر عن عرينا الجماعي، لنقل أيضا: عن واقعة وقوعنا في جحيمها جميعا قبل الأوان..»(١٢). وكأنما ليبعد عن الكتاب» شُبهة» السرد العادي، أو عرض الذكريات، مما هو معهود، سيصبح مألوفا في المغرب مما سجله في عديد تأليفات معتقلون سياسيون سابقون، ينبه بأنه قبل كل شيء:» سردٌ أدبيٌّ لوقائع وتجربة ومعاناة في المقام الأول»(١٣) يحب أن يلح على طابع الأدبية بتحديده:» إن نص(كان وأخواتها) ليس له مما يسمى من أدب السجون إلا أنه يتعرض بالرواية لتجربة الإعتقال السياسي، وأنه كُتب لظروف الإعتقال والحكم عل صاحبه في السجن»(١٤). وقد إستبق الشاوي هذا التصنيف واضعا نفسه في مقام سجال قائلا:» أحب أن أقول إنني لم اكن إلا كاتبا وساردا، ولهم أن يكونوا مؤرخين كما يدعون إذا استطاعوا واهمين إلى ذلك سبيلا، فهل يكفيهم ذلك»(١٥).

أقوال صريحة، ذات نبرة حجاجية، ومرة سجالية، لن نضيف شيئا إن قررنا أن كتاب الشاوي سيرةٌ أخرى، التجربةُ الذاتية فيها تركيبٌ بين مكونيْ الذات والجماعة، ولا تستقيم عند مؤلفها إلا بهذا المنطق، المسوِّغ، بمثابة إعتذار للرفاق، إذ لم يكونوا جميعا راضين عن إقدام رفيقهم على «فعلة» الكتابة:» ولم يرق لكثير من الرفاق أن أذكر في وجوههم بعض صفاتهم أو سلوكاتهم أو مواقفهم(...) كما لم يرق للآخرين طبيعة الرؤية التي بسطتها عن طريق الكتابة»(١٦). هل الحديث عن الذات مَعيبٌ إلى هذا الحد؟ وإن لم يتداولها بالبوح ولغته فأيّ سيرة هي، خاصة لمّا تدّعي الصبغةَ الأدبية، ولا يقبل مجترحُها أن يُصنَّفَ في عِداد كتاب السجون؟ يحب الشاوي المنظِّر أن يطرح القضية عارية للنقاش يدافع عنها مستبقا أمام من سيعتبرون حديثه ترفا بل وحتى نزقا وأنانية لمن هو سجين سياسي كان يحلم بالثورة وقلب النظام لإرساء العدل والحرية والإشتراكية، فقد كتبها في السجن ومنها هرّبها خارج أسواره؛ وإزاء غيرهم لن يأخذوا على محمل الأدب ضرورةَ كتابته التي يعيّنها بسبق إصرار أدبية ويخضعونها لقواعد تختبرها، فجنح إلى التنظير بالتفسير والتبرير في مقدمة كتابه الأخير الجامع المعتمد عندنا، يقول في ثلاث براديغمات؛ أولا:» في أغلب ما كتبته إبداعيا كنت في ما أحسب شديد الوفاء للقضايا المتصلة بالوجود الفردي عموما ووجودي الشخصي على الخصوص.»؛ ثانيا:» الذات عنصر جوهري في العملية الإبداعية، عليه تقوم الكتابة وبه تتصل وفي أجوائها تدور الأحداث والتطورات وتنكشف المواقف والتصورات.»؛ ثالثها: «ما مفهوم التجنيس(...) إلا» البروتوكول» لتوصيف وتقعيد مجموعة من النصوص ذات الدلالات المشتركة والخصائص المتشابهة.»(١٧). الواقع أن ع الشاوي يروم أبعدَ من تسويغ كتابته لسيرته، ذاتيةً أو متخللةً بالروح والتمثيل الجماعيين، سيّان

تقريبا، فالفضاء السِّجنيُّ لمن عرفه لا يسمح بأي وحدة، حتى في حالات العزل القصوى، غرضُه، شأن من سبقوه إلى تدوين سِيَرهم في مطالع أدبنا الحديث وصُعُدا، همُّه ومُرامُه إنضواءُ كتابته إلى التعبير الأدبي المخصوص بجمالياته، والمتعيّنة حديثا حسب أجناس بعينها، الرواية في النثر سيدها، فيقدم لنا البراديغم الرابع، هو الجامع للثلاثة قبله، يقول:» وأفترض لنفسي، بناءً عليه، أنني أكتب الرواية من حيث التعريف والتجنيس، ولكنني لا أتقيّد حرفيا(...) بما يمكن أن تكون عليه الكتابة الروائية»(١٨). ولكي يبعد عنه مرة أخرى حَرَج تبنيّ النوع الأتوبيوغرافي ما يلبث أن يجدد الدفاع عنه، في العمق عن نهجه ومادته، ليُفصح عن تصور مزدوج بين مكونين في جنس السرد التخييلي؛ يقول:» الحقيقة أن هذا الضرب من الأدب[يقصد السيرة الذاتية] مع الإعتبار بطبيعة الحال بخصوصيته، هو من أعمق مستويات الإبداع الأدبي متى توفرت له المقومات الضرورية لاستكناه طبيعة الوجود الإنساني»(١٩) يبغيه تصورا جدليا يُفضي حتما في ضوء معادلته الفنية المخصوصة، تبقى في حاجة إلى الإختبار النقدي، يفضي إلى التركيب التالي:» ما الرواية نفسها، بمعنى ما، إلا تنويع تخييلي على مكونات الذات(...)هو في نفس الوقت أسلوبٌ وتقنيةٌ ورؤية»(٢٠)

٢٣ـ كرّر الشاوي هذه الخطاطة وكرّسها جاعلا منها نموذجا يخصه ذاته، مقترنا بالكتابة السجنية معاناة وفضاءً، رغم برَمه من التسمية، في نص سِيَر ذاتي آخر: «دليل العنفوان» (١٩٨٩)لا يقبل التأويل خارج نمطه، ولا المماحكة النظرية. قد بلغت كتابته حدودها وأدركت تخوم الخطاب البوحي ، حيث ضمير المتكلم بؤرة أنَويةٌ، هي منبعٌ ومصب، مهما تعدد ما يحمله المجرى ويسري فيه. كل هذا والذات لا تستنفذ رصيدها، فتسعى لتقوله بموارية عن طريق التحوير السير ذاتي الجديد القديم الآن، المسمّى التخييل الذاتي، أنا فيه آخر، ويتم فيه وضع أقنعة على الوجوه والأسماء والأماكن الواقعية، نوع بين السيرة الذاتية والرواية، وتولدت ضمنه أنواع دنيا، لا تخفي كلها صلة الرحم بالجنس الأم، الرواية، ولا تقطع صلة الرحم بها، في سرد تخييل هجين. إلى هذا إنتهى الشاوي في:» الساحة الشرفية» (١٩٩٩)لم تبرح شخصياتُها وفضاؤها السجن الذي كان مؤلفها قد غادره بعد سنين الحبس(١٩٧٤ـ ١٨٨٩) لم تغادره حكاياه وعوالمه والرفاق الذين تحولوا إلى شخصيات ، هو بينهم شخصية ساردة(سعد الأبرامي) يحاول ربط الصلة بين داخل، ذات وزنازن، وخارج لا يستعاد إلا من عين الداخل، تصهرهما رؤية واحدة، وتجدلهما على الخصوص في ضفيرة الرواية التي طالما طمح هذا الكاتب، والكتاب المغاربة الآخرون إلى إستحقاق أدواتها لبناء دار منسقة وعتيدة تؤوي مشاعرهم وأفكارهم ومشاغلهم عن أنفسهم وشعبهم من غير أي حرج ، بوصفها الجنسَ الموضوعيَّ القابلَ للبوح بتجربة الذات ورصد الحياة كما يعيشونها ويريدون أن تكون، أما السيرة الذاتية عاريةً ففن شبه مستحيل في مجتمعهم.

على سبيل التركيب

٢٤ـ لقد سعينا في هذه الورقة إلى رصد الموضوع الأطروحة من وبعناصر الذات والتجربة وحضورهما في نص لجنس أدبي محدد(الرواية) ومتن خاص(الرواية في بلاد المغرب). وحاولنا أن نربط بين هذه العناصر في بنية متعالقة إذ لا معنى لأي عنصر مستقلا، وهي المضمرة التي لمحنا لها فقط دون تسمية هي الرواية، البنية هي الرواية جنسا وشكلا يتأسسان ويوجدان بناء على عمادي ذات، فرد، شخصية/ شخصيات، وتجربة تحتوي عالما.

٢٥ـ وقد أردنا وعمدنا إلى تفكيك هذه البنية لنبلور ما نزعم أنه أطروحة هذه الورقة البحثية، إذا كان لا بد من إعادة إجمالها نقول إنها تنطلق من اعتبار الذات مصدرا للإبداع الأدبي(= الروائي) وإنه لكذلك، سواء ظهر فيه صوتُ منشئِه جهيرا كالشاعر العربي في الجاهلية، أو تراجيدياً جريحاً كصوت عوليس في الأوديسة، وهاملت عند شكسبير، أو إشكاليا مبهما بين أشاب ملفيل، وليوبولد بلوم جويس. ما ليس ذاتيا أولا ليس أدبا، يقرأ خطابه هكذا ومن موقع ضمير نحوي محدد. ويعتمد تجربة هذه الذات موضوعَه، ثانيا، وفق متعالقين لا تراتب هنا. على هذا الأساس تتبّعنا نشأةَ السرد الحديث في أدب المغرب في مراحل متعاقبة وقد جاء مصبوبا في قالب السيرة الذاتية، يحكي حياةَ شخص، ومسارَ تعلمه وتكوينه. ثم عدنا فانقلبنا على هذا الطرح الأولي بالحفر في جوهره يقضي أولا بأن الذات كما قدمتها وصوّرتها النصوص السردية زوجٌ لا مفرد، مرسومةً في قلب البؤرة الإجتماعية بمكوناتها المختلفة. وثانيا، يصعب إسناد صفة الهوية وتبعا لها التجنيس إلى ما لم يكن متحققا في الواقع والنص الذي جاء يحاكيه إلى حد بعيد، ومعلوم أن المحاكاة النقلية غلبت في مرحلة التنشئة على القص الذي احتاج إلى وقت ليدرك مرتبة التخييل المؤدي إلى تضعيف الواقع والكائن معا.

٢٦ ـ وإذا كان من اليسر القول بأن القصة/الرواية في المغرب قد تعثر انطلاقها إما بسبب سوء فهم لمقتضاها ومادتها، وكذلك القول بأنها وبعد أن التمست السيرة الذاتية لتكون، لم تكتب إلا سيرةً جمْعيةً، في مجتمع الفرد فيه مقموع وليس له(قانون) وجود، هو من الرعية، فإن الأصح عندنا أنه لم توجد تجربة ذاتية في الرواية العربية بالمعنى الصحيح، وحين سيتحرر الإنسان وتتوفر له شروط التعبير عن فرديته كإنسان ستكتب الرواية تجربته.

إحالات

١ـ إنظر: العمامي، محمد نجيب، الذاتية في الخطاب السردي، دار محمد علي للنشر، تونس، ٢٠١١، ص ص ١١ ـ ١٢.

٢ـ يعتمد كتاب: (Alain)Rabatel:"La construction textuelle du point de vue . Delachaux et Niestlé,Lausanne-Paris ,1998 لدراسة مفهوم وجهة النظر، أو التبئير للذات، وهو المرجع الأساس للسرديات التلفظية في معالجة مواقع الرواي والمتكلم المتلفظ، ومن ثم كيفية إندراج الذات المدركة في جنس القصة ممثلة بعدد من الإدراكات.

٣ـ بهذا الخصوص ينظر تودروف في ritique de la critique ,Le sueil,Paris,1964 إنتفض فيه ضد مذهب الشكلانيين، ليعتبر الأدب مصنوعا ليس من البنى وحدها، بل ومن الأفكار والتاريخ كذلك.

٤ـ الزاوية، مطبعة الريف، تطوان، ١٩٤٢.

٥ـ سليل الثقلين، تطوان، مجلة المعرفة، ١٩٥٠.

٦ـ ينظر، الخطيب، إبراهيم، تحولات مثقف مغربي في النصف الأول من القرن العشرين. رباط الكتب، مجلة إلكترونية محكمة، الرباط، (٣ أبريل ٢٠١٧).

٧ـ أنظر كتابنا: الكتابة السردية في الأدب المغربي الحديث، الرؤية والتكوين، المعارف، الرباط، ٢٠٠٠, ص ص ٢٤٢ ـ ٢٥٠.

٨. مبارك ربيع ، الطيبون.

9 . Lejeune) Philippe(,Le pacte autobiographique, Le sueil 1975

١٠ـ الشاوي، عبد القادر، كتاب الذاكرة، الفنك، الدار البيضاء، ٢٠١٦. ص ٤٧

١١ـ المصدر السابق، ص ٥٤.

١٢ـ المصدر السابق ص ٥٣ .

١٣ـ المصدر السابق ص٥٥ .

١٤ ـ المصدر السابق .

١٥ـ المصدر السابق ص ٥٠.

١٦ ـ المصدر السابق .ص ٥١ .

١٧ـ نفس المصدر.

١٨ . نفس المصدر.

١٩ـ المصدر نفسه. ص ١٨

٢٠ـ المصدر نفسه.

الروّاد المقدسيّون في الحياة الفكرية والأدبية في فلسطين قبل النكبة

جهاد أحمد صالح

يحيلنا الحديث عن «الروّاد المقدسيون في الحياة الفكرية والأدبية في فلسطين» ومراجعة ما قدّموه من نتاجات فكرية وإبداعية ثقافية إلى الحديث عن حياة القدس الاجتماعية قبل عام ١٩٤٨م، يوم قسّمتها قوى الاحتلال الصهيوني مدعومة بقوة الانتداب البريطاني إلى قسمين، أحدهما دخل تحت سلطة الاحتلال، والآخر أصبح جزءاً من المملكة الأردنية الهاشمية بعد مؤتمر أريحا عام ١٩٥٠م، وبعدها توحيد المدينة تحت الاحتلال الصهيوني إثر هزيمة العرب في حرب حزيران عام ١٩٦٧م، واعتبار القدس عاصمة أبدية لدولة إسرائيل، حسب ادعاءات قادة سلطات الاحتلال.

فالقدس، ليست مدينة تاريخية قديمة فحسب؛ بل إنها أقدم المدن التي عرفها التاريخ، ورغم أنها مدينة مقدّسة لدى الديانات السماوية الثلاث، إلاّ أن هذه القداسة كانت سبباً في معظم البلايا والمحن التي أصابتها، حتى أنه لم يبق فاتح من الفاتحين، أو غازٍ من الغزاة المتقدمين والمتأخرين، الذين صالوا وجالوا في هذا الجزء من الشرق، إلا ونازلته، فإما أن يكون قد صرعها، أو تكون هي قد صرعته.

لقد جار الزمان على القدس أكثر من غيرها من المدن، فاجتاحتها القوات الغازية أكثر من عشرين مرّة، ولكنها في كل مرّة كانت تخرج منتصرة وتعود لأهلها، منذ أن بناها اليبوسيون عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد، وحتى الفتح الإسلامي لها، وتوقيع وثيقة «العهدة العمرية» عام ٦٣٦م.

ومن خلال قداستها للأديان الثلاثة اعتبرت أقرب مدينة إلى الله، وراح الناس من جميع أطراف المعمورة يفدون إليها، يريدون الإقامة فيها والعيش في ربوعها.

تشكل في القدس كيان فلسطيني، متنوع استوعب مغاربة وأفارقة ويونان وأفغان وأحباش وأقباط وسريان وهنود وأرمن وموارنة، وحجاج جاءوا من الأندلس، وأكراد جاءوا مع صلاح الدين، وشركس هربوا من المجازر، وآخرون جاءوا من الولايات العثمانية، وبعثات تبشيرية وإرساليات دينية، كل هؤلاء وغيرهم، جاءوا إلى القدس ووجدوا فيها الحماية والأمن والسلام والاحترام، كل هؤلاء اندمجوا وصاروا جزءاً من الشعب الفلسطيني، جزءاً من ثقافته المتعددة، لم تبخل هذه المدينة العريقة الخالدة على أحد، لم تميّز بين ديانة وأخرى ولا بين عرق وآخر ولا بين لون وآخر ولا بين قومية وأخرى، لقد فتحت القدس أبوابها للجميع وكانت نموذجاً للتعايش والسلام، واستجابت لرغبة أبناء سائر الأمم في إشغال حيّز صغير ورمزي داخلها. وحدهم المحتلون والمعتدون والعنصريون الصهاينة أرادوا الاستحواذ على المدينة كلها.

فالقدس مهما جارت عليها الأزمان، مدينة أعياد متلاحقة، وشعائر دينية، ووضعت في خدمتها عبقرية الإنسان، إنها على صلة بالعالم دائمة، وهي في الوقت نفسه تتأمل ذاتها وتعيش مأساتها كل يوم، منذ بداية الهجمة الاستعمارية الاستيطانية الصهيونية في القرن التاسع عشر، والتي وصلت قمتها، ولبست أعلى ذروة فيها – في نهاية القرن العشرين؛ حيث تعرضت هذه المدينة لطمس هويتها العربية – الإسلامية والمسيحية جراء الاحتلال الصهيوني جزءاً منها عام ١٩٤٨م، واحتلالها بالكامل عام ١٩٦٧م، ونفّذ إجراءاته غير الشرعية المخالفة لكل القوانين والقرارات والأعراف والمواثيق الدولية، تحت ادعاءاته بأن القدس هي عاصمته الأبدية التي وعد الله بها شعبه المختار (أي شعب إسرائيل!!).

كانت مدينة القدس برمتها مع أماكنها الدينية المختلفة فضاءً عاماً لجميع المواطنين بصرف النظر عن ديانتهم أو انتمائهم الطائفي والمذهبي، الهوية الوطنية الجامعة، والفضاء برمته كان للجميع، إنجازات كبيرة للحركة الثقافية الفلسطينية ولروّادها الأوائل في بدايات وأواسط القرن العشرين، بيد أن هذا الإنجاز تعرّض للخطر، عندما اتخذت سلطة الاحتلال البريطاني قراراً يقضي بتقسيم المدينة إلى أربعة أحياء طائفية – إسلامية مسيحية يهودية أرمنية – وقد نجحت سلطات الانتداب فعلاً في تقسيم الفضاءات العامة وفقاً للانتماء الطائفي، لكنها أخفقت في تحويل الهوية الوطنية الجامعة إلى هويات جزئية أو هامشية كالهوية الطائفية والعائلية، وفشلت أيضاً في استبدال الهوية الوطنية بالهوية الدينية.

وترينا القدس أجيالاً متعاقبة من المثقفين وحركتهم الثقافية صنعوا الهوية الوطنية في سياق نضال شعبي مثابر وشامل، كانت الهوية الوطنية هي الهوية الجامعة التي توحّد الشعب الفلسطيني على أساسها، هوية كلية استوعبت داخلها الهويات الهامشية كالهوية الطائفية والعائلية والقبلية

والجهوية، واستوعبت أيضاً الهويات الدينية التي كانت جزءاً من الهوية الوطنية، ولم تشكل الهوية الدينية في تلك المرحلة بديلاً للهوية الوطنية دون أن يعني ذلك أي انتقاص من دور العامل الديني، ولم توضع الهوية الوطنية في تناقض مع الهوية الدينية طوال تلك الحقبة، يشهد على ذلك العلاقة الحميمة بين المسلمين والمسيحيين.

يقول معظم الكتاب والمؤرخين الذين ناقشوا التعايش بين العائلات المسيحية واليهودية والمسلمة، الذي كان سائداً في مدينة القدس، حاملاً معه كل ألوان الود والتسامح والتعاون والاحترام المتبادل بين الأديان، قبل وجود المشروع الصهيوني، وخاصة العلاقة بين المسلمين والمسيحيين التي كانت هي الأعمق، إلى درجة أنه من الصعب على أي مراقب معرفة من هو المسيحي ومن هو المسلم، ففي موكب عيد الفصح كان عدد المسلمين المشاركين في الموكب أكثر من المسيحيين، وفي موسم النبي موسى ذو الطابع الإسلامي يشارك المسيحيون بأعداد كبيرة، المسيحيون ناضلوا مع المسلمين ضد الصليبين، وضد الاحتلال البريطاني وضد المشروع الصهيوني والاحتلال الإسرائيلي، وثمة عُرف يعكس مستوى الثقة بين الديانتين هو تسليم مفتاح كنيسة القيامة لعائلتين مسلمتين تشرفان على فتح وإغلاق الكنيسة هما عائلة آل جودة وعائلة آل نسيبة.

المشروع الكولونيالي الإقصائي والعنصري هو المسؤول عن تخريب علاقة اليهود بالمسلمين والمسيحيين، ذلك أن طبيعة المشروع تستهدف طرد وتهجير شعب بالقوة وإحلال شعب آخر مكانه، وكان من شأن ذلك تأجيج صراع عنيف في طول وعرض المنطقة، صراع تحكمه ثقافة الكراهية، وكان للانتداب البريطاني الدور الأساسي في إضفاء الطابع الطائفي عندما قسم المدينة إلى أربعة أحياء طائفية، لتسويغ احتياجات المشروع الصهيوني في الاستناد إلى الدين وبخاصة إلى الأساطير حوله، الذي ما زال مستمراً، ويزداد ضراوة هذه الأيام، خاصة حول المقدسات الإسلامية، وتحديداً المسجد الأقصى والصخرة المشرفة، وما بينهما من ساحات ومرافق.

وكلما زادت المؤامرات على فلسطين، وعلى القدس خاصة، سارع روّاد ورموز وأعلام الثقافة في فلسطين يروون حكاية الحياة الاجتماعية الفكرية والثقافية، كتعبير حضاري وثابت لدى العالم، حول امتلاك هذا المكان عبر العصور الإنسانية المتعددة، واضعين أمام أعينهم، «أن من يكتب حكايته يرث أرض الحكاية».

لم تتوقف عجلة التاريخ التي قدّمت مشاهد راسخة وثقت علاقة المقدسيين الحميمة بالمكان. ظل البناء والتطور الطبيعي يتواصل، وتلك خاصية المدن العريقة الأكفأ على التطوّر والرقي والتواصل، التي تستلهم الإبداع التاريخي وترتقي به، حاضر القدس حتى منتصف القرن العشرين كان مفعماً

بالازدهار والرّقي، لقد واكب البناء المعماري الحديث التراث التاريخي العريق وقدّم مشهداً آخر للمدينة ألبسها فن وجمال عمارة القرن العشرين، إنه تطلّع المقدسيين خاصة والشعب الفلسطيني عامة نحو التطوّر والرقي ومواكبته الحداثة.

كتبوا عن القدس وعن فلسطين عموماً، لأنهم أدركوا أن التاريخ يؤكد: أن لا شيء كان مهماً وحيوياً وجديراً في يومه، يمكن أن يعيش في ظلام النسيان إلى الأبد، وأن لا شيء عاش قروناً وتجذّر في وجدان أمة، تعتبر الكاتب والمؤرخ والفنان هم ضميرها، وبؤرة ذاكرتها المتوهجة يمكن أن يصبح لغواً منسياً إلى الأبد، ما دام للقلم سطوة، وللتاريخ ذاكرة تلح على التدوين.

فبعد عام ١٩٤٨م، والهجرة الفلسطينية الواسعة التي حدثت بفعل المجازر البشعة التي ارتكبتها العصابات الصهيونية مدعومة بقوات الانتداب البريطاني، توزع الشعب الفلسطيني في الدول المجاورة والبعيدة، وغابت القيادة السياسية للشعب الفلسطيني، وحدهم الكتاب والأدباء والمؤرخون الفلسطينيون هم الذين حملوا راية فلسطين وقضيتها على أعناقهم، فراحت تنسال عبر أقلامهم في الصحف، والمجلات، والكتب وتسبقهم إلى كل مؤتمر ومنبر يتوجهون إليه، يكتبون، وينشدون، وحملوا القضية بروح جاذبة للقيم، واسعة الرؤيا، مليئة بالحنان والحنين، وبحب لا يعرف الهدنة ولا التراجع... من هنا بدأ الرجوع إلى قضية فلسطين، إلى جذورها الحضارية، ومن يحق له امتلاكها.

لقد أدرك الروّاد في الكتابة والتاريخ، أهمية التراث الشعبي في إثبات عمق وأصالة هذا الشعب، مدركين أن التراث ليس وحدات ثقافية منفصلة، إنما هو شريان حي متصل بوعي أو بغير وعي في دمائنا، والتراث ليس هو الطابع أو الخصائص القومية، إنما هو أشمل من ذلك وأعمق. فهو جماع التاريخ المادي والمعنوي للأمة منذ أقدم العصور حتى الآن، التراث جزء من مكونات الواقع وليس دفاعاً عن موروث قديم.

والثقافة بكل أبعادها، هي العنصر الأقوى في تنشيط واستحضار الذاكرة، وخاصة، صد كل محاولات إسكات التاريخ، وجهد الثقافة والمثقفين والتربويين في بلورة الهوية الوطنية الفلسطينية في نهضة علمية ثقافية عاشتها مدينة القدس وفلسطين في أوائل وأواسط القرن العشرين، خاصة، أن السمة المميزة للثقافة الوطنية الفلسطينية، هي أنها ولدت وترعرعت عبر الجهود التنويرية، وفي خضم النضال ضد الغزو الاستيطاني الصهيوني ذي الأهداف الاقتلاعية، والمندمج عضوياً في الانتداب البريطاني، وخلال الصراع المحتدم منذ بداية القرن العشرين، وكثافة تجسيد الهوية المهددة بالاقتلاع، خاضت الثقافة الوطنية الفلسطينية، النضال ضد التخلف الاجتماعي للمجتمع المحلي

واستلاب جمهور الفلاحين الواسع وعفوية الممارسة.

وقد اعتمد المنوّرون مرتكزات ثلاثة يرتكز عليها أي تطوّر في المجتمع من الناحية الثقافية التنويرية: فمن ناحية أولى: تطوير نظام التعليم والإلحاح على افتتاح المدارس، أو المبادرة بإنشائها، وأوردت إحصائية موجزة عن التعليم والمدارس في فلسطين أنه عند بدأ السنة الدراسية ١٩٤٧ – ١٩٤٨م، كان في فلسطين (١٣) مدرسة ثانوية عربية تامة، و (٢٠) مدرسة تضم صفوفاً ثانوية غير تامة. وفي التعليم العالي مدرستان: الكلية العربية، والكلية الرشيدية، وإلى جانب هاتين المدرستين مدرسة الحقوق للعرب واليهود على السواء، ودار المعلمات في القدس، ومركز تدريب المعلمات الريفي في رام الله. وقد شهد قطاع التعليم في عهد الانتداب البريطاني نشاطاً غريباً، ولكن يد الانتداب لم ترد له خيراً.

ومن ناحية ثانية: المطابع والطباعة، وتشير الدراسة التي أجراها الباحث الدكتور محمود زايد في الموسوعة الفلسطينية أنه كان في فلسطين ثمانية وستون مطبعة منتشرة في عموم فلسطين منها: ثلاثون مطبعة في القدس.

هذه المطابع وفّرت فرصة إصدار الصحف والمجلات والكتب والإعلانات وغيرها من وسائل الطباعة، وفي مجال الصحافة، باعتبار أنها كانت الوسيلة الممكنة لإظهار آراء ومواقف وكتابات العلماء والأدباء الفلسطينيين.

ومن ناحية ثالثة: الصحافة وطباعة الكتب، سجّل الأستاذ أحمد خليل العقاد في دراسته «الصحافة العربية في فلسطين، عدداً من الصحف التي كانت تصدر في فلسطين، وعددها مئة وست وخمسون صحيفة، من بينها تسع وثمانون صحيفة يومية وأسبوعية وشهرية كانت تصدر في القدس وحدها، ومن بينها كتب متخصصة في الأدب والشعر والنقد.

وهذه القائمة لا تختلف عن تلك الدراسة التي قدّمها الأستاذ عبد القادر ياسين، في الموسوعة الفلسطينية، ولا تختلف عن كتاب الأستاذ يوسف ق. خوري «الصحافة العربية في فلسطين ١٨٧٦ – ١٩٤٨».

نتوقف هنا، لنشير إلى بعض روّاد النهضة التنويرية التي بدأت من القدس، مع مراعاة أن بعضهم قد جاء من الولايات العثمانية التي كانت سائدة في ذلك الوقت، ونبدؤها بالرائد المفكّر «يوسف ضياء الخالدي» الذي ولد عام ١٨٢٩م، وتنقل بين وظائف الدولة العثمانية، ورئاسة بلدية القدس (١٨٧٣-١٨٦٧)، ثم نائباً في مجلس «المبعوثان»، كما أمضى سنوات عدة، مدرساً في مدرسة اللغات الشرقية في مدينة فينا، وقد أصدر أول قاموس عربي كردي أسماه «الهدية الحميدية من اللغة

الكردية». ولازم المصلح الديني «جمال الدين الأفغاني» وتوثقت علاقته به، وكان من أجرأ دعاة الإصلاح والمطالبين بالدستور، وفي مجلس «المبعوثان» كان مدافعاً عن الدستور، وفي فلسطين كان من دعاة النهضة التنويرية، وسجّل له مجهوداته المبكّرة في الحركة الإحيائية.

جاء بعده ابن أخيه «محمد روحي الخالدي» الذي واصل مسيرة عمّه في التزوّد بالعلم والاهتمام بالبحوث والدراسات، وعُد رائد البحث التاريخي الحديث في فلسطين، ورائد الأدب المقارن في اللغة العربية، وكانت علاقته حميمة مع المصلح «جمال الدين الأفغاني»، وانضم إلى حزب الاتحاد والترقي، درس في جامعة «السوربون» في باريس واتصل بعلماء المشرقيات فيها، توثقت علاقته بالصحافة المصرية وكتب فيها عدة دراسات وأبحاث، ونشرت له عدة مقالات تحت عنوان»علم الأدب عند الإفرنج والعرب» أضاف لها «فيكتور هوجو» عندما تحوّل إلى كتاب صدر في القاهرة، دافعاً الشعور القومي العارم، والتركيز على أسبقية العرب على الإفرنج في ميدان الإبداع الفكري. وكتب عن الانقلاب العثماني وتركيا الفتاة، ورسالة في سرعة انتشار الدين المحمدي. وانتخبه أهل القدس عام ١٩٠٨، نائباً لها في مجلس «المبعوثان»، فكانت له صولات وجولات في التصدي للمشروع الصهيوني في فلسطين، وكتب عن تاريخ الصهيونية.

ثم جاء دور المعلم «نخلة زريق» رائد تعليم «اللغة العربية» في فلسطين، والذي بين يديه تخرجت غالبية الرعيل الأول من المتعلمين الفلسطينيين الذين احتفت بهم حركة النهضة وازدهرت أجواؤها، وتقدّمت إلى الأمام.

وجاء من بعده «بندلي الجوزي» الذي اعتبر رائد البحث العلمي الاجتماعي في فلسطين، وهو من أوائل الذين درسوا التاريخ العربي دراسة علمية، واهتموا بجوانبه الاقتصادية والاجتماعية، تميّز بسعة الاطلاع على الكثير من ثقافات الشعوب واللغات الشرقية والغربية، واستوعب أساليب البحث المقارن في مسائل هذه اللغات واكتشاف وجوه العلاقة بينهما، ووجوه التأثير المتبادل بين بعضهما والبعض الآخر، ومن أهم كُتبهِ «تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام»، عمل أستاذاً في الجامعات الروسية، وأسهم في تدعيم معهد الاستشراق الروسي، وساهم مساهمة فعالة في تقديم الثقافة العربية إلى الوسط الروسي، والدارسين في حقل الأدب واللغة والتاريخ، ودُرّست كتبه وأبحاثه في الجامعات الروسية، والسوفيتية فيما بعد.

ومن الناصرة يأتي إلى القدس، الأديب واللغوي والمربي الكبير «خليل بيدس»، الذي ترك أثراً طيباً في الفكر والأدب والرائد المؤسس للقصة العربية القصيرة في فلسطين، وأحد روّاد المدرسة الروائية فيها، وصاحب جريدة «النفائس العصرية» الأدبية فيها أيضاً.

اهتم بيدس وهو خريج مدرسة المعلمين الروسية في الناصرة وتأثر بأفكار المثقفين القوميين الروس في القرن التاسع عشر، أمثال «ديستويفسكي» و «غوركي» و «تولستوي» وترجم أعمالهم الروائية، وكوّن له رؤية متميّزة، فدعا إلى استنهاض النشاط الثقافي في العالم العربي، ودعا في مجلته «النفائس العصرية» إلى إبداعات في اللغة، والخطابة والسياسة، عبر مقالات في تاريخ العرب وأوروبا. وشارك في الهم الوطني، وكان أول سجين فلسطيني في السجون البريطانية في فترة الانتداب، ومن أكثر الروّاد الذي أطلوا على الثقافة الروسية، وترجم معظم روّادها الأوائل.

وما دمنا في حقل الصحافة، لا بد وأن نذكر علمين رائدين إلى جانب «خليل بيدس» وهما: «نجيب نصار» صاحب جريدة «الكرمل» و «عيسى العيسى» صاحب جريدة «فلسطين».

فقد ولد نجيب نصار في لبنان، وأقام معظم حياته في القدس معلماً، وأنشأ مجلة «الكرمل» في حيفا، التي أصبحت النفير الذي آذن بانطلاق الهوية الفلسطينية المقرونة بانطلاقة أول صحيفة فلسطينية، تنذر من خطر ريح، قد تتحول يوماً إلى عاصفة تقتلع الأشجار من جذورها، وعالجت منذ تأسيسها عام ١٩٠٨م، مع تطبيق قانون الدستور العثماني، الشؤون السياسية والاجتماعية والاقتصادية، شنّت حملة على القيادة التقليدية في معالجتها للقضية الفلسطينية، ونبهت بقوة الى مخاطر بيع الأراضي لليهود، وضد سياسة الانتداب البريطاني عموماً، وكان لنجيب نصار أن كشف بكتابه «الصهيونية» عن المخطط الصهيوني بفلسطين، فهاج الشعب الفلسطيني، وأغلقت مجلته أكثر من مرّه، وسجن، وطورد وألف رواية «مفلح الغساني» التي روى فيها قصته وهو طريد الاحتلال البريطاني في شمال فلسطين والأغوار، وقد أطلق عليه «شيخ الصحافة الفلسطينية»؛ وقد حافظت زوجته «ساذج نصار» على إصدار المجلة فترة من الزمن.

وفي مدينة»حيفا» تنطلق جريدة «فلسطين» عام ١٩١١م، ومؤسسها «عيسى العيسى» مع ابن عمه «يوسف العيسى» صاحب جريدة «ألف باء» الدمشقية، وكان معلماً في القدس بعد تخرجه من الجامعة الأميركية في بيروت. وجعل جريدة «فلسطين» مسرحاً للأقلام الحرة، وناهض الانتداب البريطاني ووعد «بلفور» الرامي إلى تهويد فلسطين، وخاض مع نفر من كبار المثقفين في الطائفة الأرثوذكسية داعياً إلى تخليصها من زعمائها اليونانيين، الذين حارب ضد طغيانهم، وكانت جريدته من أكبر الصحف الفلسطينية، وأغزرها مادة وأكثرها انتشاراً وتمثيلاً للراي العام الفلسطيني، وكان من أوائل المثقفين وأصحاب الأقلام المناضلة التي ناهضت الصهيونية، وكان في شبابه من الذين أسسوا جمعية الآداب الزاهرة، وترك بعد وفاته ديوان شعر في السياسة والوجدانيات.

وشهدت فلسطين في المجال التربوي التعليمي صراعاً بين «القديم المحافظ» و»الجديد المتطوّر نحو

الحداثة»، خاضها رائدان مهمان من روّاد النهضة التنويرية، هما «خليل السكاكيني» و «محمد إسعاف النشاشيبي».

كان خليل السكاكيني الذي ولد في مدينة القدس عام ١٨٧٨م، وأصبح فيها «رائد التجديد الفكري والأدبي في فلسطين»، منذ صباه متحرراً من الأوهام، ثائراً على التقليد، مبتكراً شجاعاً، قوي البنية، كبير القلب والعقل، ثار على الرهبنة اليونانية وذهب في وفد إلى الاستانة وقابل الصدر الأعظم وخاطبه بصراحة، وطالب برفع الضيم عن العرب الأرثوذكس في فلسطين، وثار على وعد بلفور وهو موظف بالحكومة، وسار في طليعة مظاهرة نظّمها طلاب المعهد الحكومي الذي كان يدرّس فيه، وثار على أدب اللفظ ثورته المشهورة، التي سجّلها في مقالاته التي جمعت في كتاب (مطالعات في اللغة والأدب)، وكان طرفها الآخر في معركة اللفظ هو «شكيب أرسلان» في لبنان، و»محمد إسعاف النشاشيبي» في فلسطين. وثار على القدر حين توفيت زوجته وهي في ريعان الشباب، وحزن عليها حزناً شديداً وعبّر عن ثورته أبلغ تعبير بعبارة علقها على صدر مكتبته، هي «لن أرضى»، وكتب عنها عشرات القصائد، لكن الأقدار ظلّت تلاحقه بثقلها الحزين المؤلم، فتوفي ابنه الوحيد (سري)، الذي يحبه كثيراً، فتوفي خليل السكاكيني بعدها بثلاثة شهور.

بالإضافة إلى مقالاته الصحافية في أكثر من مجلة محلية وعربية ترك لنا أربعة عشر كتاباً، بالإضافة إلى مذكراته اليومية التي نشرت بعد وفاته في ثمانية مجلدات كبيرة، عبّر فيها عن: المواقف الوطنية والآمال القومية، ومفهوم الاستقلال، وموقفه من الانتداب البريطاني، والقيادات التقليدية ومواقفه في التربية واللغة والأدب. وتعد سجلاً متكاملاً من النهضة الفكرية والأدبية، سجلت ما عانت منه فلسطين وما جاورها. وسجلاً للعلاقات الاجتماعية والثقافية والعائلية.

وفي الطرف الآخر، كان «محمد إسعاف النشاشيبي» الذي ولد في القدس، في بيت رفيع المستوى والثراء، وهو شاعر وأديب قادر يمتاز بلغته ولهجته ولسان حاله، وإذا كتب أو خطب قلّد قدماء العرب، أكثر نظمه حماسي، كثير الانتقاد، كان من قبل يستشهد بأقوال العرب، وفيما بعد بأقوال الفرنسيين، وهو أحد نوابغ فلسطين الذين اشتهروا بجدهم واجتهادهم، وأصبح «علاّمة فلسطين وأديب العربية». فتحت الجرائد والمجلات صفحاتها برحابة لكتاباته، ومن ناحية أخرى كان حريصاً على الدعوة لمذهبه النقدي في كتاباته التي تدعو إلى التمسّك باللغة، يقلّد القدماء، والتمسك بالدين بلا تعصب، ما جعله يكتب كتاباً بعنوان «الإسلام الصحيح»، وكان هذا الكتاب يمثل قفزة نوعية جريئة في فهم الإسلام. وعُرف بعلاقاته الواسعة مع علماء العرب في حينه.

وفي حقل التعليم ارتقى إلى أن اصبح مفتشاً أول للغة العربية في إدارة المعارف العامة بفلسطين،

وأسهم في تنظيم المدارس وفي إصلاح التعليم فيها. تأثر كثيراً بسيرة صلاح الدين الأيوبي، وأبي تمام، والشاعر أحمد شوقي فألف كتباً عنهم.

ومن علماء وكتاب القدس، المؤرخ «عارف العارف»، الذي أصبح عميداً للمؤرخين الفلسطينيين، لكثرة ما كتب عن القدس، وغزة، بثروة ضخمة من المؤلفات الحاشدة بالمعلومات، وتحتفظ بقيمتها وأهميتها، وما زالت تحتل مكانها بين المراجع الأولية لكل من يحاول التعرف على تاريخ بلادنا، نذكر منها: القضاء عند البدو، تاريخ بئر السبع وقبائلها، تاريخ غزة، الموجز في تاريخ عسقلان، تاريخ الحرم القدسي، المسيحية في القدس، الموجز في تاريخ القدس، تاريخ قبة الصخرة والمسجد الأقصى، النكبة في صور، سجل الخلود، المفصّل في تاريخ القدس، وكتب «موسوعة» من خمسة أجزاء عن النكبة الفلسطينية وما تعرض له الشعب والمدن والقرى من ويلات سقوط مدنهم. وكتب مجموعة أخرى، من عشرة كتب لصالح مركز الأبحاث الفلسطيني بعد عام ١٩٦٧م وهي: أحداث رفح ومأساة البدو من أهلها، الدور الفلسطينية التي هدمها الإسرائيليون، غزة نافذة الجحيم، الفلسطينيون في سجون الاحتلال، الفلسطينيون المبعدون عن بلادهم، مآخذي على الحكم الإسرائيلي في القدس، مأساة البدو في النقب وقطاع بئر السبع، مذكراتي عن المساعي السلمية، مذكراتي عن نشاط المقاومة الفلسطينية، المعذبون في السجون الإسرائيلية من أبناء فلسطين.

وفي القدس ولد الفنان الشعبي «واصف جوهرية» عام ١٨٩٧، والذي تحوّل بجهده وإمكانياته إلى رائد الموسيقى والغناء في عموم فلسطين، شهد الحقبتين من الحكم وهما: الحقبة العثمانية، والحقبة الانتدابية البريطانية، وما رافقهما من تطوّر على الصعيد السياسي والاجتماعي والثقافي، فكتب عن هاتين الحقبتين ذكريات أسمى الجزء الأول: القدس العثمانية في المذكرات الجوهرية، وأسمى الجزء الثاني: القدس الانتدابية في المذكرات الجوهرية. وهي مذكرات من أهم المراجع التاريخية لمن يريد أن يكتب عن تطور الغناء والفرق الشعبية الفولكلورية الفلسطينية، وعلاقات الناس بالفنانين، وعمل صداقات واسعة مع النخبة الأولى لفناني وموسيقيي الوطن العربي الذين زاروا القدس في تلك المرحلة.

أنشأ مقهى أسماه «مقهى جوهرية»، فكتب عن حفلاته وأمسياته، وكتب عن مقاهي القدس عموماً، وأنشأ في منزله متحفاً لكل الآلات ومعدات الغناء الشرقية والغربية، وأصبح هذا المتحف الوحيد في فلسطين، ملقياً بمعلومات عن الآلات، ومن أتقن استخدامها، والفنانين الذين زاروا المتحف، وعندما قرر الرحيل من فلسطين إثر نكبة عام ١٩٤٨م، ساعده القنصل الفرنسي بإخراج المتحف، لكن واصف جوهرية وصل بيروت، أما محتويات المتحف فذهبت مع الريح. كتب واصف جوهرية في مذكراته أحوال دخول الكهرباء وبابور البريموس والجرامافون إلى فلسطين. وأقام

علاقات ودية مع العائلات ورموزها الثقافية، وكيفية دخوله إلى الجوقة الفنية في هيئة الإذاعة الفلسطينية، وذكرياته عن بعض رموزها.

ومع بداية القرن الماضي، وتحديداً عام ١٩٠٤م، ولد عميد الأدب العربي في فلسطين «إسحاق موسى الحسيني» الذي شغل نفسه بتراث الأمة وأدبها، آمن بالوحدة العربية الواحدة، وبرسالتها، وكان فكره إسلامياً تميّز بنظرة موضوعية، حاكم موضوعات دراسته محاكمة علمية منهجية تحليلية مفكرة، حتى ذاع صيته وانتشر في المجامع العلمية واللغوية العربية والمحافل الأدبية والفكرية، وعرفوه ذوّاقة، وكاتباً بليغاً، وناقداً ومحققاً ثبتاً، ومفكراً ينادي بالإصلاح في تفكير عميق واستقلال في الرأي، وكان واحداً من النقاد العرب الذين تبنوا الخط القومي، وركّزوا على ضرورة الاعتزاز بالذات العربية، وعاش على حب القدس، قدس الأقداس والعروبة.

نشر الدكتور الحسيني عشرات من المقالات والأبحاث المختلفة في عدد من الصحف والمجلات المعروفة في الوطن العربي، وزوّد الخزانة العربية بطائفة من المؤلفات تقدر بسبعة عشر مؤلفاً، نراه فيها يبث أفكاره بأسلوب يشبه ما يمكن أن يكون خطوطاً عريضة لمشروع فكري أكثر اتساعاً، ومنطومة فكرية متماسكة بمقدماتها ونتائجها، تقوم على ثلاثة محاور لا انفصام بينها وهي: الإسلام والعروبة والرقي الحضاري. وفي مهمة الأدب، كتب قصتين قصيرتين، الأولى: لم نخسر شيئاً. والثانية: قرية من بيت صفافا. وفي مجال الرواية، كتب رواية واحدة بعنوان «مذكرات دجاجة» قدّم لها عميد الأدب العربي «طه حسين» أثارت جدلاً في حينها.

وفي عام ١٩٠٥م، ولد رائد آخر، هو الأديب «نجاتي صدقي» الذي اعتبر رائداً للمدرسة الواقعية الاشتراكية، نجده من أبرز من قدّم الروائع الأدبية العالمية، وهو الفارس في مجال التفسير المادي للأدب، ومن ألمع قادة مدرسته في الوطن العربي، وهو كاتب متعدد الجوانب، وواسع الأفق، وغزير الإنتاج بشكل يدعو إلى الإعجاب، فهو: مترجم، ومؤلف، وناقد، وصحافي، ومفكّر، واقتصادي وإداري كبير، ساهم مساهمة فعّالة في تشييد صرح الأدب العربي الفلسطيني، ناضل من أجل قضية شعبه بالقلم، وبالتنظيم السري، فسجن على يد سلطات الانتداب البريطاني، وهاجر إلى القاهرة، وعاد ليواصل نضاله بين أبناء شعبه.

شارك كمراسل صحافي في الحرب الأهلية الإسبانية، وعاد بتجربة إلى الوطن، قابل الزعماء السياسيين فحاورهم بجدارة المطّلع على مجريات الأمور، قدّم ابن خلدون وداروين، وديكارت، برؤية جديدة لم يعرفها الأدب العربي من قبل، وانتقد المدرسة المثالية والرمزية بعمق وتحليل، فأثار جدلاً واسعاً في أوساط المثقفين العرب زخرت بها صفحات الصحف والمجلات. وأما آراؤه في النقد الأدبي، فقد

تبلورت إلى تأسيس «المدرسة المادية العربية» في النقد، بعد أن تضافرت عدّة عوامل لتوجه المثقفين في فلسطين إلى التجارب الفكرية والأدبية اليسارية والاشتراكية، التي أصبحت جزءاً من المناخ العام للثقافة العالمية.

وبالإضافة إلى مقالاته وترجماته لكبار الكتاب العالميين، ترك لنا مجموعتين قصصتين هما: الأخوات الحزينات، والشيوعي المليونير.

وفي عالم الرواية المبكّرة في فلسطين، والقدس تحديداً، يبرز جمال الحسيني، واحداً من أهم الشخصيات الفلسطينية التي لعبت دوراً بارزاً في قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية خلال الربع الثاني من القرن العشرين، ومؤسس الحزب العربي الفلسطيني، عرف عنه كونه قائداً سياسياً بارزاً، لكن ما لا يعرفه الكثيرون عنه، أنه كان من الرعيل المتقدّم من الأدباء الذين كانت لهم مساهمات ومجهودات في كتابة الرواية، ويعتقد الكثيرون من النقاد أنه لولا اشتغاله بالسياسة لعدّ من الأدباء الفلسطينيين المرموقين في مجال الرواية والقصة القصيرة.

وفي روايتيه المبكّرتين في الأدب الفلسطيني: على سكة الحجاز، وثريا، يبدو لنا أنهما استطاعتا، في همومهما على الأقل، تحقيق استجابة أكثر إخلاصاً وصدقاً مع الواقع الفلسطيني وقضيته الحارة.

وفي مجال التربية والتاريخ نرى أحمد سامح الخالدي، الذي كان مثالاً للمربي المخلص والحازم العامل، امتلك رؤية شاملة للتعليم نظرياً وعملياً، فكان رائد الفكر السياسي التعليمي في فلسطين، وقد امتد صيته إلى خارجها، تراوحت جهوده العلمية على عشرين مؤلفاً ما بين مطبوع ومخطوط، أغنت المكتبة العربية بين التأليف والترجمة والتحقيق.

فبالإضافة إلى كتبه التربوية العلمية، نجد من آثاره التاريخية والعلمية والأدبية الكتب الآتية: ترغيب أهل الإسلام في سكنى الشام، ومثير الغرام بفضائل القدس والشام، والإعلام بفضائل الشام، وأهل العلم بين مصر وفلسطين، وأهل الحكم والعلم في ريف فلسطين، ورحلات في ديار الشام، والمعاهد المصرية في بيت المقدس، والمعاهد العلمية في الإسلام، والأردن في التاريخ الإسلامي، وتاريخ بيت المقدس، والعرب والحضارة الحديثة، ورجال الحكم والإدارة في فلسطين من عهد الخلفاء الراشدين إلى القرن الرابع الهجري.

والجدير ذكره أن أحمد الخالدي كان أستاذاً للتربية وعلم النفس في الكلية العربية، ثم أصبح فيما بعد مديرها العام.

وفي مجال التاريخ الفلسطيني الحديث، يبرز لنا المؤرخ إميل الغوري الذي يعتبر من رجال الرعيل الأول الذين انخرطوا في الحياة السياسية في مرحلة الانتداب البريطاني، حيث ولد عام ١٩٠٧م، فكان

يمثل جيلاً من الشباب المثقف الذي ارتبط بالحركة الوطنية في ذلك الوقت، أسهم إلى حد كبير في وقائعها وأحداثها، ووظّف قلمه ونشاطه في خدمة قضية بلاده، فكان مؤرخاً لأحداثها، وإعلامياً يدافع عنها عبر الصحافة وفي المحافل الدولية، أصدر في عام ١٩٣٣م، صحيفة أسماها «الاتحاد العربي» فانطلقت تواجه سياسة الانتداب والحركة الصهيونية، فلاقت رواجاً كبيراً في الأوساط العربية والأجنبية على السواء، وعندما توقفت أصدر مجلة أخرى باسم «الشباب».

وبالإضافة إلى نشاطه الصحافي، فقد صنّف مجموعة من الكتب تناول فيها قضية فلسطين نذكر منها: المؤامراة الكبرى واغتيال فلسطين، وحركة القومية العربية ومعركة القناة، و ١٥ أيار، وفلسطين، والمعذبون في أرض العرب، وملحمة الفداء الفلسطيني – جهاد الفلسطينيين ضد الاستعمار والحركة اليهودية، وثأر أو عار، ودور التبشير في خدمة الاستعمار والصهيونة، وفلسطين عبر ستين عاماً.

وفي مجال المسرح، يظهر لنا «نصري الجوزي» من روّاد المسرح والكتابة المسرحية في فلسطين قبل النكبة، أسهم مع أخويه جميل وفريد، في وضع البصمات الأولى على صفحة المسرح، تأليفاً وتمثيلاً وإخراجاً، وكانت له اليد الطولى في تأسيس الفِرَق والنوادي المعنية بالحركة المسرحية، وساهم في إغناء التجربة التمثيلية في إذاعة فلسطين آنذاك، إلى جانب دراساته ومقالاته التي وثقت الحركة المسرحية الفلسطينية خلال مرحلة نهوضها، ومن كتبه المشهورة والتي تعد مرجعاً موثقاً هو: تاريخ المسرح الفلسطيني من ١٩١٨-١٩٤٨م.

وفي مجال الترجمة، يبرز لنا رائد البحث بالمعاجم العربية، «قسطنطين ثيودوري» الذي يعتبر أحد روّاد التربية والتعليم خلال فترة الانتداب البريطاني وما بعدها. عرف بغيرته على لغته العربية، وكان من المؤمنين بدورها في نهضة الأمة العربية، وعلو شأنها فقضى ستين عاماً من حياته يدرسّها ويعلمها إلى جانب اللغة الإنجليزية التي كان يتقنها إتقاناً جيداً، مما فتح أمامه نوافذ المعرفة على مصراعيها.

وبقدر غيرته على لغته العربية كحافظة لتراث وتاريخ وحضارة أمته، تولدّت لديه الغيرةعلى اللغة الإنجليزية كنافذة يطلّ من خلالها طلابها ودارسوها على المعرفة الإنسانية الأكثر شمولاً، فألف وكتب باللغتين، وربط بينهما بمجموعة من القواميس والمعاجم في مجالات ونواحٍ مختلفة، معيناً ينهل منه طالبو العلم والمعرفة والبحث العلمي الدقيق، فنجد له المؤلفات التالية: الزهور خواطر وتأملات، وبين مصر وفلسطين (تأملات في قالب قصصي)، بين الأسر والحرية (في طابع روائي)، وفلسطين ومستقبلها، والفريد الحديث في المصطلحات السياسية والدبلوماسية (معجم إنجليزي – عربي)، والفريد في المصطلحات الحديثة (معجم عربي – إنجليزي)، والمعجم التجاري الاقتصادي

(إنجليزي – عربي)، وأخطاء مستوردة في لغة كتابنا، المنجد (معجم إنجليزي – عربي).

وفي حياة حافلة في خدمة القدس يطلّ «روحي الخالدي» الذي أجمع المؤرخون على اعتباره أخصائي القدس الأول من بين الذين كتبوا عن القدس وتابعوا شؤونها لحظة بلحظة، وخاصة منذ وقوع الاحتلال الإسرائيلي الكامل للقدس عام ١٩٦٧م، وقبلها – في ظل الدولة الأردنية – انتخب رئيساً لبلدية القدس في ثلاث دورات انتخابية، وكان أول وآخر من شغل منصب «أمين القدس» وبعد النكبة أنشأ مجلة «القدس الشريف» المتخصصة بشؤون القدس، وكتب العديد من الأبحاث والدراسات المهمة والقيّمة حول حضارة القدس وانتمائها العربي، وظلّ يتابع ويحذّر مما تقوم به سلطات الاحتلال الإسرائيلية من إجراءات تهدف إلى تهويد القدس. وقد وضع في هذا الموضوع أكثر من كتاب وكتيب ومذكرة، من أهمها: كتاب تهويد القدس، وكتاب المؤامرة الإسرائيلية على القدس، وتقرير حول مواصلة السلطات العسكرية الإسرائيلية اعتداءاتها لتغيير أوضاع مدينة القدس، ومذكرة حول مشاريع تهويد القدس، وسلسلة من النشرات لا يتسع المجال لذكرها.

وفي مجال الكتابة المدرسية يبرز لنا علم من أعلام القدس، يعتبر رائداً للكتابة المدرسية في فلسطين، هو «فايز علي الغول» والذي ظل يردد «إذا كانت القدس لا تستاهل قيام الحرب... فأية مدينة أخرى في العالم.. أية مدنية أخرى في التاريخ تستاهل ذلك». أمضى سنوات طوالاً في الكتابة والنشر في الكتب المدرسية، وترك للطالب والمعلم كتباً لفائدة الطرفين، وكتب في التراث، وخاصة الشفوي منه، فكان إنتاجه إضافة نوعية لتشكيل الذاكرة الوطنية والقومية المعتزة بتراثها وتاريخها، ودونك أسماء الكتب التي نشرها وحده ومع آخرين: العروض السهل (في جزأين)، الوافي في تاريخ الأدب (في ثلاثة أجزاء)، النصوص الأدبية (في خمسة أجزاء)، القواعد الوافية (في أربعة أجزاء)، الأساس في التربية الوطنية، فن التلخيص، الثقافة المكتبية، الدنيا حكايات، من أساطير بلادي، من سواليف السلف، اللغة العربية (في ثلاثة أجزاء)، القراءة المصوّرة، الجديد المعدّل.

***

هذه نبذة موجزة (جداً) لبعض روّاد النهضة الفكرية والأدبية في فلسطين، في المرحلة ما قبل النكبة، اخترناها بعناية فائقة، لتمثل كافة الاتجاهات الفكرية والأدبية، وإضافة إلى هؤلاء يقف عشرات من المثقفين، بل مئات منهم، الذين ولدوا في القدس، وعاشوا في القدس، وكتبوا من أجل القدس، لا يمكن لهذه المساحة أن تستوعب ما قدّموه، وما تركوه للأجيال القادمة، من أجل أن تظل القدس، عاصمة أبدية لدولة فلسطين.

«الانتفاضة الأولى» في الرواية الفلسطينية .. استعادة غائبة والغلبة للتوثيق على حساب الجانب الفني

بديعة زيدان

لطالما تساءلت: «لماذا تغيب الانتفاضة الأولى، أو انتفاضة الحجارة، أو الانتفاضة الكبرى، أو انتفاضة العام ١٩٨٧، عن الرواية الفلسطينية الحديثة؟»، وخاصة في السنوات العشرة أو الخمسة عشرة الماضية، مع أنها حقبة مليئة بما يمكن أن تنتج عنه أعمال روائية عظيمة، خاصة أن جلّ وليس كلّ الروايات التي رصدت الانتفاضة في نهاية ثمانينات، وفي تسعينات القرن الماضي، والعامين أو الثلاثة أعوام الأولى من الألفية الثالثة، كانت روايات تسجيلية انحازت للمضمون والتوثيق، على حساب اللغة و«التكنيك» والفنيات، فالحدث في غالبيتها أهم من طريقة تناوله.

ومما يجعل السؤال ملحاً، أن «أطفال الحجارة»، وأنا واحدة منهم، باتوا الآن في نهاية الثلاثينات أو في الأربعينات من أعمارهم، و«مناضلي الميدان» في الخمسينات، وقلة منهم في الستينات، ومنهم روائيون بات لهم حضورهم العربي، وحتى العالمي.

الروايات التي رصدت الانتفاضة، وغالبيتها العظمى إن لم يكن جميعها لكتاب من داخل الأرض المحتلة، وليس من الروائيين العائدين أو المقيمين في المهجر، تندرج من الناحية النظرية فيما يعرف بـ«أدب الحرب»، أو «أدب الثورات»، والذي تجد البروفيسورة الأميركية الشاعرة كاثرين بروسمان، أن وظيفته (أدب الحرب) «صياغة حس قومي، وخلق روح النضال والمقاومة، بالعمل على إيقاظ وتأجيج خيال شباب الأمة»، وهو الأدب الذي يطلق عليه باحثون اسم «الأدب التعبوي»، والذي يختلف شكلاً ومضموناً تبعاً للزمن الفاصل ما بين الحرب وتناولها إبداعياً، وتبعاً لفنّيات الروائي نفسه، فاختمار الحدث في دواخل الكاتب مع الوقت، يمكن أن يولد أعمالاً أكثر نضجاً، وإن كان البعض يفضل الدخول في عالم «التعبئة ضد العدو أو المحتل»، وإن كان هذا الدور في الغالب منوطاً بالشعراء أكثر من كتاب السرد، وخاصة الروائيين منهم.

في هذا الملف حول انتفاضة العام ١٩٨٧ في الرواية الفلسطينية، أسلط الضوء على أبرز الروايات التي رصدت الانتفاضة في أكثر من جانب، وتقديم ملخصات لبعضها، انتهاء باستنتاجات حول تجربة الكتابة السردية الفلسطينية، عبر الرواية تحديداً، عن حدث مفصلي في تاريخ شعب لا يزال يناضل من اجل التحرر من أقدم احتلال في العالم، ولعل استمرار «الحرب» بتجليات عدّة، هو ما يجعل من المواضيع المتناولة في التجارب الروائية الحديثة للكتاب الفلسطينيين، من الجنسين، ومن مختلف الأجيال، لا تخرج عن إطار «أدب الحرب»، وإن خرجت غالبيتها من عباءة «التعبئة» بالمفهوم التقليدي الدارج للمصطلح.

ثلاثية أحمد حرب .. التنبؤ

ويمكن وصف ثلاثية أحمد حرب، واولها رواية اسماعيل (١٩٨٧) بالروايات التنبؤية، ف»إسماعيل»، وإن كانت تستعيد أحداثاً تسبق هزيمة ١٩٦٧ إلا انها ترصد البيئة العامة في الضفة الغربية بعد النكسة.

يطرح حرب في الرواية أسئلة حول سبل التحرير وتأتي الاجابات مختلفة بحسب الايديولوجيات التي تعكسها الشخصيات، فالاتجاه الوطني ممثلا في اسماعيل يرى ان المواجهة العسكرية والثورة هي الحل لكنه يفتقد في الوقت نفسه الى رؤية استراتيجية لادارة الصراع، وتظل مواقفه انفعالية وارتجالية بينما يرى الاتجاه اليساري، مع غموضه واضطرابه وضبابيته وتحوله، ممثلا في هادي أن الحل لا بد ان يكون سياسيا بالتفاوض، ولا بد من الاعتراف باسرائيل، وان كان يفكر باعادة النظر في اطروحاته، بعد انكشاف الموقف الأميركي وانحيازه لاسرائيل وتعامله بزيف ومراوغة وخداع مع الجانب الفلسطيني.

أما الاتجاه الاسلامي الذي يمثله الشيخ عبدالله فيبدأ بعيدا عن روح المقاومة مكتفيا بالقيام بالعبادات والشعائر الدينية، رافضا الاندماج مع التيار الوطني في ابسط مظاهر المقاومة وهو الاحتجاج او التظاهر، ثم يتطور هذا الموقف نحو المشاركة في فعاليات المقاومة ولكن بعد تعرضه بصورة خاصة للاعتداءات من جيش الاحتلال الذي اجبره عبر المزيد من الاعتداءات على الانضمام الى المقاومين الفعليين. أما النفعيون واصحاب المصالح مع الاحتلال والعملاء فهم بطبيعة الحال لا يؤيدون المقاومة بل يتهمونها بتخريب حياة الناس، ويرون انه لابد من انهاء الثورة ولو عن طريق قوة الاحتلال.

وتكاد تكون هذه الرواية هي الأولى في الأرض المحتلة ٦٧ التي تنبأت بالتفاوض، بل ودعت إليه، دون اللجوء إلى الحرب، وكذلك تنبأت الرواية بالسيطرة الأميركية على المنطقة، وعلى مجريات أحداث القضية الفلسطينية، وأننا سنقع في أسر الإرادة الأميركية.

وفي رواية حرب الأخرى «الجانب الآخر لأرض المعاد» (١٩٩٠) يصور واقع الضفة الغربية والقوى السياسية الفاعلة فيها وموقفها من الانتفاضة بمعنى انها ترسم تعدد الرؤى من الانتفاضة وتغير المواقف والمواقع وان لم يكن همها الاساسي هو الحديث عن الانتفاضة نفسها، فبرزت شخصيات جديدة وبقيت شخصيات

كانت محورية في رواية اسماعيل.

ابو قيس قائد ميداني يخوض المواجهات في الانتفاضة، واسماعيل القائد الفتحاوي يغير موقفه من العسكرة ويترك الميدان ليدير مكتباً من عمان باسم مكتب تحرير فلسطين ويصبح ممن يستثمرون الانتفاضة ويتماهى في مواقفه مع مواقف هادي اليساري الشيوعي في استثمار الانتفاضة سياسيا من اجل الوصول الى سلام مع اسرائيل فيدعم اسماعيل هادي في تاسيس مكتب الجسر لردم الهوة بين الجانبين الاسرائيلي والفلسطيني، وبدل توجيه الدعم الى المنتفضين ينصب باتجاه «الجسر» وتوظف هذه الاموال من قبل هادي في عقد اجتماعات سرية ومفاوضات وموتمرات لتقريب وجهات النظر بين الفلسطينيين والاسرائيليين لشجب العنف ورفضه.

هذا الارتباك والتناقض أربك الانتفاضة فلا أفق ولا وجهة معينة لدى قيادة الميدان مع شح الموارد والارتجال والاختلاف في الرؤى ما بين القيادات الميدانية على أرض فلسطين وما بين القيادات في الخارج في حين كان دور المثقف هامشيا في تلك المرحلة فهو غير مبادر بل ويقف متفرجا محايدا وليس اكثر من شاهد على ما يجري.

أما الرواية الثالثة فيما عرف بثلاثية أحمد حرب فهي رواية «بقايا» (١٩٩٦) حيث تناولت ما أسماه باحثون ونقاد البحث عن مسارات مراوغة للسلام، في زمن تحولات الاشخاص وولاءاتهم وانتماءاتهم المعلنة والخفية وكأنها ترصد تداعيات الانتفاضة وما آلت اليه ما بين رجال المقاومة الفعلية ورجال اللعب السياسي.

القيادات الميدانية كماجد وأبو قيس يقضى عليهم إما على يدي رفاق السلاح أو على أيدي جنود الاحتلال، أما المناضل الشيخ محمد فيعيش معاقاً مشلولاً نادما على عدم التخلص من الجاسوس محمد الوهدان.

كما يتحدث عن تحولات ما بعد أوسلو واستثمار بعض من كانوا قادة ثورة في الخارج وقادة انتفاضة في الداخل تاريخهم النضالي وتجييره لمصالحهم الشخصية فيتحول المناضلون السابقون لفاسدين اثرياء واحيانا خونة يتخلصون ممن يكتشف أسرار ثرائهم او تعاطيهم مع الاحتلال.

«مقامات» عوض و«انتفاضة» بنورة

وتتقاطع رواية «مقامات العشاق والتجار» لاحمد رفيق عوض (١٩٩٧) مع «بقايا» احمد حرب حيث يتحدث عن الثوار الذين غيروا جلودهم ما بعد قيام السلطة الفلسطينية وعن تحالف رأس المال والادارة الوليدة واختلاط المتناقضات وتشابك العلاقات ما بين السياسة والمال والجنس والخيانة والتهريب في عالم يختلط فيه الشرف والنبل بالفساد حيث تتصارع القيم وتصل الى مرحلة السقوط في شخصيات تمثل شرائح اجتماعية متنوعة وتيارات فكرية عدة متناقضة تجمعها فقط المصالح والشهوات.

وهي رواية تجري احداثها في العامين ١٩٩٥ و ١٩٩٦ في مدينة رام الله، وتشارك الشخصيات الفلسطينية

فيها شخصيات يهودية من بينها شخصية اغراتسيا التي تستخل جسدها للايقاع بفلسطينيين يتحولون الى سماسرة اراضي وجواسيس.

وما دمنا نتحدث عن الانتفاضة في الرواية الفلسطينية، فهناك رواية «انتفاضة» ١٩٩٨ لجمال بنورة والتي تعتبر رواية تسجيلية للحياة اليومية للمجتمع الفلسطيني وتحديدا في الضفة الغربية خلال انتفاضة العام ١٩٨٧ حيث ركز على مشاركة الاطفال وأبناء فلسطين المسيحيين فيها للتأكيد على انخراط الجميع في مقاومة الاحتلال، حيث جعل من الانتفاضة حدثا موحدا لكافة الاتجاهات الفكرية والمجتمعية وسجل التحولات التي احدثتها الانتفاضة على الصعيد المجتمعي وخاصة التضامن الاجتماعي وتأثيراتها على العمال الفلسطينيين داخل الخط الاخضر اضافة الى سياسة الاكتفاء الذاتي التي حاول الفلسطينيون اعتمادها.

«الحواف» .. علامة بارزة شكلاً ومضموناً

ومن أبرز الروايات التي تناولت موضوع الانتفاضة من منطلق نقدي وباسلوب بعيد عن التسجيل رواية «الحواف» لعزت الغزاوي (١٩٩٣) حيث ترصد الرواية ما اسماه بعض الباحثين ب «الخلل في تنظيم الانتفاضة، وما رافقها من اندفاع وتسرع ومخاطرة غير محسوبة» حيث اشار الى شخصيات سعت لاستثمار الانتفاضة لمصالحها السياسية فالبسطاء في مواجهة الاحتلال في الميدان والشخصيات المتنفذة تشرع باقامة علاقات ومحادثات سرية مع اطراف عربية ودولية في عدة عواصم حول العالم بهدف تنفيذ خطة للاستفادة سياسيا من انجازات الانتفاضة.

كما يثير الغزاوي تساؤلات عديدة حول علاقات بعض شخصيات الرواية ومواقفها وقفزها الى مقاعد القيادة لتحديد مسار الانتفاضة واهداف تلك الشخصيات تاركا للقارئ استخلاص النتائج ورسم سيناريوهاته الخاصة للمستقبل فيما بعد وصول الانتفاضة الى افق مسدود.

وكانت «الحواف»، وفق نقاد عديدين، واحدة من أهم الروايات التي عبرت عن الانتفاضة بلا افتعال أو انفعال، وعلى قدر فني وتقني يضيف إلى العطاء الأدبي في سياق الإبداع الروائي الفلسطيني، حيث وضعنا الروائي (عزت الغزواي) في تناقض ومفارقة الفن والواقع مع السطور الأولى للرواية، فالزمن الروائي غير مستقيم بل مثقوب دوما ما بين الماضي والمستقبل، ما بين ما كان وما يرجو أن يكون، والمكان الروائي يوحي بواقعية الأماكن التي حدد بعضها اسما، مثل مخيم «الأمعري» ومخيم «قلنديا».. ومع ذلك فهي أماكن غير مكتظة بالناس،، ويكاد العمل كله أن يكون في دائرة فراغ ما.

حتى الشخصيات، ربما نلتقط منها ثلاثاً، حسب السيد نجم: «ع» الغامض الإيجابي المخلص للقضية، و»فؤاد» الذي سجن لسنة ثم تحول عن القضية، و»إبراهيم فوزي» المطارد وسجن بسبب حب الوطن، ومع الثلاثة لم يبدُ لنا الروائي منحازا بصوت عال إلا إليهم، وإن بدا فنيا تحيزه لـ»فوزي» الذي بقي مخلصا للقضية.

اندلعت الانتفاضة ولم يخبرنا الراوي ..متى ولا كيف؟ فقط هناك من يعمل من أجل..؟. فقد بعث «ع» برسالة: «بسم الله الرحمن الرحيم. أخي فؤاد، ماذا لو شربنا القهوة في بيت رأفت؟ مساء. أخوك « .. إنه عمل سري إذن، كما أننا على حافة أحداث لها ماضٍ ومستقبل.

وهكذا يبدو بناء الرواية، بسيطا ومركبا في آن واحد.، وتكفي الإشارة إلى أن «ع» لم نتعرف عليه اسما أو رسما طوال الرواية حتى نهايتها، لتبقى الشخصية الأمل الباقي والمعبر عن رغبة الشعب الفلسطيني في العمل والإيجاب، أما «فؤاد» المناضل القديم (صفة القديم من القارئ لأننا علمنا أنه ناضل وحاول، لكنه سقط بعد أول عثرة، وحكم عليه بالسجن لمدة سنة).. خرج من السجن وهو مؤمن بنفسه ومصالحه الشخصية قبل أي شئ آخر. يقول:» يجب أن تلغي من قاموسك كل تبادل للعاطفة، هناك تبادل مصالح وتزاحم في العلاقات».

وهناك «إبراهيم فوزي» الشخصية الواضحة والتي لا يمكن الاستغناء عنها في الأعمال الفنية للتعبير عن «المقاومة»، الهام في الأمر أن تكون طبيعية، وألا تفرد وجودها على وجود الشخصيات الأخرى، مهما كانت الأخرى فيها من سلبيات..أليست هي الحقيقة والفن معا.. إنه صادق ومخلص حتى أن شهادته في المحكمة هي التي خففت الحكم على «فؤاد» بسنة واحدة، وحكم عليه بثماني سنوات.. بل مات في نهاية الرواية.

وتتعدد في الرواية ما يمكن أن نطلق عليها الموتيفات الموحية والتي تشي ولا تخبر، بالإضافة إلى الجماليات الفنية المضافة للعمل، كما أكد السيد نجم، ففي ترحال الشخصيات في الزمان والمكان يصف مسجد «المجدل» وهو المسجد الذي بناه الأجداد وعاشوا حوله وصلوا فيه، ثم أصبح مهجورا لأنه تحت سطوة الاحتلال الغاشم الآن.

«باب الساحة» .. المرأة والانتفاضة

وبعد انغماس سحر خليفة في الذات، والاعتماد على التجارب الذاتية كمرجعية للاحداث في الروايات السابقة، رجعت بعد عدة سنوات قضتها للدراسة في اميركا، لترصد الفعاليات الجماعية في الانتفاضة الاولى، وتركز بشكل اساسي على دور المرأة في الانتفاضة، فنشرت روايتها «باب الساحة (١٩٩٠)»حيث كانت فيها الشخصيات الفاعلة هي مجموع الوطن فالانتفاضة فعل جماهيري لا يختصر على جهد فرد أو مجموعة قليلة من الافراد.

تناولت سحر خليفة موضوع الانتفاضة من زاوية مختلفة عن غيرها من الروائيين، وفق العديد من النقاد فالمرأة في الرواية هي المحرك الأساسي فيما الانتفاضة تشتعل في ذلك الحي الشعبي في مدينة نابلس ويحمل عنوان الرواية.

أرادت بتلك الرواية أن تكشف مدى تأثير الانتفاضة على المرأة إذ لم تغير شيئا في حياتها بل زادت في همومها ومعاناتها أكثر من السابق ومما جاء فيها «بصراحة ما تغير عليها غير الهم، همها زاد، قلبها انحرق،

قولي الله يكون لهاالنسوان معين ... حبل وميلاد ونفاس ورضاعة وغسيل وقش ومسح وطبيخ ونفيخ ونكد الجوز وهم الاولاد، وهم الشباب المشردين بين الصخر والوعر.

تبنت خليفة رؤيا واقعية تحليلية انتقادية، فأحداث الرواية تدور حول البشر وحيواتهم لذلك يصل الأمر بها الى شتم وطنها لأنها اضطهدت وحوربت بإسم الثوار والثورة في نابلس، ولأن شباب الانتفاضة صاروا يعتبرون التصدي لها من واجباتهم، فقد أصبحت نابلس فضاء للمحتل الاسرائيلي، وفي الوقت نفسه أصبحت الانتفاضة فضاء لتحرير المرأة من وصاية الرجل.

تطرح الرواية كذلك العنف ضد المرأة سواء من قبل الاحتلال أو عنف الرجال في المنزل والعائلة وتتمرد عبر تقديم المرأة الرافضة لتنميط الرجال لها بين أم وأرض فلا تتورع أن تقاوم الاحتلال .. هناك واقع قاسٍ ضد المرأة لكن هناك واقع أقسى وهو الاحتلال.

مباشر وغير مباشر

وهناك العديد من الروايات التي ناقشت موضوع الانتفاضة بشكل مباشر او غير مباشر من بينها «الانتفاضة العشيقة الزوجة» لحبيب هنا (٢٠٠٢) والتي ركزت على فكرة الاختلاف ما بين الانتفاضة والثورة ورصدت ما تركته احداث الانتفاضة من ندوب عميقة في مشاعر الناس وحيواتهم.

ومن الروايات التي اهتمت بالانتفاضة، ولا يمكن بأي حال رصدها جميعاً، رواية «أنشودة فرح» (١٩٩٠) لربحي الشوبكي التي حاولت تحديد العوامل المجتمعية الداخلية التي أدت الى انفجار الانتفاضة حيث شكل المخيم فضاءً أساسياً للرواية.

بدورها، تعاطت رواية «الخروج من القمقم» (١٩٩٢) لعمر حمش مع الاسباب التي افضت الى اندلاع الانتفاضة معتمدة على توثيق واقع الاحداث وسردها في شكل يوميات من المواجهات بين سكان احد المخيمات وجنود الاحتلال .

أما رواية «الكف تناطح المخرز» الصادرة عام ١٩٩٠ لمحمد أيوب فهي تناقش الآثار الجانبية للانتفاضة، مثل تاثيرها على التعليم، حيث الإغلاق المتعمد والمستمر للمدارس والجامعات من الحكم العسكري الإسرائيلي المدعوم أميركياً، مع وصف دقيق لمخيم خانيونس مكاناً مشتعلاً لأحداث الانتفاضة، وهذه الرواية تنبأت بما سيحدث من عملية سلمية نتاجاً سياسياً للانتفاضة.

الرواية الأولى

واختلف المؤرخون حول الرواية الفلسطينية الأولى التي تناولت انتفاضة الحجارة، فهناك من وجد أنها

رواية «زغاريد المقاثي» أو «زغاريد الانتفاضة» في تسمية أخرى، وهي لمحمد وتد من قرية جت في المثلث داخل الخط الأخضر، وصدرت عن منشورات البرق العام ١٩٩٨، وهي رواية في ثلاثة أجزاء، وتدور احداثها في قرية بالضفة الغربية وتروي قصة ابي العبد الذي اغتالته دورية الاحتلال، ونتعرف من خلالها على شخصيات ايجابية كثيرة تنبض بالحياة كابي العبد الذي يعيش خارج الوطن ويتسلح بالفكر الثوري ، وعيوش التي ترى فارس احلامها المنتظر ، وسامح الشاب الواعي الذي يعتقل ويسجن، والشيخ عبد الصبور إمام المسجد الذي يشارك في العمل الانتفاضي والنضالي ومقارعة الاحتلال ، وصبرية ابنته التي تمضي في السجن ١٨ يوماً ، وصابر الذي يقوم بخدمة رجال المقاومة المختبئين في الكهف وغيرهم.

ويرى آخرون أن الأسبقية في هذا المجال هي لرواية «أحمد ومحمود وآخرون» لزكي درويش، والتي «تبدو شديدة **البساطة في عرضها وشخصياتها ومعالجتها أيضا"، لكن المراجع تشير إلى أنها منشورة في العام ١٩٨٩.**

ويحمل كل فصل في الرواية اسم شخصية من شخصياتها، التي تشكل بمجموعها أسرة متوسطة المستوى تعيش في طولكرم .. الأب الفلاح من شدة الحاجة اضطر للعمل في تل أبيب، ويستشهد بعد تمرده على جندي في جيش الاحتلال .. ابنه أحمد، وعقب ذلك يضطر لترك الدراسة، ويعمل حتى يعيل الأسرة، فيما يتابع شقيقاه محمود وديمة دراستهما.

يذهب أحمد إلى بيروت ليعمل، وهناك ينخرط في صفوف المقاومة، فيشارك في العمليات الفدائية، قبل أن يسافر مرة أخرى، وإلى الكويت هذه المرة، وللعمل أيضا.

تبدأ الانتفاضة في الأراضي الفلسطينية المحتلة، وتشارك ديمة (الأخت الصغرى) في مقاومة الاحتلال بالحجارة، لتفقد عينها اليسرى، فيما تقوم سلطات الاحتلال بهدم منزل العائلة بسبب محمود الذي ينخرط في صفوف المقاومين .. تتوفى الأم، ويعود أحمد إلى الوطن، بقرار مستقل من تلقاء نفسه، رغم أن الانتفاضة في عنفوانها.

ويرى فريق ثالث أن حافظ البرغوثي كان السباق لتوثيق الانتفاضة روائياً، في روايته «أحواله وأحوالنا»، لكن السيد نجم لم يحسم الأمر، فقال «لعلها الرواية الأولى في فلسطين التي رصدت الانتفاضة».

الانتفاضة والمعتقل

وصدرت في الثمانينات والتسعينات العديد من الروايات حول أدب السجون والمعتقلات ومنها ما تم ربطه بالانتفاضة، أسرى محررون او أدباء حول الاسر ومن بينها رواية «الشمس في ليل النقب» لهشام عبد الرزاق وتعرضت لتجربة مجموعة من الشبان في سجون الاحتلال الاسرائيلي وتتداخل أحداث السجن مع احداث الانتفاضة في الصفحات الاخيرة من الرواية التي تبدو اشبه بالمذكرات كون ان مؤلفها ممن عانوا تجربة الأسر في سجون الاحتلال.

أما رواية «شمس الارض» لعلي جرادات (١٩٩٨) فقد كتبها وهو معتقل في زنازين الاحتلال وتناولت الانتفاضة الأولى وتفاعل الشعب معها وحالة التكاتف المجتمعية كما صورت همجية الاحتلال في اقتحام البيوت واغتيال شبان الانتفاضة جنبا الى جنب مع تسجيله لعنف السجان والمحقق الاحتلالي مع الاسير الفلسطيني، علاوة على تسجيلها لظروف المطاردة والملاحقة والاعتقال، ومتابعة الاحتلال ومراقبته لاهالي المطاردين وعائلاتهم وهو جزء لا يمكن اغفاله من تاريخ الانتفاضة الأولى.

وفي العام ٢٠٠٢ صدرت لمشهور البطران رواية «وجوه في درب الالام» وتصور في الجزء الأول منها حياة اسير في سجون الاحتلال ومعاناته في التحقيق ومن قابلهم داخل الأسر وكان لهم تأثير في حياته بينما سجل جزؤها الثاني حياة الفلسطينيين ما بين الانتفاضتين، بما تركته الانتفاضة الاولى من اثار اجتماعية وسياسية واقتصادية على الحياة اليومية تحت الاحتلال من خلال شخصية عبد القادر المناضل العاشق.

ولا يمكن في هذا المجال الرحب، تجاوز الكتاب السردي «رمل الأفعى» (سيرة كتسيعوت/ معتقل أنصار٣) للمتوكل طه، والذي يرصد فيه بطريقة روائية مرصعة بلغة شعرية حكاياته ورفاقه في معتقل النقب، خلال بعض من سنيّ الانتفاضة الأولى، وهو الكتاب الذي قال في وصفه الروائي يحيى يخلف: هذا النص الرائع الذي كتبه المتوكل طه نص إبداعي .. هو مقاطع من سيرة ذاتية، أو سرد روائي، أو وثيقة تسجل لتجربة أسرى الحرية في سجون العدو .. إنه عمل يحتوي على المتعة الفنية، واللغة الشعرية، والعمق الإنساني .. عمل يحافظ على التجربة، ويطلق صرخة الحرية.

وأكد يخلف: لا ينتمي هذا الكتاب إلى مصطلح «أدب السجون»، بل ينتمي إلى «أدب المقاومة» .. السمة التي ميزت الأدب الفلسطيني، وأوجدت تياراً له خصوصيته في الأدب العربي المعاصر .. أدب المقاومة هو أدب الإنسان الذي لا يهزم.

المضمون على حساب الفنّيات

ويرى الكاتب والباحث المصري السيد نجم أن الروايات المعبرة عن تجربة الانتفاضة قليلة نسبياً، بينما يعبر د. مصطفى عبد الغني، وهو من مصر أيضاً، عن ذلك بوضوح أكثر، ويلاحظ في ذلك كله أن الروائي لم يصنع بطلا واحدا، على كثرة الأبطال الأسطوريين وغلبة أدوارهم، وإنما تحولت الانتفاضة، في حد ذاتها، إلى حالة «أسطورية» غير عادية، تنسج خيوطها هذه الحركة اليومية المستمرة من نضال آلاف الكوادر والمقاتلين في الأرض المحتلة، أو داخل المعتقلات الإسرائيلية غير الإنسانية، وحالة الحصار التي تفرض على المخيمات بشكل مستمر لإرغامهم على التسليم، أو استخدام الأسلحة المحرمة دوليا، وما أكثرها، للنيل من الأطفال والنساء والشباب الفلسطيني، أو، حتى، بمواجهة أولئك المتعاونين مع القوى الصهيونية ضد حركة المقاومة واستمرارها.

الشاعر والروائي والباحث د. المتوكل طه، وفي حديثه عن «ميزات الثقافة تحت الاحتلال»، يفسر ما ذهب

إليه باحثون ونقاد إلى أن الأدب الفلسطيني الذي رصد «الانتفاضة»، بما في ذلك الرواية، محور بحثنا هنا، اهتم بالمضمون على حساب اللغة والشكل الفني، حيث قال: تميز الخطاب الثقافي الفلسطيني في مناطق ٦٧ بأنه خطاب الضرورة، بمعنى أنه نشأ في ظرف استثنائي، تحت احتلال استثنائي، ما جعل هذا الخطاب منبراً يمور بالتحدي والغضب، غير مبال بالأناقة اللفظية أو الشكلية، قدر اهتمامه بمضمونه وأثره على الجمهور.

وأضاف: وبسبب من الرقابة العسكرية والملاحقة، كان على هذا الخطاب أن يتواطأ مع جمهوره على رموزه ومرجعياته الذوقية والجمالية والسياسية والثقافية، ولهذا، فإن معظم هذا النتاج قد لا يفهم خارج مكانه، بسبب محليته المغرقة، وبسبب رمزيته التي يتعامل بها الجمهور.

وفي حديث خاص بـ»أوراق فلسطينية»، قال د. إبراهيم أبو هشهش، أستاذ اللغة العربية في جامعة بيرزيت: من بين أعظم الروايات في العالم، روايات تحدثت عن حروب وثورات، فرواية «الحرب والسلم» لتولستوي، ربما هي أهم رواية في التاريخ حتى الآن، وتناولت الحرب الروسية الفرنسية، وتحديداً عندما غزا نابليون روسيا .. كذلك روايات هيمنغواي العظيمة كـ»لمن تقرع الأجراس؟»، و»وداعاً للسلاح» أيضاً كانت قد كتبت عن الحرب الأهلية الإسبانية، وهناك عدد كبير جداً من الروايات بمختلف اللغات كتبت عن الحروب والثورات والاستقلال.

ورأى أبو هشهش أن «ادب الانتفاضة» عانى من مشكلتين، الأولى أن الرواية هي أدب الاختمار، بمعنى معايشة الحدث لفترة طويلة، وليست أدب ردّات الفعل السريعة وتسجيل الحدث الساخن .. قد يقوم الشعر الغنائي بهذا الدور، وغالباً لن يكون له أهمية على المستوى الفني بعيد المدى، وبالتالي إحدى مشاكل «أدب الانتفاضة» أنه جاء كردة فعل.

أما الإشكالية الثانية التي رافقت «أدب الانتفاضة»، برأي د. أبو هشهش، هي أنه «حين اندلعت الانتفاضة لم يكن هناك روائيون كبار إلا ما ندر .. كان من أبرز من كتب في تلك الفترة الروائيون: أحمد حرب، وسحر خليفة، وليلى الأطرش، وغريب عسقلاني، واسعد الأسعد، وغيرهم، لكن مشكلة الأدب الفلسطيني في تلك الفترة أنه كان يفتقد لأسماء بارزة في السرد الروائي، خاصة أن أدباء الأرض المحتلة كانوا يعيشون حالة من العزلة عن الوطن العربي، وهي عزلة ثقافية وأدبية وإعلامية، ما جعل الأدب متواضعاً إلى حد ما باستثناء بعض الأسماء، وهذا ما لم يجعل لأدب الانتفاضة قيمة على المدى الطويل».

وختم أبو هشهش: لا أعتقد أن أدب الانتفاضة انتهى عند الروايات التي كتبت في السابق، فقد تظهر بعد عشرين عاماً رواية عظيمة عن انتفاضة العام ١٩٨٧، لكن تسجيل الحدث اليومي مباشرة، وتوثيقه بشكل فوري لا يمكن أن ينتج رواية مهمة فنياً .. المهم في تناولنا للموضوعات، ومنها الثورات والحروب، درجة العمق والجمال والأصالة، وكيفية تحويل المأساة الفلسطينية إلى تراجيديا إنسانية، واستطاع بعض المبدعين

الفلسطينيين فعل ذلك كمحمود درويش، وإميل حبيبي، وغسان كنفاني، وجبرا إبراهيم جبرا، وغيرهم، لكن إذا لم يقم المبدع بتحويل التراجيديا العامة إلى تراجيديا خاصة، ومن ثم تراجيديا للكل الإنساني، يبقى ما ينتجه من أدب محصوراً في واقعه التاريخي المحدود.

المصادر

- السيد نجم، «المقاومة والقص في الأدب الفلسطيني: الانتفاضة نموذجاً»، الصادر عن الاتحاد العام للكتاب والأدباء الفلسطينيين، ٢٠٠٦.
- د. مصطفى عبد الغني، «الاتجاه القومي في الرواية»، الصادر عن سلسلة عالم المعرفة (١٨٨)، عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب/الكويت، ١٩٩٤.
- د. عواد أبو زينة، «أصوات من الحصار: رواية الضفة الغربية وقطاع غزة»، الصادر عن منشورات «إي كتب/ لندن»، ٢٠٠٠.
- د. شكري عزيز ماضي، «الرواية والانتفاضة: نحو أفق أدبي جديد»، الصادر عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر/ بيروت، ٢٠٠٥.
- المتوكل طه، مقدمات الشعر الفلسطيني الحديث والثقافة الوطنية، الصادر عن دار البيرق العربي/ رام الله، ٢٠٠٤.
- المتوكل طه، «رمل الأفعى»، الصادر عن بيت المقدس للنشر والتوزيع/ القدس، ٢٠٠١.
- صديق محمد جوهر، «أنشودة النابالم: مقاربة في أشعار الحرب الأميركية على فيتنام»، دار صفصاف للنشر/ الإمارات العربية المتحدة، ٢٠١٦.
- إبراهيم جوهر والمتوكل طه، الثقافة والانتفاضة (بعد ألف يوم من الانتفاضة: أثر الانتفاضة في الثقافة، وأثر الثقافة في الانتفاضة)، منشورات اتحاد الكتاب الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة.
- د. محمد بكر البوجي، دراسة بعنوان «آفاق الرواية الفلسطينية في فلسطين بعد أوسلو»، مجلة جامعة فيلادلفيا الأردنية، ١٩٩٩.
- شاكر فريد حسن، مقال بعنوان «مدخل لدراسة الرواية الفلسطينية في إسرائيل»، موقع دنيا الوطن، ٢٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠١٢.

رسالة الى ابن بطوطة: سنابل العشق في رسائل الحلم

ليلى مليس*

السنبلة الأولى:

اهديني وردة وارحل ان أردت..

عزيزي الفاضل

اهديني وردة وارحل إن أردت، فقد تعودت رحيل الأحبة لكن لتبقى الوردة سر لقاء لم يكن، بل إنه كان خفيا وليس خفية كما يفعل المحبون، كان خفيا لأني كنت أحس أنك تسمعني وأنك تحصي نبضات قلبي .. حتى الأوقات التي اشتقت فيها إليك كنت أعلم أن شوقي كان يصلك عبر موجات البحر وعبر صفير الرياح، اعلم أن فرحي الحزين بلقاء ضائع كنت تلمسه وتراه، مع كل هبة نسيم مع رسائل المحبين قديما مع الحمام الزاجل مع أصوات الألم التي تلاحقنا مع صوت كل طفل يتيم تربت على كتفه، مع دمعة الثكلى لأني أعلم أن قلبك الكبير يحتوي كل هؤلاء وأعلم أن هم الوطن يشغل وجدانك وأوردتك وأنه يجري فيك مجرى الدم.. فكيف لحب امرأة أن يتسلل سهوا إليك عبر لقاء وقصيدة منسية منذ وقت.. لم تدركها الحياة إلا بك ولك.

قدر المحب أن يكتب الحروف بدمه كي يراها الأخرون، فلا تكثرت لحرفي هذا، اتركه يضيع كما ضاع كل شيء جميل في حاضر مؤلم، تذكر فقط الوردة حتى تشهد على حلم استشهد واغتيل كما نغتال.

اعذرني، فقد نسيت كيف تُكتب الرسائل، كنت أكتفي بجملة أو جملتين، لأني سئمت الكلام، والتجأت الى الصمت.

بت والصمت رفيقين، حتى ذاكرتي أقفلتها لا أريد تسجيل ما يحدث، إلا أنك تسللت كشعاع عنيد، عبر كلمات القمر، إلى صمتي الذي ظننته أبديا، وأخرجت هذه الحروف من قبو منسي، لم ير الشمس منذ أن صرت تائهة بين أقدار وأوهام ووعود كاذبة .

ارحل ولا تنظر الى دموعي فقد تتحول جمرا وقد تغدو وديان حب يشرب منها المحبون كشلال ليلى والمجنون، لا تكن مجنوني فقط اترك وردة وارحل.

القلب الذي وضعته بين يديك سيظل كما هو معلقا بين الحقيقة والخيال، بين ما هو كائن وما نريده أن يكون سيظل يغطي ببياضه سوادا ظل يطاردنا كنورس مجنون تاه عن البحر وضاع مثلنا نحن الغرباء.

غريبان أو زائران غير مرغوب فيهما، عالم ليس لنا..

سأقفل كل الأبواب المؤدية إليك حتى لا تراني وتحن عيناك، حتى لا ينبت هذا الشوك اكثر ويشتعل هذا الجمر اكثر.. هذا الحريق الذي اشتعل دون سابق انذار لأقول نعم للحب ولكنه نار فكيف للحب أن يصنع هذا الدمار .

امض ولا تلتف دعني ألملم ما تبقى مني أهديه قربانا لعشتار علها تسحب لعنتها المعلنة

لا تأبه فكلما اشتد الحنين أكثرت من الصلاة عل رب الكون يرفع هذا البلاء الجميل .

٢

امض يا عزيزي ولا تلتفت، امض ولا تكترث بما يحدث خلفك ولا تكن مثلي كلما أردت الانطلاق أجدني أدور حولي في دوامة، أتلمس خيوطها علني أفك هذا الحصار بمعرفة بداية الحبل من آخره ..

أعدك يا صديقي فور انقطاع الحبل سأحاول اقتفاء أثرك وتحقيق أمنيتك ولو أني أعلم أن ذاك بعيد إلا أني سيزيفية القدر غير أني لم أُغضب الإله فلم أقترف غير طاعة القبيلة، القبيلة التي تحدثت عنها في مقالاتك التي صارت ترافقني، تعلمني تحثني على تكسير القيود ..

أصبح النور يتسلل إلى هذه الذاكرة المتعبة والمليئة بالأتربة وغبار الألم والمعاناة...

لم أعد أتحمل تفاهة هذا العالم ولا عجز عالمنا، سأبني عالما لي بخيوط من الضوء.

٣

هاأنا يا صديقي في القطار ككل صباح أحاول مواكبة الحياة الباريسية أساير القدر رويدا واهرب منه ايضا بين أحضان كتاب.

هاأنا أستمتع برواية «خديجة وسوسن» لرضوى عاشور.. من عادتي اليومية صديقي قبل الخروج إلى العمل المرور بمكتبتي الصغيرة وأخذ أول كتاب تقع عليه عيني حتى يكون رفيقي في رحلتي اليومية.. فقد أهملت اختيار الكتب.

في بعض الأحيان أجد في كتاب أهملته ما لم أجده في آخر اخترته.

وأنا أقرأ هذه الرواية وبطلتها خديجة ذات الضفائر الغليظة التي ذكرتني بأختي ...هاأنا أغوص معها في عالمها .

منذ أن اكتشفت الرواية .. وانا أقرأها ليس بعين الناقد أو القارئ المتيقظ بل بعين القارئ الكسول الذي يستمتع بالأسلوب الأدبي والسرد دون أدنى اهتمام بما قد يشوب هذا المتن من شوائب ونقصان وهنا يحضرني موقف طريف مع صديق عندما أخبرته أن رواية معينة أعجبتني رد علي منزعجا « إنها مليئة بالأخطاء» مما أشعرني بالخجل والإحراج قليلا، تداركت هذا الخجل وأدركت أني كنت أقرأ هذه الرواية بعاطفتي وليس بعقلي وهذا عيبي الأبدي .

استرسلت الأحداث أمامي قبل أن يعم الضجيج ..إنهم إخواني الأفارقة، تذكرت المقولة المعروفة «نحن أمة نتكلم أكثر مما نعمل».

قالت خديجة في الرواية':» سأدرس الجغرافيا وأطوف العالم كالسندباد ..عندما أكبر سأطوف العالم، سأرسم خرائط وصورا للمناطق التي أزورها وسأكتب عن الاشياء الغريبة التي أراها وأحتفظ بكل شيء في صندوق خشبي ضخم شبيه بصندوق عمتي كريمة ..»ص ١٣شدتني هذه العبارات أنا التي أخاف التغيير. ..رغم ذلك ظل السفر يلاحقني لمدة ..السفر لعبة الدهر المرة، بما فيها من ألق الاكتشاف، ومتعة اللقاء، والم ودموع، ربما هذا ما جعلني أكره السفر.

الوداع أو الكلمة القاهرة .

أخذتني الرواية حالمة بخديجة السندباد ..إلا أن خديجة ضاعت في أحلام أخرى، أحلام الأنثى والقدر بين الأمومة والرحيل ..

٤

هذا الحريق الذي بداخلي أعرف أني سأطفئه بدموعي وليس بلمسة يد منك.. سأتناول جرعات هذا الألم في صمت حتى يكمل هذا الحب دورته الأبدية.

ها هي دموعي تسيل وأنا أخجل من نفسي كطفلة فقدت دميتها، كنت أظن أن هذا الألم عابر كأيامنا العابرة لكنه تجذر واستقر.

وأنا أسمع صوتك كل صباح يسري في دمي مثل قهوتي الصباحية كالحلم الذي أراك فيه شاهقا مثل الأمل وجميلا مثل الفرح وحزينا كعمري.

أتمنى أن أراك وأهرب منك، كأني في لعبة مع القدر.

كلما ركبت القطار تزينت بالأمل وتجملت بعطر التفاؤل علني أصادفك على الرصيف، أجري نحوك في لهفة لتصافحني باحترام ويأخذك القطار ويأخذني الطريق لأحلم بلقاء أخر.

صعب علي أن أنساك وصعب علي أن ألقاك فماذا أفعل بهذا الألم..

أأزرعه بساتين شوق ؟ أم سنابل عشق في رسائل الحلم؟

تأتيني كل مساء في ثوب ملاك تقبل جبيني وترحل ليعود طيفك في الصباح يوقظني لأشهد على الرحيل مرة ثانية.

ماذا سأفعل بهذا الفرح؟؟

السنبلة الثانية

ورود كانت لنا

١فرح طفولي، أتوسده كستار أبيض، يشبه كثيرا قطرات الرذاذ، شفاف كأنه الحلم الذي بيننا، نرمم أنقاض الأمل لنسأل النجم عن ورود كانت لنا .

تركت السؤال معلقا هناك حيث كنا عندما رأيت وجهك لأول مرة، تلك العينان الذابلتان وبريق الحزن تلك الملامح الصامتة ملء الكون، ذاك أنت.

لم أعد أكتفي بقهوتي ككل صباح أضفت اليها صورة وحرفا، قد أصنع من أوهامي قصور رمل قد أكون أكابر كي أنسى قد تصير الذكرى رمادا قد ...وقد.

كلما اعتراني الشوق أوهمت نفسي بالسفر، أحمل الحقائب والصور، وأنتظر على بوابة وهم كبير- أستأذن الأقدار بالرحيل، تتساقط ذرات لؤلؤ كالثلج أرتجف وطيفك هنا يدثرني كمعطف صوفي في شتاء الغربة. .

كلما اشتقت إليك نظرت حولي كي تهب كنسيم فردوسي وقت الظهيرة، تمسح عن جبيني غبار السنين وحزن الحروف اليتيمة.

يد وسؤال ...كان البحر يشكو من الظمأ قبل هطول مطر نظراتك .

عبثا أرسم اللقاء و الصحاري تتمدد بيننا حد الألم، هذا الذي عرفناه معا في غربة قاحلة

تأبطت فرحة اللحظة كقارورة عطر فرنسية أرش القطرات على جذور الاحلام الذابلة، أنثر حولها نوتات كلماتك كي يخرج الناي عن عزفه الحزين.

عزيزي الفاضل

تلك الوردة التي لم تصلني هل تاهت بين الدروب أم أصبحت عطرا يلملم شتات هذا الدهر.

تلك الوردة المنسية على باب أول رسالة، هل ذبلت قبل أن تصل أم تأخرت في الولادة...

في أناملك ينمو العشب الأخضر وتزهر أوراق الصنوبر، تراكمت كل أشواقي هناك عند قدميك، تسكعت وارتمت بين أحضان المحال.. هذا البحر الذي أستشرفه كلما هبت رياح الضياع حاملة شراع أحلامي حيث لا مرسى، لا رمال، لا نخلة، لا وادي ولا قافلة تحط رحالها ..فقط أوراق الذكريات تكسو المكان، تتوسط لي وتأنبني أحيانا.

تراكمت الأحزان ..لم يعد في العمر متسع للدمع أو لحرقة أخرى بعد أن خلت كل الورود لنا.

تأبط ما تبقى من الكلام، قلناه أم لم نقله فقد تنثره الأيام على الأرصفة ليغرقنا العشاق بالتمائم وأزهار السحلب التي تحبها.

أي عطر تحب وقد شممت الزهور زهرة، زهرة وعانقت الورود وردة، وردة حتى أشجار السنديان والزيزفون ...أحصيتها راحلا من مكان في القلب الى مكان في الجفون، تطوف هذا العالم برمال صحرائك تتراقص أهازيج الحب والأمان في عتمة كانت فأرسلت أنوارا من جبينك الأصيل.

سأقطف أحزاني ورقة، ورقة وأكتب عليها حروف اسمك ليتناثر هذا الربيع كحبات المطر فيصبح التاريخ له معنى والحلم له معنى والغد في يدي عربونا لورود مختلفة...

٣

اصطنع الغياب كما شئت، ففي غيابك عذاب وأفراح أخرى، أكتبها اليوم على أنقاض الأحزان والهزائم.

فأرسو كما يرسو النغم على أوتار الفؤاد، ليرقص ألما وقد تسامت وريقات التوليب ..كم أعشقها تائهة مثلي غير مبالية لا بالمكان ولا بالزمان فقط تتمدد لتحتل الأركان.

هاأنا أرتمي بين أحضان الانتظار، وما أتعب هذا الانتظار، يشبه تلك الاسئلة المتراكمة، تلك الذابلة في الذاكرة وأحيانا يشبه تلك العواصف التي لا تنتج الامطار..

كم يكفي من الوقت ومن حرقة الدمع وكم يكفي من الرحيل لترسم الطريق خطاها فهاهنا

خطوات تائهة، تائهة مني واخرى مرسومة منك.

أنا وحدي أرتب الحروف كل مساء وأرقب الظل في ظل عالم آخر، كلما اقترب تلاشى كأنه أيامي التي أودعها كلما أشرق فيها حلم جديد..

تلك الرسائل التي تبادلها المحبون قديما، لم تكن إلا بداية ما نحته قلبي على قلوبهم ..

تراكمت السنين والبداية لم تعد واضحة إلا عبر صور ضائعة ..والنهاية أوشكت على احتراف يقينها، هل من الممكن البدء على ضوء خافت في آخر محطة؟؟

عزيزي الغالي:

هذه يدي والقلم الهائج يتوق إلى طوق أو إلى هديل لا يشبه كثيرا صوت الحمام، بل يشبه صوتك الحاضر الغائب، أحرسه بعشب أهدابي وأرسله اليك شعاع نور او حمامة شعر تحط عليك كما سمعتها لأول مرة.

سأكتب أشياء لم أهتد إليها بعد، تحاصرني كشموع تطفئ العتمة وتستدير كتفاحة آدم، لم تكن وجها للغواية بل وثاقا للحياة المنسية في عبثية غودو..

سيدي

«غادة» كانت تحترق حبا و «مي» وأنا لا أ ذكر اسمي، صرت رزمة حب كبير مهداة اليك عبر قدر محتوم أو غير محتوم لست أدري.

هذا الألم المر يطيعني كلما فتحت أبواب الفرح، ليقفلها من جديد، زرعت ورود البعاد فجاءتني عيناك كالفجر تؤرق مضجعي وتنسج من مواجعي معبرا فلا تتعب ما قد انطفأ مني.

السنبلة الثالثة

صديقتك الجاهلية

عزيزي الغالي

أعلم أنك لا تحتاج إلى جسد امرأة، بل إلى دفء لم تره في نهد أو في حلمة، أو قد تحتاج الى أروقة مفقودة في حدائق النعمان...

ولّادة أنهت رقصتها الأولى وسلمت الأشجار كلها، وباقة من الياسمين إلى عروس بحر تناديها

النوارس عند المغيب.. تعب النداء فجاءت الغيمة بزخات من الحزن وقليل من الفرح.. تتظاهر الحدائق بالصمود وهي تزف أعراس الماضي وتسترد من حين لآخر تلك الزغاريد، تسترد عزف زرياب علها ترحم عهر هذا الزمان .

تلك المرأة لم تغادر عروق المحبين، بل عطفت عليهم كأم تدس القبل في جيوب الأيتام.

قالت وفي قلبها شغف ومس من عاشق مجنون:

أنا والله أصلح للمعالي

وأمشي مشيتي وأتيه تيها

أمكن عاشقي من صحن خدي

وأعطي قبلتي من يشتهيها

ثم قالت بعدها:

إني وان نظر الأنام لبهجتي

كظباء مكة صيدهن حرام

يحسبن من لين الكلام فواحشا

ويصدهن عن الخنا الإسلام

تلك غرناطة وقرطبة تفتحان أبوابهما، لحجز مقعد على رفوف البؤساء، لفظتهم المدائن والمقابر وأشجار السفانا.. ليتراكموا رزما كالدمع ..

عزيزي الغالي

كما تلوح الأزهار في الربى البعيدة، كما تلمع النجوم في سماء الحلم الجميل، كما يظل النخيل شامخا في واحات المآسي العديدة، تظهر كالماء، ذاك النهر الذي يتسلل بين شجيرات الفؤاد كالروح، ذاك الشعاع الذي يعبر نافذتي كل صباح، ذلك الأمل المتجدد كرائحة الكبرياء والشموخ، ذلك الصوت العذب الرقراق كأحلام الصبايا، ذلك الورد المنثور على أجياد العذارى، ذلك البريق الذي يسكن عيون العشاق، تلك الرسائل التي تأتي كل يوم بقصيدة وماء وورد، تلك التراتيل التي نرددها عند كل صلاة لنسبح بعيدا في فضاء صوفي، ذلك الألق الذي يسكن وجهك، ذلك الطرب المتجدد في القلب كالنبض ..تلك الأوراق المتناثرة على الطاولة لكتابة هذه الحروف وذاك الفنجان الذي يحترق انتظارا.

عزيزي

عندما تبلل قطرات المطر ذاكرتي، أسترجع ذكرياتنا الماضية عندما كنا حبيبين، لازلت أذكر لقاءنا الأول.. كانت صديقتي الشاعرة قد أرسلتني إليك وهي مسافرة من المنفى إلى المنفى قالت يوما ونحن جالستان على رصيف نهر «السين» الذي لم تتح لي فرصة سؤالك عن اسمه القديم..

«أعرفه قديما كان لي مناصرا، وأنا الآن مسافرة، فهل في خدمتي أنت راغبة»

قلت « عيني لك وأنت في الفؤاد جاثمة، فلن أقول لا ولو بي علة قاتلة»

حملت الرسالة وتوجهت إليك لم أكن أعرفك، جلست بين الحضور أنتظر الكلمة في هذا السوق العكاظي البارسي.

جاءت المحاضرة كالماء العذب، تغطي عورات نساء هذا الزمان ..

وجارك الذي أعرفه جيدا يغازل امرأة زارته حينها في المنام ودست في أ ذنه همسا وراح شمالا ويمينا مترنما بالعشق، فعدد أسماء العشق كما عددها ابن حزم في طوق الحمامة، حاول أن يعرج بك إلى لغة قريش، أنت المتمسك بلغة الإفرنج..

كنت أسمع باهتمام أحاول تفسير الغياب الذي يعتريك وعيناك تقرأ كل ما كتب في عصرنا الجاهلي وما تلاه من عصور، تعدد الأسماء والإحالات تحاول لملمة شتات صديقك العاشق..

كان جارك العاشق قد أدمن حب النساء ليكتب أشعارا لن تبلى، فكان للقاء موعد أخر، يحاصر الأشواق والحب والربيع والماء..

كانت القصائد تتسابق وتنهار كشلال طال به الانتظار، حبيبتك الجاهلية حضرت لتقول كلاما أتعب الأنثى والعصور والمدى..

كم دام اللقاء؟؟ بضع وريقات، بضع كلمات، بضع حروف، تشابكت الأحلام وأصبحت أشجارا تكبر في الخفاء، خفاء لم أعرفه.

جئتك ثانية وأنا أعرفهما زاراني يوما وكنت أنت الغريب عني بينهما، تعرفهما أكثر مني .. بينكم صداقات ومواثيق وعهود ..جئت تنقل رسالتهما إلى أحفاد تسكعوا وتشردوا وتقاربوا على مبدأ الشك واليقين..

رأيت في عينيك شعاع نور عجيب، دافئ كأنه المناجاة ..ارتجفت يدك اليمنى.. ذبذبات ورسائل صامتة عبرت كل الحاضرين لتصلني بك عبر سلام لم أكن أعلم أني استحقه .

بين يدي الآن كتاب «ليلى الاخُيلية» وعلى الطرف الآخر من الطاولة كتاب» جميل بثينة» لا أدري لم أعود وأستدعي هؤلاء!! ربما لأرى الوجه الجميل لهذا العالم أو ربما لأني منذ أن عرفت هذه الليلى وأنا أشعر أن بيننا خيط رفيع ممتد عبر العقود يقول د عمر الطباع متحدثا عن المحبين « التقى هؤلاء جميعا في محنة العلاقة الصعبة، داخل أطر التقاليد الصارمة وأعراف الحياة القبلية الوطيدة، وما أضفت عليها آداب الإسلام من ضوابط خلقية حادة...حتى بات هدر دماء العشاق المتيمين حدثا مألوفا في بوادي نجد..» هل هناك وجه جميل حقا لهذا العالم؟؟

أصبحت وأنا على الضفة الثانية من العمر، أرتق الحروف رتقا لأنسج قبة من الحرير يأوي اليها المحبون عند الظمأ، أو لربما صارت حروفي حقول الياسمين ينسجون منها العقود و الأساور.

السنبلة الرابعة

صديقتك البارسية

عزيزي

تاهت بي أقدامي هذه الظهيرة لأتوه قليلا على ضفتي نهر السين، لم يكن لخطواتي هدف معين، تركتها تهيم كما يهيم حراس هذا النهر من العشاق و السياح والمتشردين والمتسكعين ..يكون التسكع أحيانا نافذة لنكتشف مع شكسبير أن هذا العالم أشبه بمسرح: تتعدد الشخصيات وتتعدد الأدوار.

سألت نفسي كم من دور تقمصت؟ وفي أيّهم نجحت؟

هل يجب الاقتصار على دور واحد لنتقنه؟ أم علينا بالتعدد والاختلاف لنكتشف هذا العالم أكثر؟

بدأت الأسئلة تتراكم وأنا أحصي خطواتي هذه المرة، في اتجاه اللا مكان، لازالت خطواتي رغم الأسئلة سجينة الكتاب الذي بين يدي: «جوستاف فلوبير» .

ربما زرته قريبا...لأسأله عن «إليزا» «حبيبته الأولى، حبيبته الوحيدة» كما نادها في رسائله الأخيرة ربما سألته أيضا عن المجتمع الباريسي أنذاك ..قد أسأله عن روايته التي لم تر النور، ربما استعرت منه فقط ما قال في حق «فيكتور هيجو» لأهديه إليك..» لقد استمتعت برؤيته عن قرب ..وحدقت فيه مشدوها، كما أحدق في إناء مملوء بملايين الجواهر الكريمة، متأملا كل صغيرة وكبيرة تصدر عن هذا الرجل ..مدققا النظر في يده اليمنى التي كتبت كل تلك الروائع الجميلة، قائلا في نفسي :هذا هو الرجل الذي جعل قلبي ينبض أشد نبض عرفته منذ ولدت، والذي أحببته أكثر من جميع من لم أعرف»

كم هي جائرة قهوتي هذا الصباح لم تعد تعرفني، كانت تؤنسني في لحظات وحدتي أو حين تتقاذفني المحطات.. أبحث عني كلما استرحت بين قطار وقطار.

قطار آخر يمر وانا واقفة أحمل كتاب» تنبأ أيها الأعمى» لأدونيس ..أتأمل بعض المعاني وبين الفينة والفينة أصحو من شرودي، أرشف قهوتي الباردة، أنظر إلى الأفق البعيد، طائرة تحلق في اتجاه ما، أطفال يصرخون، يقفزون، يلعبون.. وطفل أخر في بلد آخر صرخ صرخة أخرى فاحتضر.

لم أفتح نافذتي ككل صباح لأطل على عالم يقدس الجرح، يسبح في يم من الدمار، أرى بقايا أحلام متناثرة، بقايا أشعار مبعثرة تلملم يد الشهيد ليصير نجمة في جبين طفل، يبحث عن لعبته الضائعة وسط شقائق النعمان.

يصرخ الطفل لتنزف الجراح يصرخ كل صباح..

في بلدنا الآخر تتراكم الخيبات.. أتوسد حروفي المرهقة كالموج المترامي بيننا،

أو كأنين الناي.

توهمني يداك أننا من هنا، فهنا ليس لنا ولا هناك يشبهنا..

عيناك تشبه كأس عشق متمرد فمد يديك هذي يدي تنزف من الإنتظار أيا من تسكنني حد الدمار.

هذه المرة وأنا أستبدل قهوتي المعتادة بفنجان الشوكلاطة ..خرجت من بوابة المتاعب والوعود الكاذبة لأجلس مع نفسي في مكان لا يشبهني ..شباب يرقص أمامي لوحات وقصائد متنقلة، جميل هذا الرقص يذكرني بأيام البلدة الصغيرة التي أفتقدها ويقلقني أني خنتها في لحظة غفلة، يذكرني بأعراس الجيران البسيطة .

كلما دعيت إلى عرس كلما كانت السعادة كبيرة، أصحب فتيات الحي نتبادل الملابس التقليدية الجميلة حتى نظهر بمظهر جميل وحتى نتنافس على قلوب الشبان، لم يكن الرقص هوايتي ونادرا ما أرقص ولا حتى ترديد أهازيج الأعراس.

كنت أعشق الغناء العربي الكلاسيكي وأردده عند انتهاء الحصة الدراسية عندما يطلب مني أستاذي ذلك.

ثلاثون سنة مرت، سافرت ذاكرتي بعيدا كنت أجلس هناك في عمر الزهور وكم من زهور ذبلت هناك وأنا هنا أرنو إلى زهور تفتحت وغنت ورقصت على أنغام موسيقى لاأدري ما اسمها..

ماذا حدث!! هل بدأت أدرك أنه لم يعد هناك متسع من العمر للإنحناء؟ موعدي مع شاعرة تحول إلى موعد مع الرقص والغناء، هذه أنت يا باريس لم اكن أعرف عنك أكثر من «أحدب نوتردام» كلما سمعت اسمك كلما بدوت لي بعيدة مثل الضباب، ضباب يحمل اسم حبيبي، ينبئني بما لم تنبئني به العرافات يوم قرأن في كفي النبوءات ..

سلاما وشوقا إلى من أهوى

إليه الدموع تسافر

فلا

بلادي، بلادي

ولا نجم عمري روى

غيبا

وما طوته الدفاتر

أرتب أوراق عمر مضى

وأختار ما كان حلما

وما قد

يكون الندى

تسير معي

كظلي

فيا طيف حب هناك

ترى هل تغادر

إ ذا ما دعاك الرحيل

كسرب حمام مهاجر

كليل، كموج كجرح

لتبكي المحابر

ظلال وطيف وأمضي

أغازل صمتي...

أكابر

تراني أحبك نجم التلال

وزهر الرمال

لعلي أراك كروما

ربيع الخمائل..

تدفق ملء جروحي

ففي الحب ألف حكاية

آلاف الجواهر

أخاف عليك خيال

امرأة

تغازل حرف الهوى

ولا تعترف

بفك الضفائر

فأنت الأمير

وأنت النخيل

وقلبي صحاري عذاب

ومرسى لمن يحتضر

٢٠١٧

ل.م

إسماعيل أنا

رشدي الماضي

لكِ
أن تمرّي
على
هيئة البئر
***
قالت:
لا ماء الآن في المطر
***
سأسعى
بلا اسم
وأدرج
في هبّة الرّيح
في سفر طافح بعذريّة الشِّتاء
لأترك إسماعيل
يشهد يوسف
بلا قميص يبحث
عن غِفّة في ثقوب البكارة

***

يوغل وحيدا

في شوارع إرم وهي نائمة

على عرش وسحاب

***

يرحلُ

صوبَ طفولتِهِ البعيدة

وهي تُضيءُ حلما باذخا بالسَّراب

ليسألَ:

هل بقي في التَّأويل حروف لأحد

وهذا اليوم يأتي ويذهب

بلا أمس، بلا غد؟!!!

***

يوسف!!!

لا تُقِمْ فوق خاصرة يأس الحمامة

***

أنتَ البابُ والمدينة

***

لا تُقِمْ في ظلمة المسافة

أنتَ الحقيبة والمحطّة والقطار

***

اسماعيل أنا

واُحبّ قطارك السَّريع

يدهَس حلمي

يستعجل عودتي

قبل أن تذهب الأشياء
الى الخلف
وأنا أنظر من النَّافذة
***
إسماعيل أنا
وقد انجررتُ وراء القطار
كنهر فضفاضة ثيابه
***
لم يَعُد تأويلي مرفوعا للاله على طبق
فلا تدفعني
الى السّقوط في صدوع الخارطة
والعُمر قصير
***
إن عاد... دم الذِّئب
يسهر حولي
ولا يلتمس العُذْر كي يغادر
لن
أترك البئر
ولو على أجراس فاطمة
كي أمشي
تُشَيِّعني الحروفُ الصُّفْرْ
الى التّراب
والبيت الصّغير...

قصة قصيرة

ولا ينقصنا إلاَّ رؤياك!

أميمة عز الدين

كتبتْ هذه الجملةِ في أوَّلِ الخطابِ، وتلفَّتتْ حواليها لتبحثَ عن بطانيةٍ إضافيَّةٍ تلفُّ بها جسدَها الهزيلَ؛ فلم تجدْ سِوى ملاءةٍ قديمةٍ مهترئةٍ باهتةٍ، تكلفتتْ بها مثل امرأةٍ هنديَّةٍ مخلصةٍ لساريها الأثيرِ، وعادتْ للكتابةِ:

ولا ينقصنا إلا رؤياك!

تشتهي كوبًا من الشَّاي الثَّقيل بالنِّعناعِ الأخضرِ حتَّى يدفئَ أوصَالها، لم تبالِ كثيرًا، لمَّا فرغتْ عبوةِ الشَّاي، وقامت بغلي أوراقِ النِّعناعِ بدونِ سُكَّرٍ، وألقت نظرةً على صغيرِها النَّائمِ في وداعةٍ، بعد أن التهمَ طبقَ الفولِ بمفردِهِ بينما هيَ استعانتْ ببعضِ البلحِ المُتبقِّي من زكاةِ رمضان.

ولا ينقصنا إلاَّ رؤياك!

مرتبكةٌ هيَ كثيرًا

صفحةُ الخطابِ تبدومثل صحراء جليديَّةٍ شاسعةٍ، تُلملمُ أطرافَ الخطابِ، وتتنهَّدُ بحنينٍ غامضٍ إليه، ربَّما تشتهيه في هذه اللحظةِ فقط ،ليست شهوة مبتذلة - لا سمحَ الله- وإنَّما ونس في ليلة باردةٍ، ربَّما يقتربانِ من بعضِهما البعض؛ فهوسكنٌ لها وهيَ سكنٌ له، وجعل الله بينهما حبلاً من المودَّةِ، لا غبارَ إذن من هذه الشَّهوةِ المفاجئةِ التي هدَّت حيلها وهي ترمقُ صغيرَها، تُهرعُ إليه تحتضنُه ودموعُها تسقطُ على وجهِهِ وهومازالَ نائمًا، لن تكتبَ له بعدَ الآن، تركت الصَّفحةَ خاليةً، وفي الهامشِ كتبتْ:

المِسكُ الذي يضوعُ من جنباتِ النَّصِّ ثرثرة ليليَّة جائعةٌ..

في المساءِ وحيدة، الأرقُ لا يتركُها هانئةً، بينما هوما إن يحطُّ جنبه على السّرير النَّاشفِ (كار المعمار يُساعده على ذلك)، حتَّى يسقط في بئر النَّوم، أصختْ السَّمعَ لأصواتٍ ولغطٍ تحتَ شبَّاكها الواطئِ، بالكاد ميَّزتْ صوتَ صاحبِ البيتِ وهويتحدَّثُ مع جارِهِ عن حالِ النِّسوة اللائي يتسلَّلن بالليل لقضاءِ حوائجهنَّ وأزواجهنَّ في غيابٍ من طللِ الوقتِ، ويُعلنُها صراحةً أنَّه لا يأمنُ جانبَ امرأةٍ تتركُ نورَ غرفةِ نومها مضاءً للواحدةِ صباحًا، أطفأت النُّورَ ولاذتْ بابنها، رغمَ خوفِها من الظَّلامِ وعادتْ لخطابها في ثقة:

ولا ينقصنا إلا رؤياك

أمَّا بعدُ

أنتظرُكَ كلَّ عامٍ ولا تأتي يا زوجي العزيز، كيف أُخبرُكَ عن حالي وأنت لا تراني كلَّ يوم، أخشى أن يمزِّقكَ الشَّوقُ أويسطوعلى الحُلمِ؛ فأعدومذهولةً؛ امرأة بشَعرٍ ثائرٍ وقلب مُشتعلٍ، هذا العام سيكونُ علي تقديمِ أوراق ابننا للمدرسةِ وأحتاجُ منك خمسمائة جنيهٍ وبعضَ حنينٍ..

وانتظرتْ خطابَه بشِقِّ الأنفسِ؛ لكنَّه لم يُجبْها ومرَّ أسبوعٌ كاملٌ وهيَ تقتاتُ على خبزٍ مبلولٍ بماء الفولِ وتخصُّ ابنها ببواقي الدَّجاجِ من دُكَّانة فضل الله الذي نصحَها أن تنزلَ للشُّغل وتساعده في تنظيفِ الدَّجاج مقابل عشرة جنيهات يوميَّة، لم تقتنعْ بحلاوةِ حديثِهِ لمَّا اشتمَّتْ رائحةَ الرَّغبةِ في كلامِه، وعاودتْ كتابةَ خطابٍ آخرٍ لزوجِها، وافتتحتْه بعِتابٍ رقيق، ثم تركتْ دموعَها تنسابُ عليه.

وقالتْ له: إن لم تتعرَّفْ على مِلحِ دموعي وتذوقه فلا تعُدْ إلى داري وأرسلْ ورقتي في خطابٍ مُسجَّل بعِلمِ الوصول.

طرقَ البابَ ساعي البريد، تشعرُ بنبضاتِ قلبها، تضعُ يدَها على صدرِها وكأنَّها تُهدِّئه، أطلَّ عم فتحي برأسِهِ الصَّلعاء ومعه خطابُها المُنتظَر، يمدُّ يدَه لأخذِ الحلاوة؛ فتهبه خمسةَ جنيهاتٍ؛ يتأمَّلها في فرحٍ، ويدعولها بالستر، وضعتْ الخطابَ أعلى رفِّ المكتبةِ، وآثرتْ أن تتزيَّنَ وتضعُ عطرَه المُفضَّلَ وتطمئنَّ على ابنها، وهويلهومع أبناءِ الجيران، تتنهَّد في ارتياح وتُمسكُ الخطابَ، تتشمَّمه مثل حيوانٍ جائعٍ، وتضمُّه إلى صدرِها، تفتحه على مهلٍ، الخطابُ يبدوثقيلا، يزدادُ فرحُها أكثر، بأطرافٍ مُرتعشةٍ تفضُّه ، ورقةٌ ثقيلةٌ تسقطُ منه وعليها أختامُ سفارةِ مصرَ بالبلدِ الخليجي الذي يعمل فيه، أختامٌ كثيرةٌ موثَّقةٌ تُغطي الورقةَ، بالكادِ تقرأ الحروفَ:

ورقة طلاق

كان من المفروضِ أن تكونَ تلك نهاية القصَّةِ؛ نهاية دراميَّة مُفجعة تُوافق توقُّعات القارئ الذي

ينتظرُ أن تبكي البطلة، ويُشاركُها البكاءَ(ولوبينه وبين نفسِه)، ويتمنَّى في قرارةِ نفسِه الأمَّارةِ بالسُّوء لوأنَّه انتزعَها من براثنِ النَّصِّ واحتضنَها وعوَّضَها عن سنواتِ الحرمانِ؛ التي عاشتها مع زوجها قاسي القلب (عامل المعمار: الفواعلي) الذي لا يُقدِّرُ قيمةَ زوجة مُحبَّة مُخلصة لم ترتحْ لرائحةِ الرَّغبةِ التي تفوحُ من رجالِ الحارةِ؛ الذين يتوددونَ إليها في الرايحة والجاية، وربَّما يعصرونَ على أنفسِهم ليمونةً دبلانةً ويشترون لابنها ثقيل الظِّلِّ كأبيه، باكومن بسكويت الشَّاي الرَّخيص، كلُّ هذا لا يهمُّ؛ فهيَ ما زالتْ حبيسةَ النَّصِّ، النِّهايةُ لم تعطِهَا فرصةً للتَّحرُّكِ من ذلكَ القالبِ الجامدِ المُسمَّى (نصًّا)..

لم تكنْ مُصادفةً محمودةً أنَّ مرَّ شاعرٌ بجوارِ النَّصِّ، وتوقَّفَ عنده، وأمعنَ النَّظرَ فيه، يقلبه يمينًا وشمالاً، يتجوَّلُ فيه علَّه يقتصّ من ذلك الفواعلي الذي أهانَ امرأةً تُجرجر وراءَها طفلاً يُشبهه، لم يجد المرأةَ ولا طفلَها، يقبعُ طليقُها مُتسيِّدًا النَّصَّ وحدَه، وقد بصقَ عليه القُرَّاءُ واحتقرتْه العامَّةُ، وتسللتْ الشَّفقةُ ومصمصَ البعضُ الشِّفاه، وقف الشَّاعرُ أمامَه ولم يجدْ غير شطرِ بيتِ شعرٍ:

كانت امرأتُك التي تتمُّ بها مسرَّتك..

لم يقنعْ الشَّاعرُ بشطرِ البيتِ، وفي نشوةٍ أنشدَ قائلاً في زهوٍ، يخاتلُ النَّصَّ الذي يبصُّ عليه من علياء:

هذا الفراغُ السَّابحُ بيني وبينك

لن أنبئك عن تأويلِهِ بعدَ الآنَ

فالحربُ على الأبوابِ وجيوشُ قيصرٍ جديدٍ

ترتجُّ لها الأبوابُ، والفقراءُ يختبئون بحاناتِ الثَّرثرة

يحلمونَ ويحلمونَ ويتكلَّمون

وأنا مازلتُ مع قيثارتي، صعلوكًا فتيًّا

أبيعُ قصائدي بدراهمَ معدوداتٍ

لكنَّ المرأةَ فاجأته قائلة في حزنٍ، ونبلٍ شديدٍ:

على ورق الجوافةِ نقشتُ اسمَك قلوباً ومربَّعات، وغليتها بماءِ الورد وقطَّرته ولا ندى نازل من السَّما وقت الصَّباح الفتَّاح، ودعيت رب العالمين يستر طريقك، ويجنِّبك شرّ السِّباع والحواة وجنس النِّسا، لجل ما ترجع لي سالم غانم، وسمعت كلام شيخ الجامع، وكان لبدني نصيب من الوضوء، وصليت ودمَّعت وأنا أحسبك شقيق الرُّوح، عمومًا شيخ الجامع أفتى أنه ممكن تردني لعصمتك

في مدَّة معلومة، وعزَّة نفسِي تمنعني أطلبها منك، كفاية تعرف أن مخدَّتي كلَّ ليلة بتسقي بكا من عينيا .

فتنة الوجع

مازال الشَّاعر يحومُ حولَ النَّصِّ مثل مجرمٍ غير محترفٍ، ينتظر ظهور المرأة وحيدة بدون طفلها، نزوته الأخيرةُ حطَّت عند عتباتِها، يريد أن يسألها عن وجعِها؛ ليشاركَها، علَّه يحظى بإلهام جديدٍ وزخَّاتٍ إبداعيَّةٍ جديدة، مازال ينتظرُ عند حدودِ النَّص، ما أزعجه هوالظُّهورُ المفاجئُ لطليقها؛ الذي يبدومن هيئتِهِ أنَّه ربَّما يفكِّرُ في مراجعتِها وردِّها لعصمتِهِ!

شهادة

ياسر عرفات؛ الختيار في حصاره ..

المتوكل طه

ظَلّ الرجلُ القائد الرمز الختيار.. محتفِظاً بصبا الغابات وصيرورة الموج الحلو، من الجبال إلى الموانئ، حتى السّجْدة اليانعة على الرمل الموعود بالعشب والنشيد والحَجر .

يبدو عادياً، لأنه البعيد الرائق، الذي يمدّ الينابيع في ظهيرة الظمأ.. ليمرع نايُ الأعراس، في أماسي البلاد . تراه راسخاً، لأنه سيف المتراس، يفهق بين الجمرة والجرح، ويظل قنطرة للصغار والدوالي.

غصن يديه سلّم النجمة العاشقة، وصوته ممحاة العتمة الثقيلة، وبصيرته تتجاوز الغابة السائرة إلى القلعة.

خجله لوزة الجبل. فيه نسغ الرحمة والأعياد. تسمع خرير وجيبه كلما سقط شهاب، أو عثرت فرس عند سواتر النار. فيه تواضع السلالة المستحيلة، وعفو اليمامة المستوحشة.

دمعته زهرة ليمون، وابتسامته ثوب النهر . هو عاهل العاصفة، وغارس أغصان القَسَم . يتفتح في ليل الزنجبيل، ويعلو على رغوة الكلام . لا تهزّه الحوادث، ويمسك بإصبعيه غُرّة الأرض.. ولن يتركها حتى الساهرة، أو فليأت أمْرُها ليلاً أو نهاراً. ثالث اثنين، الفاروق وصلاح الدين . محمول على باشق الحق. يكره الرمل وأشباه الصُّوَر. ولا يسمع إلا مساجلة النجوم . تجاوز السؤال فأصبح ضلعا في كل بيت . يليق بنا ونليق به في المواسم الصعبة .. ونبقى نُحبّه!

*

زعيماً وأباً بالفعل والمجاز، وعطاءً وتسامحاً، حتى أعجز معارضيه، وجمع المتجاذبين على اختلاف ألسنتهم ووجوههم. لم يتعالَم ولم يُكَمّم السادر في غيّه أو غضبه، يُعطي المعادلة موازنتها حتى تتمّ،

مثلما يقبّل يد الجريح وجبين الثاكل أو يحمل الصغار في حِجْره كأنهم أكثر من صُلْبه. ولأنه يصنع التاريخ ولم يكن غباراً على صفحاته، عرف جيداً أهمية الثقافة، بمعناها الاجتماعي، والتي منحها كلَّ أرض العفو، وحرية فطريّة جعلتها تتنفّس بعمق على رغم أنهم أدرجوها في قاع الأجندة، وكانت، في أفضل حالاتها، أكسسواراً للدولة!

في أبي عمار جناح الملاك الخالص، وفي جيبه دفاتر السوق، ما جعله يسير على صخر الهواء، وينجو من فخاخ الأقربين وطعنات الأسمنت والحاملات، وما تزال الراية في يده يحقق من خلالها تجميع الشظايا لتكون ترساً صلباً في وجه الدفن والإلغاء، فأصبح خارقاً في قدرته على قدْح هذا البرق في يباب الشتات، وإنزال غيماته في حريق البلاد الواسع، لقد صاغ أسطورته الملموسة الماسية من نثار الاحتمال فوق البشري، والإدراك المستشرِف والقلب الشجاع الواسع.. لقد كان جريئاً كالموسيقى!

ياسر عرفات؛ الوالد القائد الصديق الذي راوغ الموت ونوازله في كل المنازل، بذل لنا يديه اللتين ترفعان سقف دارنا من القدس إلى العودة، دون أن تخبو جمرة الحلم في المدارك الطالعة وأناشيد المدارس.. لكن أعداءه منا سيلاحقونه ليدلحوا السواد على يديه البيضاء من غير سوء، وسيبحثون عن قدٍّ في قميصه الشريف، وسيغرزون على شفتيه ذبولهم المريب.

وقوّة الرجل من ضعف شركائه أو لغيابهم العميق، وثغرة سلطانه في بطانته البرمكيّة، وفي المسؤولين الذين اشتطّوا في تبنّي مقولات النقيض، ما جعلها ثقلاً جديداً ينوء به الظَهْر الفلسطيني.

وقوة ياسر عرفات الزائدة، هي التي غطّت على المؤسسة برمّتها، فكانت أكثر حضوراً وسطوعاً، وهذا ما يفسّر الكثير من التعويم والنتوءات والفوضى، كما يفسر هشاشة المحيطين به وضآلة تأثيرهم، وذهابهم نحو الخلاص الشخصي، بدل البحث عن صيغة عمل مؤسَّس على المؤسسة والقانون، لقد كانوا أنانيين أو هامشيين، وكانت قوته تشبه ضعفهم إلى حدّ كبير.

أما أعداؤه فقد خافوا مكْرَه ونفاذ بصيرته فحاصروه كما حاصروه من قَبْل، إلى أنْ ضرب بقبضته على بوابات القدس التي لا تبعد سوى نبضةٍ عن «المقاطعة» التي حاصرهم هم، أيضاً، منها، وشلّ كل خيوطهم، وعمل على تقطيعها والحيلولة دون اكتمال النسيج، الذي كان يستهدف جَدْل حبل المشنقة له أو لفلسطين، لا فرق!

وعبقرية ياسر عرفات؛ كبش فلسطين المُكحّل، أراها في تمكّنه من غرس بذرة الدولة في أرض الدولة، على رغم وجاهة الرأي الآخر.. لكنها بذرة لن تموت، وستشرب الكثير من دمنا، على ما يبدو، حتى تمرع وتكبر.. وتظلّلنا! وبالتأكيد لن يتم ذلك تحت شعارات القُطْرية المنتحرة، أو الانغماس في بحر الأعداء مهما بدا صافياً وناعماً، فالقوي لا يناقش، بل يفرض ولمصلحته! والحوار يكون بين الأنداد،

وليس بين السادة والعبيد، أو الضحية وجلاّدها، والشمس لن تغطّيها شمس أميركا ودولة الاحتلال.

وياسر عرفات الذي أظهره أعداؤه عقبةً كأداء، بعد أن فرضوا علينا «الحلّ» و«البديل»، وبعد أن شوّهوا بديلنا الوطني، وعملوا على القضاء المبرم عليه، وبعد أن أقنعوا الكثيرين بأن احتجاجنا سيبهظنا أكثر، لنكون ضحايا إيجابيين! سيواصلون إقناعنا بأن نخيط أكفاننا بأيدينا، وأن نبدّل قاموسنا وروحنا وشكلنا، وأن نقطع استطالاتنا لنليق بما فصّلوه لنا من أثواب التابوت، وربما سيجدون، من بيننا، مَنْ يتماهى معهم، ويكون مجلساً يحكم بمشيئتهم التي لا تصادر ثرواتنا، بل ومستقبلنا أيضاً، بعد أن رتّبوا الإقليم المحيط، وأطبقوا على عنق الأرض، وسينسون، كالعادة، أن شعب الجبّارين الذي أصّله «الختيار» قد أنبت هذا الرجل الذي تناسخت منه المدن والقرى والنجوع والسقائف.

وسنرمي قمصان شهدائنا على وجه النهار، ونستذكر في بيوتاتنا وصفوفنا رجلاً يُعطي عمره، غير منقوص، لهذه الثاكل الحامل فلسطين، وعندها؛ لا بأس من المبالغة المحتملة بأن نقول: لنا صديقٌ مرنٌ، وحميمٌ إلى حدّ القشعريرة أو شدّة القرب.. من دون حجاب، وأن اسمه ياسر عرفات.

*

هذا الرجل تختلف الآراء بشأنه، لكنّنا لا نختلف معه على مواقفه التي يصرّ عليها، والداعية إلى أن يتمكّن الشعب الفلسطيني من نيْل حقوقه وإقامة دولته المستقلة وعاصمتها القدس الشريف.

«ختيار» تجرّأ وبلغ بضعاً وسبعين عاماً من عمره، له حضور رنّان، وعينان تخترقان الستائر والغبار. متواضع إلى حدّ العاديّة، ومَرِن إلى درجة الليونة، لكنه لا ينكسر ولا تندّ عنه نقطة ماء إلا بإذنه وكامل رغبته. أمضى عمره مناضلاً في سبيل قضية شعبه، ما جعله رمزاً لنضال هذا الشعب ولمسيرته الصاخبة الدامية. وعلى هذا – على الأقل – وحده يستحق التقدير والاحترام، مهما اختلفت معه أو تباينت بينكما الرؤى والمواقف والتقديرات.

يؤمن بشعبه، وباللحظة المكثفة التي يراها وضوح الشمس، وهي انتصاره الأكيد. ليست له أنياب السلطان الحاكم أو مخالب الدمويين، يقبل الرأي الآخر، ويتّسع للنقد وإشارات الضيق والغضب.

في كثير من الأحيان لا تفهمه، ويبدو غامضاً، على وضوحه، خصوصاً فيما يتعلق ببعض الشخصيات، غير المرغوب فيها جماهيرياً، والتي تُعتبر قريبة منه (يبدو أن الأشجار بحاجة دائماً، إلى السّماد .. لتكبر!) لأنه ببساطة، غير مضطر لهذه العلاقة النافرة! يُعطي دون حساب، وقلّما يحاسب. يدخل الوحول، لكنه، يظل نظيفاً، ولا يخفض عينيه، بل يبقيهما معلّقتين في السماء. يحبّ بوضوح الأطفالَ والشعراءَ، ويثق بقدرات المرأة ويقدّمها في مجالسه على الرجال. يبدو لي خجولاً وأقرب إلى التمثال اللحمي الذي لا تظهر عليه ملامح التعب أو الأحمال أو الكوارث التي تحيط به من كل جانب. فيه

حياد البروفيل الجاهز، لكنّ علائم الغضب تبرز كل خليّة في وجهه ويديه، وعندها ينبغي الصمت!

لم نكتشف، بعد، أهمية هذا الرجل، ودوره الحيوي، ومعنى وجوده بيننا بالفعل، إن الألفة تولّد الاستهتار. أظنّ أن هذا الرجل لا ينام، كما ننام! ليس خوفاً فهو جسور ومشهود له بالشجاعة وثبات قلبه، لكن إنساناً يحمل على كتفيه قضية فلسطين ومقدساتها وشعبها وما يتعرض له، لا يمكن له أن ينعم بحلم خفيف أو بنوم عميق، وهذا يفسر قلّة طعامه، وبساطة مائدته، ومحدودية ملابسه وتعدادها القليل، وغياب الأبّهة عن مكتبه وما يحيط به.

في زهده كبرياء وعمق، وفي صبره متّسع لكواكب وأثقال، وفي صدره هدف يتفلّت مثل النبع بين صخور الصوّان. باختصار يريد أن يُصلّي في القدس المحررة، ليكتب التاريخ أن القدس التي فتحها عمر بن الخطاب وحررها صلاح الدين – رضي الله عنهما - قد أعاد تحريرها ياسر عرفات، وهذا من حقّه، ومن حقّه علينا أن نُعينه على ذلك، رغم كل ما نختلف معه عليه، حول قضايا، على أهميتها، تبدو ثانوية أمام هذا الهدف العظيم.

خصومه هم غالباً خصوم وأعداء شعبه، ومحبّوه شعوب تهتف لفلسطين ولمقدساتها. بل إن إعداءه يسعون إلى توجيه الإهانات إليه ويعلنون رغبتهم في كسر شوكته وإذلاله، رغم أنهم يعلمون أنه لن يمنحهم توقيعه الذهبي على وثيقة الاستسلام، بل سيمنح هذا التوقيع لاتفاق السيادة والدولة بعاصمتها القدس وعودة اللاجئين . ولن يجدوا أحداً غيره -الآن - يستطيع أن يمهر الاتفاقات، ويثق به شعبه الفلسطيني .لهذا فأعداؤه عاجزون عن قتله وعاجزون عن ابتلاعه .. يريدون التخلّص منه لأنه عقبة كأداء في طريق تسويتهم لقضية شعبنا، ويلحّ عليهم لننال حقوقنا المشروعة في حدودها المعقولة والمقبولة، ولا يريدون التخلص منه لأنه الوحيد القادر على ضبط الفلسطينيين وعلى منح موافقتهم على الاتفاقات، لهذا يعذّبونه ويسجنونه ويوجّهون غيظهم وإهانتهم له، وهو صابر ثابت، مدرك للعبة الصعبة التي تتفاقم حوله .لكنهم سيقضون عليه إذا خرج عن دائرة السيطرة الإقليمية .

تراه يلبس ثياب الفِرَق التي تلعب، بل إنه يلعب بالكرة نفسها وفي الملعب ذاته، وبشروط الحَكم نفسه، لكنه دائماً يسعى لردّ الكرة إلى النصف الآخر، أو إلى الفريق الخصم . ربما يكون مضطراً لذلك، لأنّ أسباباً ثقيلة، دولية وإقليمية، تدفعه إلى ذلك الملعب الكريه، ويعرف أبو عمّار جيداً أن لذلك «اللعب» ثمناً باهظاً.

إن معضلة ياسر عرفات تتمثل، تاريخياً، في إيجاد جواب شاف لسؤال التنازل عن فلسطين التي تم احتلالها العام ١٩٤٨، رغم كل المبررات التي يسوقها الذين دفعوا باتجاه « السلطة الوطنية «، والتي لها وجاهتها، ومن الصعب عدم الالتفات إليها . غير أن عدم إيجاد حلّ لقضية أربعة ملايين

لاجئ فلسطيني في الشتات، والإغراق في الحلّ الجغرافي (الضفة والقطاع) وعدم إبقاء منظمة التحرير الفلسطينية غطاء قانونياً وتمثيلياً للاجئين، يعمّق تلك المعضلة، ويُبْقي الأبواب مفتوحة على مصاريعها، للنقد والاتهام.

وبالرغم من أن قوّة الشروط الموضوعية الفلسطينية المحيطة بياسر عرفات، قد تسللت إلى بعض سياسات القيادة والقائد، على وجه الخصوص، فإن أبا عمار كان أكثر مناعة من أن تجتاحه تلك الشروط أو تسيطر عليه. والمفارقة، أيضاً، أن بعض سياسات القائد قد أثّرت كثيراً في المحيط المجتمعي الفلسطيني، وظهرت تجلّياتها، غير مرّة، وبشكل ظاهر.

إن أعداء ياسر عرفات الذين ينتقدون سلطته بالفساد هم كاذبون، لأن مصلحتهم تقتضي بأن تكون السلطة فاسدة، غير أن هؤلاء الأعداء يوظّفون هذه الظاهرة للإساءة لياسر عرفات ولابتزازه والضغط عليه. وإن مجمل الانتقادات التي يتم توجيهها لياسر عرفات إنما تستهدف ما يمثّله ياسر عرفات وطنياً ورمزياً، ولا تستهدف شخصه أو مساوئ موجودة وتمس الشعب الفلسطيني . وهذا لا يعني أن أبا عمار معصوم عن الخطأ، أو غير مُطالب، فلسطينياً، بمعاودة الكثير من الظواهر وتصحيحها، وعَجْم مَنْ حوله، وفرز الكثير من الخطوط المتداخلة. إنني لا أطالب بتقديس شخص ياسر عرفات، لكنني أعارض الإساءة المجّانية لهذا الرجل الذي يصيب ويخطئ، لكنه - رغم كل ذلك - ما زال ذلك المناضل الذي لم يتنازل عن القدس، ولم يعط جواده للريح والأعداء.

وياسر عرفات أسطورة الناس، التي اتفقوا على أن قوامَهُ يحتمل أثقالهم وهواجسهم ورغباتهم، فوضع كلُ فلسطيني وعربي شيئاً من نفسه في أبي عمّار، فأصبح مِلْكاً لكل الناس الطيّبين، الذين استجاب لهم، وتماهى مع تطلّعاتهم وأحلامهم وعبّر عنها، وأصبح وجدانهم وهتاف روحهم، وأفتُتِنوا بمخلوقهم، وأصبح نجمَهم الذي يسعون إليه، ويتلقفون مواقفَه وكلماته، ويحفظونها ويردّدونها، ما يفسّر تلك الجماهيرية والإقبال، منقطع النظير، على التقائه وأخْذ الصور معه ووضعها على جدران التباهي والانتماء.

ولهذا، فإن كل عربي وإنساني، يحس أنه «حصَّته» مُحاصَرَة في هذا العملاق الفذّ، وأنه جزء من حالة رمزه الذي يفتخر به ويباهي.

حصار الرئيس

يوم العشرين من أيلول - أسبوع كامل ويكتمل العامان على بدء انتفاضة الأقصى – ويوم التاسع عشر من أيلول كان يوم جمعة، حيث صلّى المسلمون في بيوتهم، لأن المساجد والجوامع لم تفتح

أبوابها منذ نصف عام وأكثر . أي سته أشهر لم يُرفع فيها اسم الله على المحاريب والمنابر، وغاب صوت المؤذّنين يدعون إلى الصلاة، أي حيّ على الصلاة وليس «حيّ على الجهاد «. الصلاة ممنوعة في المساجد في زمن الاحتلال اليهودي!

والصلاة ممنوعة في الكنائس في زمن شارون وبوش وصمت العالم المسيحي والإسلامي والبوذي واليهودي والسيخي!

وعلى الموتى أن ينتظروا في ثلاجاتهم، أو على التذاكر الخشبية وتكّة غسل الموتى ! وعلى الأجنة ألا يتعجّلوا صرخة الولادة! وعلى المرضى أن يكتموا أوجاعهم وآلامهم ويعضّوا على أقرب شيء! وعلى الجوعى أن يضعوا حجارة على بطونهم حتى لا يعصرهم الجوع بمخالبه وأنيابه !

وعلى الآباء الذين ينظرون أبناءهم مكوّمين أمامهم كابين مكتئبين خائفين، دون خبز أو حليب أو ماء أو كهرباء أو حراك، أن يغمضوا عيونهم، وينسوا، إن استطاعوا! وعلى مَن هدموا بيته، أو قتلوا ولده، أو خلعوا حقله، أو هرسوا مركبته، أو حرقوا مخزنه، أو جرحوا زوجه، أو سجنوا شقيقه، أو ضربوا وأهانوا جاره، أو منعوا خاله من العمل، أو عمّه من الوصول إلى المشفى، أو منعوا أخته من الولادة في العيادة، وحالوا دون أن يذهب صغاره إلى المدارس، أو حبسوا شعبه كله في معازل كبيرة ثم في سجون صغيرة هي بيوتهم، لمدة عامين كاملين، ومن دون أن يقف العالم ضد كل ما يجري، عليه ألا يفقد عقله أو يُصاب بمرض مُميت، بل عليه أن يبتسم ويأخذ زينته ويبحث عن أقرب منصّة حجريةً، ويقف، ويجمع كلَّ الماء الذي في فمه ويبصق في وجه العالم .

وكان يوم الجمعة، العشرين من أيلول ٢٠٠٢، يشهد المرة الثالثة التي يحاصر فيها جيش الاحتلال الإسرائيلي مقرّ الرئيس ياسر عرفات في رام الله بالمدرّعات والمجنزرات والجرّافات والديناميت، وبغطاء من طائرات التصوير ومروحيات (أباتشي)، وبالصواريخ، وبحملة إعلامية مسعورة تمتد من تل أبيب إلى واشنطن . يقوم الجيش بكل آلياته بهدم ما تبقى من أبنية وكراجات وقاعات وممرات وأرضيات وأرصفة ومخازن ومسجد صغير وساحة مهبط لطائرة الرئيس، ويظل الرئيس ومن معه في غرفتين ناتئتين كالمسلّة الغليظة وسط فراغ مخيف، والأدهى أن المسؤولين العرب (والأصدقاء) والمسلمين يجرون الاتصالات ويتوسّلون أميركا، لعلّها تضغط على شارون ليوقف عدوانه ضد مقر أبي عمار. العالم العربي والإسلامي كلّه من المحيط إلى الخليج والذي يطالب بالتطبيع وليس بالتحرير، يرجو شارون ليوقف عدوانه ضد رجل ليس له ذنب سوى أنه يرفض أن يكون مطيّة أو عبداً أو بيدقاً بيد شارون أو بوش!

وهذا الرجل لا يطلب إلقاء إسرائيل في البحر أو تفجيرها، بقدر ما يعلن استنكاره للعمليات

الاستشهادية التي تقع هناك داخل إسرائيل! فماذا يريدون من هذا الرجل أن يكون عميلاً صغيراً، ولعبة متحركة بيد شارون؟! ماذا يريدون من رجل وافق على (تطويب) ثمانين بالمئة من فلسطين التاريخية لليهود، الذين ليس لهم أي حقّ في فلسطين، مقابل أن يقيم دولته الصغيرة على ما تبقّى منها ؟!وماذا يريدون من رجل يُبدي استعداده للتعاطي مع إسرائيل التي عليها أن تعطي الفلسطينيين بعض حقوقهم المستلبة؟ أي مشهد كاريكاتوري أبلغ من هذا المشهد: العالم يتوسّل شارون المعتدي ويرجوه أن يوقف مذبحته بحق الأبرياء ثم يعلن للعالم، في مجلس الأمن أن على الفلسطينين حماية أمن إسرائيل !! وأنّ ما يجري حول مقرّ الرئيس عرفات لا يعد أمراً خطيراً، ثم تعلن أميركا أنها تتفهّم ردّة فعل إسرائيل التي تدافع عن أمْنها !! هل ثمة شيء آخر غير أن نغسل وجه هذا العالم؟

منذ عام تقريباً وهم يحاصرون ياسر عرفات الذي لم يغادر مربّعه، إلا ساعات هنا وهناك. عام كامل وأبو عمار محاصر، مسجون، محبوس، مراقب، محاط بالبنادق والمناظير الليلية وفوّهات المدافع ورشاشات الطائرات، مضغوط، يضعون أمامه قوائم مطالبهم واشتراطاتهم المُذلّة المستحيلة، لكن أبا عمار الذي لم يكن هذا حصاره الثالث بل هو الثالث والثلاثون .. يعرف جيداً قَدَره وقَدْره، ويعلم أنه المتوّج رغم ان الآخرين يظهرون كالمنتصرين . وربما على شارون ألا يحارب، هو وغيره، اثنين، الأول الذي لا تهمه الخسارة والثاني الذي يكون على حق . وأبو عمار تهمّه الخسارة وتحزّ في قلبه، لكنه يحتملها، وأبو عمار محقّ إلى يوم يُبعثون، لهذا فهو المنتصر، مهما تكن النتيجة ولن يكون شارون أكثر من مجرم سفّاح محتلّ متغطرس ..

إن ياسر عرفات، وهو مُحاصر، يصنع التاريخ الصعب، رغم حملات التشويه والتشكيك والتبسيط المشبوه . وياسر عرفات يتمتع بمعنويات فذّة لا تليق إلا برجل مثله. لقد تحدثت معه عبر الهاتف لأطمئنّ عليه، لكنه سأل عن الناس والصغار، وراح يطمئنّ علينا!

أي إيثار وجسارة وعلوّ يتمتع به هذا الرجل ؟! تحاول أن تسنده بالكلمات لرفع معنوياته، فيمدّك بفيض من الثبات والرسوخ والإيمان والصبر.

إن الحديث مع ياسر عرفات، في مثل هذه الظروف، وهو مستهدَف ومخذول، يُنسيك مرارة القهر، ويأخذك إلى صموده وإشراقه. لكنني أسأل، مع هذا، عن غياب صوت الكثير من المسؤولين الفلسطينيين، الذين التزموا الصمت، ولم يحرّكوا ساكناً، ولم يرفعوا عقيرتهم احتجاجاً واستنكاراً وتحركاً إعلامياً وفصائلياً وجماهيريا في قطاع غزة والضفة الغربية والقدس وعبر الفضائيات والبيانات .. أين هديرهم؟ وأين صوتهم الناقد الناقم؟ وماذا يعني هذا السكوت؟! هل يريدون

إثبات أنهم مثل باقي المسؤولين العرب؟!

عندما اجتاحت قوات الاحتلال الإسرائيلي أوّل مرة مدينة جنين ومخيمها البطل، قبل الاجتياح الشامل الذي وقع في شهر آذار، ببضعة أشهر، سمعنا تصريحات تقدح شرراً وتهديدات مهولة مرعبة، من بعض المسؤولين الفلسطينيين والوزراء والأمناء والوكلاء.. الخ، الأمر الذي اطمأنّ معه الناس، إلى أن هؤلاء المسؤولين قد رتّبوا كل شيء، وأن إسرائيل ستغرق في وحل دمائها إذا اجتاحت شبراً واحداً من الأراضي الفلسطينية، واكتشفنا بعد أسابيع أن إسرائيل كانت تجتاح بعض المناطق، وتخرج منها، لقياس قوتنا، وإجراء تمرين «بروفا» للاجتياح الكبير، وتعرف ردود فعلنا وإمكانياتنا وقدراتنا، وربما كانت تعرف - للأسف - أن تلك التصريحات النارية لم تكن أكثر من زبد .. ربما كانت هي وراء تصديره للناس، لإيهامهم وإحباطهم وتعميق مأساتهم.

كان محاصراً تدكّ غرفتَه مدافعُ الاحتلال، وتتفلّع الجدران من حوله من جرّاء القذائف، واحترق كل التموين في مخازنه .. ولم تعد أمامه حبة أرز أو شربة ماء؟!

إنّ حصار ياسر عرفات هو تتويج لكل حصارات الاحتلال التي يفرضها على كل ما هو ومَنْ هو فلسطيني . وهو حصار يهدف إلى توجيه إهانة لكل مسؤول وفرد عربي يخفق قلبه للقدس، أو تقطر عيناه مع أمهات الشهداء على القتلى، بل هو تلويح أميركي إسرائيلي لكل حاكم عربي، مسلم، أو في أية بقعة في هذا الكوكب، ودرسٌ لهؤلاء الحكّام ينبغي عليهم فهمه، ومفاده، أنه إذا لم يخضع كل حاكم لإدارة أميركا وإسرائيل، فإن مصيره سيكون الإهانة والحصار والعزل.

وإن حصار ياسر عرفات هو ذروة الحصارات الأميركية الإسرائيلية المضروبة على ثروات العرب والمسلمين ومقدّراتهم وقراراتهم ومستقبلهم، وهو أحد تجليات السياسة الأميركية الإسرائيلية التي ما فتئت تستبيح كل شيء، وتوظّف كل شيء، لإشباع شهواتها وتحقيق رغباتها على حساب الشعوب، دون أدنى رادع من الاخلاق أو الأعراف أو المواثيق.

وإن حصار ياسر عرفات يؤكد أنّ لاءه ما زالت قائمة، وأنه لم يرفع، ولن يرفع، الراية البيضاء.

وبقينا مع هذا الرجل، ومع ال»لا» الفلسطينية، وما زال الختيار يُصرّ فينا على نيل حقوقنا المتمثلة في إقامة دولتنا المستقلة كاملة وعاصمتها القدس الشريف، وعودة اللاجئين إلى وطنهم الأول .. غير منقوصين. إننا نعوّل على هذا التاريخيّ الذي ينبض فينا .. ونراهن عليه.

أوراق المؤسسة

تقرير فعاليات مؤسسة ياسر عرفات

استطاعت مؤسسة ياسر عرفات خلال عام ٢٠١٧ المحافظة على برامجها وتطوير برامج أخرى تهدف إلى خدمة رؤية وأهداف المؤسسة. كما قامت بالتركيز على المخيمات الصيفية لأشبال وزهرات فلسطين خلال الفترة الصيفية والتحضير لفعاليات الذكرى الثالثة عشرة لاستشهاد القائد المؤسس. وتقوم المؤسسة حاليا بالعمل على تطوير خطة برامجية لعام ٢٠١٨ تثبت بعض البرامج المركزية للمؤسسة وتطويرها لتكون برامج نوعية تتعلق بالثقافة والذاكرة الوطنية وتاريخ وتراث ياسر عرفات والحفاظ على القيم التي تركها لنا. وستقوم المؤسسة عام ٢٠١٨ بوضع حجر الأساس لمقر المؤسسة الجديد على قطعة ارض تم فرزها من بلدية رام الله. أما الفعاليات خلال عام ٢٠١٧ فكانت كالتالي:

اجتماعات مجلس الإدارة ومجلس الأمناء

عقدت مؤسسة ياسر عرفات ما بين يناير/كانون الثاني وتشرين الثاني/نوفمبر٢٠١٧، ثلاثة اجتماعات لمجلس الإدارة في ٢٠١٧/٢/٢٢، ٢٠١٧/٥/١، و٢٠١٧/١٠/٩ ناقشت فيها الأمور والمستجدات الإدارية والمالية للمؤسسة، والأنظمة واللوائح وتعديلها وكذلك عمل اللجان ورفع توصيات لمجلس الأمناء بأسماء أعضاء جدد. كما نوقشت الأوضاع السياسية العامة التي تمر بها فلسطين كإضراب الأسرى، وضع القدس واستعادة الوحدة. كما تم تقديم اخر المستجدات في سير عمل المتحف والمخيمات الصيفية.

وناقش مجلس الإدارة برنامج احياء الذكرى ١٣ لاستشهاد القائد المؤسس واقرار منح جائزة ياسر عرفات للانجاز للعام ٢٠١٧ مناصفة بين البطريرك ميشيل صباح والمفتي محمد حسين. وتم اقرار موعد الاجتماع الحادي عشر لمجلس الأمناء في القاهرة في نهاية فبراير عام ٢٠١٨ حيث سيتم تكريم الأخ هاني فحص على هامش الاجتماع وسيتم دعوة المبعوث الروسي ميخائيل بوغدانوف كضيف شرف لملتقى الحوار ٢٠١٨. كما عقد اجتماع مجلس الأمناء في جامعة الدول العربية في القاهرة يوم ٢٠١٧/٢/٢٣ حيث تم اعتماد كل من د. ايهاب بسيسو والسفير حسام زكي اعضاء لمجلس امناء المؤسسة. وتمت المصادقة على التقارير المالية والإدارية وتقديم تقرير اللجنة الطبية حول اغتيال ياسر عرفات. وأعاد الاعضاء انتخاب السيد عمرو موسى رئيسا لمجلس الامناء ود. نبيل شعث نائبا له والابقاء على مجلس الإدارة بتركيبته الحالية بإضافة د. نبيل العربي بدل السفير عبد الرؤوف الريدي لاعتذاره عن المهمة.

ملتقى الحوار « الادارة الامريكية الجديدة: التحديات عربيا وفلسطينيا»

نظمت مؤسسة ياسر عرفات في ٢٣ شباط/فبراير، ٢٠١٧ وللسنة الثالثة على التوالي ملتقى للحوار بالقاهرة وبالتزامن مع انعقاد الدورة العاشرة لمجلس أمناء المؤسسة بعنوان:» الادارة الاميركية الجديدة: التحديات عربيا وفلسطينيا»، وقد ادار الندوة السيد عمرو موسى رئيس مجلس الامناء، وتحدث فيها كل من د. أحمد الطيبي ود. غسان الخطيب، والسفير حسام زكي ود. صائب عريقات.

وخرج الملتقى بضرورة أن تولي القمة العربية القادمة بعمان موقفا موحدا وواضحا نحو الادارة الاميركية لتحترم حل الدولتين ولجم الاستيطان واحترام الحقوق الوطنية الفلسطينية واهمية انهاء الانقسام واعادة الوحدة السياسية والجغرافية للنظام السياسي الفلسطيني على اساس انهاء سيطرة حماس على قطاع غزة وتوفير الشراكة السياسية الكاملة لكل القوى والفصائل الفلسطينية مع الاتفاق على برنامج سياسي موحد على قاعدة منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي والوحيد لشعبنا وبرامجها والتزاماتها.

كما طالب المتحدثون بدعم صمود الشعب الفلسطيني على ارضه في مواجهة الاحتلال وسياساته واجراءاته. كما ان الجميع نادى بضرورة التمسك بمبادرة السلام العربية ورفض محاولات الالتفاف عليها بمحاولة فرض التطبيع والحلول الاقليمية قبل وبمعزل عن الحل العادل لفلسطين.

مخيمات ياسر عرفات الصيفية

نظمت المؤسسة تسعة مخيمات صيفية في الفترة ما بين ٩-٢٠١٧/٧/٢٥ بالتعاون مع شركاء محليين من مؤسسات ومراكز المجتمع المدني. وغطت المخيمات مناطق شمال ووسط وجنوب الضفة الغربية، ٣ مخيمات في كل منطقة. وقد استهدفت مخيمات ياسر عرفات الصيفية ٩١٦ شبل وزهرة في مخيم تخصصي غير مسبوق حول حياة ياسر عرفات والذاكرة الوطنية الفلسطينية. وقد لاقت هذه المخيمات صدى واسعا على مستوى الوطن من خلال تغطية وسائل الإعلام المحلي التقليدي بالاضافة إلى وسائل التواصل الاجتماعي. وتميز هذا العام بتخصيص المخيمات الصيفية حول حياة ياسر عرفات بدعم كلّي من المؤسسة.

وتمت الشراكة مع المؤسسات التالية في المواقع:

- مركز يافا الثقافي – مخيم بلاطة – نابلس
- جمعية الأم والطفل – شويكة

- المركز الثقافي لتنمية الطفل – طولكرم
- مكتبة العلم للجميع - مجلس دار صلاح – دار صلاح
- مركزفنون الطفل الفلسطيني– الخليل
- الجمعية الخيرية الشبابية – المزرعة القبلية
- نادي الطفل الفلسطيني – كفر نعمة
- مركز لاجيء – مخيم عايدة – بيت لحم
- مركز فتيات وسيدات بيت سيرا – بيت سيرا

وقد سبق المخيمات تدريب لمدير/ة ومنشطي ومنشطات مخيمات ياسر عرفات الصيفية خلال شهر رمضان تهدف إلى توظيف نشاطات متنوعة كالدراما، والموسيقى، والفنون والرياضة في تنمية المعرفة لدى الأطفال حول تاريخ وتراث ياسر عرفات ونقل المعلومة إلى الأجيال الجديدة بطريقة سلسة وبسيطة حتى يتمكن الاشبال والزهرات من تلقي المعلومة ونقلها إلى مجتمعاتهم الصغيرة في البيت والمدرسة والأصدقاء. بالاضافة إلى مناقشة الأمور الإدارية والمالية المتعلقة بالتقارير والنماذج.

الذكرى الثالثة عشرة لاستشهاد القائد المؤسس: الملصقات وتوزيعها على كافة المواقع

قامت المؤسسة بطباعة الملصقات والدعوات وعدد من اللوحات الإعلانية فقط في منطقة رام الله. وقد تم طباعة ١٠٠٠٠ ملصق تحت شعار حتى القدس... تأكيدا على مكانة القدس خاصة بعد الهبة الأخيرة كما تم طباعة وتوزيع ٥٠٠٠ نسخة من نفس الملصق في غزة. ويحتوي تصميم الملصق على صورة للرئيس ياسر عرفات وخلفها صورة لسور القدس التاريخي وحشود مقدسية مشاركة في الهبة. وقد تم التوزيع على مختلف المناطق من خلال الاقاليم والمؤسسات والنوادي والمدارس والجمعيات والكليات، كما ارسل الكترونيا للسفارات والأقاليم الخارجية. كما قامت المؤسسة بطباعة ٣٠٠٠ ملصق اضافي لحركة الشبيبة الفتحاوية في التعبئة والتنظيم و١٠٠ بلوزة عليها شعار المؤسسة وصورة ياسر عرفات لاقليم رام الله والبيرة.

الحفل الثقافي السنوي

أحيت المؤسسة يوم الجمعة ٢٠١٧/١١/١٠ في قصر رام الله الثقافي الذكرى الثالثة عشرة لاستشهاد القائد المؤسس ياسر عرفات. وبدأ الحفل بالنشيد الوطني الفلسطيني قدمته الفرقة الموسيقية للشرطة

الفلسطينية وآيات من الذكر الحكيم تبعها كلمة ترحيبية سياسية القاها د. ناصر القدوة، رئيس مجلس الإدارة ومن ثم كلمة دولة د. رامي الحمدالله، رئيس الوزراء. تخلل الحفل تسليم جائزة ياسر عرفات للإنجار مناصفة بين غبطة البطريرك ميشيل صباح وسماحة الشيخ محمد حسين، تخلل ذلك فقرة فنية لفرقة بنات القدس – معهد ادوارد سعيد الوطني للموسيقى، وفرقة رواق للدبكة الشعبية – جمعية شباب البلدة القديمة.

جائزة ياسر عرفات للإنجاز٢٠١٧

قررت لجنة الجائزة في مؤسسة ياسر عرفات منح الجائزة لمفتي فلسطين والديار المقدسة سماحة الشيخ محمد حسين، ولغبطة البطريرك ميشيل صباح، تقديرا وعرفانا لدورهما البارز في خدمة فلسطين والقدس.

غبطة البطريرك ميشيل صباح

ولد في الناصرة في العام ١٩٣٣. بدأ دراسته الكهنوتية في المدرسة البطريركية اللاتينية في بيت جالا في العام١٩٤٩ ثم واصل دراساته العليا، وتدرج في المناصب الكهنوتية والتعليمية حتى عين في العام ١٩٨٠رئيساً لجامعة بيت لحم. وفي العام١٩٨٧ عينه البابا يوحنا بولس الثاني في منصب بطريرك اللاتين في القدس، ليكون الفلسطيني الأول الذي يشغل هذا المنصب، وصاحب أعلى درجة كهنوتية كاثوليكية في الأراضي المقدسة.

كان البطريرك ميشيل صباح في طليعة المبادرين والموقعين على وثيقة «وقفة حق – كايروس فلسطين» في العام ٢٠٠٩ وهي كلمة الفلسطينيّين المسيحيّن للعالم حول ما يجري في فلسطين من ظلم بحق الفلسطينيين على مرآى ومسمع من العالم.

عينه الرئيس محمود عباس في العام ٢٠٠٩عضوا في الهيئة الإسلامية المسيحية لنصرة القدس والمقدسات، ومنذ العام ٢٠١٢ أصبح الرئيس المسيحي للهيئة .

ولغبطته مكانة كبيرة لدى الشعب الفلسطيني، لما يمثله من نموذج للعطاء والعمل والتلاحم الوطني، ولدوره البارز في المجالات الدينية والاجتماعية والتعليمية، ونضاله انتصاراً لحقوق وتطلعات شعبه في الحرية والاستقلال وإقامة الدولة الفلسطينية وعاصمتها القدس .

سماحة الشيخ محمد حسين

ولد الشيخ محمد حسين في القدس في العام ١٩٥٠، وفي رحاب المسجد الأقصى نهل العلم وتخرج متفوقا من ثانوية الأقصى الشرعية في العام ١٩٦٩،ثم واصل دراساته الجامعية العليا ليلتحق بعد ذلك بإدارة الأوقاف الإسلامية معلما وواعظا وخطيبا في المسجد الاقصى ثم مديرا لشؤونه نحو عشرين سنة، كانت حافلة بالانجازات وبالنضال والصمود في وجه هجمات قوات الاحتلال الإسرائيلي ومستعمريه. وعينه الرئيس محمود عباس مفتيا عاما للقدس والديار الفلسطينية في العام ٢٠٠٦.

وإضافة إلى منصبه : المفتي العام للقدس والديار الفلسطينية ،يشغل الشيخ محمد حسين حاليا عضوية عدة مؤسسات ومجالس علمية ودينية ووقفية فلسطينية وعربية ودولية مرموقة، وهوعضو مؤسس في العديد من الجمعيات الخيرية،ويرأس المجلس الأعلى للإفتاء و المجلس الاستشاري لكلية القرآن والدراسات الإسلامية.

مراسم وضع الاكاليل على ضريح القائد المؤسس ياسر عرفات

نظمت المؤسسة يوم السبت الموافق ٢٠١٧/١١/١١ مراسم رسمية لوضع اكاليل على ضريح القائد المؤسس ياسر عرفات احياء لذكراه الثالثة عشرة. وبدأت الوفود بالرئاسة الفلسطينية تبعتها رئاسة الوزراء ومن ثم اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، واللجنة المركزية لحركة فتح ومجلس إدارة وطاقم المؤسسة. وبعد انتهاء المراسم الرسمية حضر عدد كبير من أبناء الشعب الفلسطيني لقراءة الفاتحة على ضريح الرئيس ياسر عرفات احتراما وتخليدا لذكراه.

مسابقة بالمعرفة الوطنية «أحداث المائة سنة الأخيرة» فلسطين في قرن

أطلقت مؤسسة ياسر عرفات بالتعاون مع وزارة التربية والتعليم العالي مسابقة بالمعرفة الوطنية «أحداث المائة عام الأخيرة» فلسطين في قرن والتي تهدف إلى تعزيز الانتماء الوطني وزيادة الإطلاع والمعرفة على التاريخ الوطني الحديث ودعم المناهج الوطنية بإضافات نوعية بالمعرفة الوطنية. وستستهدف المسابقة ١٧٠ مدرسة في ١٧ مديرية للصفوف التاسع والعاشر والحادي عشر وستقوم المؤسسة بإعداد الاسئلة وتأمين الزيارات المتحفية وتقديم جوائز تشجيعية لأول ٣ مراكز في المسابقة النهائية. وسيقوم تلفزيون فلسطين بالتغطية الإعلامية للمسابقات في المحافظات وسيبث مباشرة آخر ست حلقات من متحف ياسر عرفات بالاضافة للحلقة النهائية السابعة التي ستبث في ٢٠١٨/٣/٣٠.

منحة ياسر عرفات للتعليم

تستمر مؤسسة ياسر عرفات بدفع أقساط للطلبة الأشد احتياجا من أبناء المجتمع الفلسطيني في الجامعات الفلسطينية هدفها التأكيد على أهمية التعليم في ظل الظروف المعيشية الصعبة. وقد بدأ العمل بهذا المشروع في شهر نيسان/ابريل ٢٠١٥ وما زال مستمرا حتى تاريخه.

استمرار تمويل مشروع «تفوق دراسي» مع جمعية صوريف للتعليم العالي بمرحلته الثالثة

تستمر مؤسسة ياسر عرفات بتمويل مشروع تفوق دراسي مع جمعية صوريف بناء على تقييم مراحله الاولى والثانية ونجاحها من حيث رفع العلامات بسبب دروس التقوية ورغبة الطلاب وحاجتهم لدروس تقوية في مواد الرياضيات والفيزياء واللغة الانجليزية. وتم الاستمرار في دورات حاسوب لربات البيوت سيدات المنطقة.

الإعلام نظرة عامة

يخاطب قسم الإعلام في المؤسسة، الجمهور الفلسطيني وغير الفلسطيني باللغتين العربية والإنجليزية، بشكل رئيسي من خلال الموقع الإلكتروني للمؤسسة www.yaf.ps ومن خلال صفحات المؤسسة على مواقع التواصل الإجتماعي: (Facebook, Twitter, Instagram, Google plus, Linkedin, Youtube)

سجلت هذه النوافذ مجتمعة أكثر من أربعة عشر مليون ونصف المليون قراءة ومشاهدة، خلال الفترة بين شهري شباط وتشرين الثاني٢٠١٧.

تخاطب المؤسسة جمهورها أيضا، من خلال التطبيق (مؤسسة ياسر عرفات) الخاص بالهواتف الذكية والأجهزة اللوحية، وخدمة الرسائل النصية (BULK SMS)

خلال هذا العام، أصدر قسم الإعلام ٤٦ بيانا صحافياً، حول نشاطات المؤسسة، نشرت هذه البيانات في الصحف ووسائل الإعلام الفلسطينية وبعضها عبر صحف ووسائل إعلام عربية وعالمية.

التواصل مع وسائل الإعلام الفلسطينية وغير الفلسطينية

عمل قسم الإعلام على مدار العام على توفير كل ما يلزم لتسهيل عمل وسائل الإعلام خلال تغطيتها لأخبار المؤسسة عن طريق ترتيب المقابلات والتنسيق للتصوير خاصة في منطقة ضريح ومتحف ياسر عرفات، إضافة إلى التنسيق لتزويدها بمواد من أرشيف المؤسسة للأغراض الإعلامية تخص القضية الفلسطينية. كما يقوم بتوثيق وتغطية كافة نشاطات وفعاليات المؤسسة.